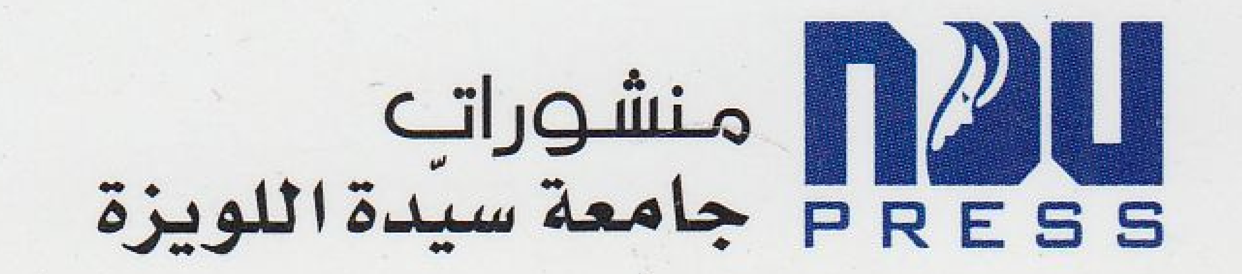
كارولين بيكوزي

البابا في حياته الخاصّة

تعريب
المطران فرنسيس البيسري




البابا
في
حياته الخاصّة

كارولين بيكوزي



تعريب

المطران فرنسيس البيسري

البابا في حياته الخاصّة

تـأليــف: كارولين بيكوزي **Caroline Pigozzi**
تعريــب: المطران فرنسيس البيسري
تـحـريــر: جورج مغامس
الطّبعة الأولى: ٢٠٠٢
القيـــاس: ١٧×٢٤
تـنفيـــذ: مطابع معوشي وزكريّا
ISBN: 9953-418-38-1
منشـورات: جامعة سيِّدة اللويزة© — لبنان

مقدّمة

كيف اقتحمتُ الباب البرونزيّ عنوةً

مذ كنتُ في الصفّ الثانويّ الأوّل في روما عند الآباء الدومينيكان، راودني حلمٌ في أن ألتقيَ الأب الأقدس، الذي ما رأيته إلاّ مرّة واحدة. لقد حظينا، وكنّا نرتدي تنانير مكويّة، زرقاء بحريّة، بمقابلة البابا بولس السادس والجلوس على مقربة منه هو ذو الوجه الجامد والوقور معاً، على ما يمكن أن تتخيّل صبيّةٌ الحبرَ الأعظم. لقد أثّرت هذه الرؤية فيّ تأثيراً قويّاً وإلى زمن طويل. كان الفاتيكان يبدو لي مكتنَفاً بالأسرار. فضلاً عن ذلك، كانت الأمّ الرئيسة صادرت من إحدى رفيقاتي في غرفة النّوم، وعلى صراخ عالٍ، كتاباً لِـRoger Peyrefitte تحت عنوان "مفاتيح القدّيس بطرس" (وقد عرفت بعدئذ أنّه كان كتاباً انتهك قدسيّة الفاتيكان). وعندما أصبحتُ صحافيّة، راودتني، كما العديد من زملائي، الرّغبة في أن أَلِج أسرار الفاتيكان مثلما يحلم آخرون بأن يلجوا أسرار الكرملين أو البيت الأبيض. وعاودتني هذه الرّغبة بمناسبة زيارة يوحنّا بولس الثاني باريسَ في حزيران ١٩٨٠.

ذاتَ مساء، كان على البابا أن يغادر مرفأ "de l'Hotel de Ville"، على متن مركب – ذبابة، ليصل إلى السفارة البابويّة. كنت أسكن شارع الزهور قبالة مركز عمدة باريس. قبل مرور الأب الأقدس ببضع ساعات، احتلّت فرقة من القنّاصة المميّزين منزلي، مزوّدين بمناظيرَ وببنادقَ مزوّدةٌ هي الأخرى بمناظير. كان يرافق رجالَ البوليس هؤلاء اختصاصيٌّ في علم القذائف يرتدي سترة زرقاء ويعتمر خوذة. كان هناك خوف من محاولة اغتيال يوحنّا بولس الثاني. إنّ هذه السوانح التي تبدّلت إلى عيد شعبيّ في مدينة

باريس بفضل البابا، أيقظت فيّ حشريّة أيّام صباي. عندها قرّرت بأنّي سأقتحم أبواب الفاتيكان يوماً، يحدوني التحدّي والرغبة في آن.

الرغبة، لأنّ البابا هو من أصل سلافيّ، وأنا في عروقي يسير دم روسيّ من ناحية أمّي. وقد يكون أنّ هذا الدم هو الذي تكلّم عالياً.

إنّما كان هناك تحدٍّ أيضاً، لصحافيّة امرأة، في أن تقترب جدّاً من يوحنّا بولس الثاني، الراعي المواهبيّ لتسعمئة وخمسين مليوناً من الكاثوليك ولثلاثة ملايين ونصف المليون من الكهنة. لقد أصبح عليّ الآن أن أجد المناسبة. فاستولت عليّ هذه الفكرة ولسنين عديدة، كنت خلالها، كلّ مرّة أجدني في روما، أذهب لأتأمّل البابا إبّان البركة التي كان يمنحها كلَّ أحد ظهراً من شرفته. كنت أقبل البركة مع من يقبلها. وكنت أقول في ذاتي بأنّي سأكون سعيدة، إذا تمكّنت يوماً من وضع تحقيق كبير حول الفاتيكان. لكنّ هذا يتطلّب اقتراباً منه طويلاً.

مبدئيّاً، إنّ الفاتيكان هو مشرّعُ الأبواب لكلّ المؤمنين، لأنّ البابا يمنح فيه كلّ يوم أربعاء مقابلةً عامّة للحجّاج. ولكنّ هؤلاء يَرونه من بعيد. بعضُهم، وبعد تدافع، قد يصلون إلى لمس ثوبه الأبيض، من دون أن يتمكّنوا من التحدّث إليه، وقليلون جدّاً هم الذين يحصلون على حديث خاصّ معه. أمّا أنا، فكنت أصبو إلى أكثر. ما كنت لأكتفيَ بالصّورة المسجّلة وبرؤية الحبر الأعظم الجليلة: كان طموحي أن أَلِجَ، إذا صحّ الكلام، قصّةَ حياته. ما كنت أريد فقط أن ألمس الانسان ذا اللّباس الأبيض، بل كنت أحلم أكثر فأكثر أن ألج عالَمه التصوّفيّ والسرّيّ، عالم الفاتيكان.

ولكنّ الفاتيكان هو قلعة حصينة. فمنذ عصور، رُفِعَت حول البابا أسوارٌ خفيّة، وحُفِرَت خنادقُ غيرُ مرئيّة، ووُضِعَت ممنوعاتٌ غيرُ معلنة. فالسّور الأوّل، بالنسبة إلى صحافيّ، هو مدير غرفة الصحافة، الدكتور Joaquin Navarro-Valls، ابن الأربع والستين سنة، وهو طبيب نفسانيّ تلقّى دروسه في Harvard، ومراسل قديم لصحف اسبانيّة منها (ABC, Nuestro Tiempo et Actualidad medical) وقريب من "L' Opus Dei". إنّه عالم نفسانيّ. إذاً يحلّل كلّ شيء ممّا أنت، ويصنفّك حسب مقاييسه الخاصّة. يخصّ بامتياز الصحافة الأميركيّة لقوّتها، وصحافة اللغة الاسبانيّة لعالميّتها. الصحافيّون الفرنسيّون هم مشكوك في أمرهم (والغلطة تعود لروسّو وفولتير) في ما يتعلق بقلّة الاحترام الدينيّ؛

وهذا هو الحاجز الأوّل الذي على المراسل الفرنسيّ أن يتخطّاه. لا تحسب فقط أنّه من الصعب أن تلقاه لأنّه لمن المستحيل أيضاً الاتصال به على الهاتف من أُناس لا يعرفهم. إنّ اليزابيت أمينة سرّه، ذات الطبع الشرس، تقيم حوله حاجزاً متصلّباً ومثبّطاً للعزيمة. وإذا نجحتَ، بطريقة عجائبيّة، في الحصول على مقابلة، فهذه تكون بعد زمن طويل جدّاً ومصادفةٍ تفوق بكثير وقت إقامتك. ففريق National Geographic Magazine انتظر سنة قبل أن يحصل على اللقاء. على كلّ حال، إنّ علاقة أمراء الكنيسة مع الزمن قريبة من العلاقة التي لهم مع الأبديّة. فعندما طلبت في تشرين الأوّل سنة ١٩٩٩ من السفير البابويّ الجديد لدى باريس المونسينيور Fortunato Baldelli أن يستقبلني لأتعرّف عليه بصفتي مراسلة كبيرة لـParis Match، عرض عليّ بطريقة حبيّة أن أتّصل به في تشرين الأوّل ٢٠٠٠؛ ففي الوقت الحاضر هو مشغول جدّاً.

هناك حاجز آخر يعيق الدخول إلى الفاتيكان: إنّه اللّغة. فالكرادلة والأساقفة يتكلّمون دائماً بطريقة ديبلوماسيّة جدّاً، وبكلام مفرط في الدقّة، حتّى أنّ الذين لا يألفون مكيافيل وتاليران يجدون ذاتهم في ارتباك. إنّها لغة مزيج من الكلام العذب والمراوغ والممالق. علاوة على ذلك، يتكلّمون الايطاليّة. وفي ظنّنا أنّهم ينطقون بلغة الكنيسة اللاتينيّة. إنّه ليصعب على "البربريّ الغريب" أن يتحدّث إليهم. أميركيّ واحد من الأميركيّين العديدين توصّل أن يتخطّى هذا العائق: إنّه الصحافيّ السابق لِـ"Washington Post" المدعوّ "Carl Bernstein" الذي حقّق نتيجة مرموقة أشهر بكثير من قضيّة Watergate التي أسقطت نيكسون. إنّه لَصحيح من أنّ دليله كان الشيطان Marco Politi، المخبر اليوميّ الدينيّ لصحيفة La Republica. إنّ من لا يفهم لغة هذا العالم الصغير المتحفّظ والموقّر الذي يعيش منذ عصور محاصراً في هذه القصور المخمليّة، ولا يَفْقَه عاداته ولا نظام حياته، يبقى خارج اللعبة. هذا يعني أنّنا لا نجدنّ شخصاً محبّاً في هذا المكان الصامت ليشرح لنا الميكانيكيّة التي تفتح كلّ الأبواب والمغالق وتعطيك مفاتيح مار بطرس.

قد يمكن أنّي كنت مسلّحة أفضل من آخرين لأدخل هذه الحلقة الأولى ولأفكّ رموزها، ذلك أنّي قضيت شبابي في St. Dominique de Rome حيث كان الأب Poupard مرشداً لي وكان يعمل آنذاك في أمانة سرّ حاضرة الفاتيكان. (إنّه اليوم كاردينال ووزير الثقافة الفاتيكانيّة). لقد استلطفني لحشريّتي النهمة في معرفة أسرار هذا المكان

السلطويّ الذي كان يألفه، والذي كان يلذُّ له أن يخبرني عن أجهزته وأسراره الصغيرة والكبيرة. إنّ Paul Poupard كان يعرف كلّ شيء، بصفته عضواً في ديوان وزارة مهمّة. مذ ذاك، وَعَدْتُ ذاتي بأن أكتشف أكثر وأكثر، عندما أغدو ذات يوم صحافيّةً.

ثمّ هناك الحاجز البولونيّ. ليس من قبيل الانتقاد القول بأنّ يوحنّا بولس الثاني قد أحاط ذاته بمواطنيه. فمستشاروه وأمناء سرّه الخاصّون، حتّى الراهبات الخادمات الوضيعات، هم بولونيّون. ليس لأنّ أسماءهم صعبة اللفظ، بل أيضاً لانّ كتابتها غريبة فلا يمكن أن تتوصّل فَتُفْهِمَ عامل الهاتف الفاتيكانيّ القليل الصبر مع من تريد أن تتكلّم. فأمين سرّه الخاصّ، مثلاً، يدعى Dziwisz، الذي بالنسبة إلى الفرنسيّ، هو يشبه «عطسة». وهؤلاء الطيّبون هم أُناس يُعرفون بنفورهم وحذرهم، ويحمون الحبر الأعظم بحرصٍ شديد.

عندما كنت أحضر احتفالات الفاتيكان، من مقابلات وقدّاسات احتفاليّة ومنح البركات، كنت أراقب يوحنّا بولس الثاني وأنذهل بأن أرى نظره يقع بدون انقطاع على شخصين قريبين دوماً منه. كانا مواطنَيه المونسنيور Dziwisz ومعاونه الأب Mieczyslaw Mokrzycki. مع العلم أنّ البابا كان ينوجد مع أساقفة الكوريا الأعلين، وجلُّهم إيطاليّون. وكما شُرِحَ لي في ما بعد؛ فإنّه لا يركن في الحقيقة إلاّ لبولونيّين، ولبعض المثقّفين ممّن يحملون إليه أفكاراً مثيرة. إنّه يشترك بطريقة محببّة مع Juan Carlos، ملك إسبانيا الذي تابعته مدّة شهر في قصوره – رجل الدولة الأوّل الذي احتفل له بالعشرين من حبريّته – بأن ليس لهما لا حاشية ولا مدّاحون. إنّهم لا يحاطون إلاّ بأُناس يقدرونهم لجدارتهم، ويحبّونهم.

ولمّا كنتُ لا أحوّل نظري عن الحبر الأعظم في بعض الحفلات التي كانت تدوم ساعاتٍ، لاحظت علاماتٍ بالكاد تُرى، بأنّ البروتوكول ولا شكّ كان يزعجه نوعاً، ليس لأنّه، بحدّ ذاته، مملٌّ، بل لأنّه يحول بينه وبين الذين يفضّلهم. عندها فهمت، بأنّني، كي أقاربَ قداستَه، يجب أن ألعبَ الورقة البولونيّة الأشدّ تعقيداً...

أمّا الحاجز الأخير والأكثر ازعاجاً بالنسبة لي، فهو أنّ الفاتيكان هو عالم رجال. حتّى العذراء مريم تغدو مزعوجة من هذا المحيط الكهنوتيّ البحت. بالتأكيد، إنّ هذا لا يعني أنّ في الأمر عداوةً للمرأة. ولكنّ هؤلاء الرجال الصالحين قليلاً ما يخالطون عالم

النساء، اللّهم الراهبات المخصّصات للمهمّات الثانويّة (من خدمة، وطهي،وترتيب منزل، وخياطة، وهاتف) ويتّصفن بالوداعة والامّحاء، ويمشين مسرعات كالفارّات وبصمتٍ في مماشي الفاتيكان الطويلة. كلّهنّ طبعاً يرتدين الثوب الرهبانيّ، ورؤوسهنّ مغطّاة، ومعهنّ كيس كبير من الفرو الأسود، وينتعلن أحذية كأحذية الجندرمة. إنّ عدد الصحافيّين من النسوة الملتحقات بالكرسيّ الرسوليّ قليل جدّاً. لم يكن للكرادلة والأساقفة شيء ضدّي. إنّما ما كانوا يفهمون ماذا كنت أعمل هنا. كانوا يحسبونني، كعلمانيّة تقيّة، عضواً في شركة العذارى المكرّسات، أو من جمعيّة المسيح–الملك (اللّواتي لسن راهبات، ولكنّهنّ نذرن العفّة والفقر) أو راهبةً من راهبات درجة ثانية. وكانوا يرتبكون، عندما كنت أتوجّه إليهم؛ فالرّاهبة تخفض عينيها، لا تتكلّم مع الآخرين، وهم لا يحادثونها، إنّما يتبسمون لها عند الضرورة. علاوةً على ذلك، وحتى لا ألفت الانتباه، كنت أرتدي دوماً فستاناً أسود متقشّفاً جدّاً، وملصقاً غير شفّاف، وحذاءً مَسْحَ الأرضِ وغامقَ اللون. دوماً كنت مجمّلَة، لأنّني في الواقع كنت أودُّ ألاّ أُحسَب راهبةً من راهبات الفاتيكان. ومن الغرابة بمكان، هي أنّ امرأة بالنسبة لهؤلاء السادة توجد في المكان المناسب أوّلاً. إنّهم لَيتجاهلونها كما لو أنّها قطعة من جهاز البيت، أو أنّها من نوع غريب تحمل على الحشريّة الحادّة فتجدَ ذاتها داخلة في محادثات لا نهاية لها. على كلّ حال، إنّ موقف رجال الكنيسة منها غير منطقيّ. خلاصة القول: لا مكان هنا للأحاديث الهادئة ذات الوقع المحبّب، وما يسمّى بالانكليزيّة اتصالات سريعة. ألحقّ يُقال إنّ هؤلاء السادة لطفاء ومثقّفون جدّاً ومتوقّدو الذهن، بحيث أنّ أبسط حديث معهم لا يكون أبداً تافهاً ولا سطحيّاً.

في الحقيقة إنّ ما اعتُبر حاجزاً لا يُقهر بالنسبة إلى أشخاصٍ آخرين، لم يكن كذلك بالنسبة لي. ويعود الفضلُ في ذلك إلى ماضيَّ الذي هدهدته التراتيل في مؤسّسات دينية ذات نظام صارم. فبالإضافة إلى سنين عديدة من دراستي اللاتينيّة، تعلّمت أيضاً التحدّث مع الله وخدّامه ببساطة فتاة اعتادت على تلاوة السبحة وترتيل اللحن الغريغوريّ، وحتى على أخذ الماء المبارك والسجود في الوقت المناسب. كنت أعرف أيضاً كيف أتوجّه إلى الأمّ العامّة، وإلى رئيس عامّ أو كاهن معرّف. وكنت أعرف أنّه لا ينبغي التمسّك بيد الكاردينال عند تقبيل خاتمه، وأن أخاطبَه بلقب "صاحب النيافة"، لا "صاحب السيادة" كما نخاطب أحد الأساقفة.

في الفاتيكان لم أكن حمقاء ولا خجولة؛ وهذا الأمر كان ملاحظاً أو بارزاً. ويمكن أن يعود هذا إلى تصرّفي الوادع، الذي ما كان ليُخيفَ هؤلاء الكرادلة والأساقفة الذين ما إن يُلقوا البركة حتّى يختفوا بسرعة.

عندما عَرَضَتْ عليّ إدارة صحيفتي أن أُغَطّي حفلة في الفاتيكان، بما أنّني أتكلّم الايطاليّة، قبلتُ العرض بحماس؛ فأنا أنتظر هذه المناسبة منذ زمنٍ طويل. في الواقع، قبل أن أكون موظّفةً في صحيفة Paris Match، أمضيت اثنتي عشرةَ سنة في صحيفة يوميّةٍ كبيرةٍ أخرى تعجّ بمراسلين أتقياء كانوا يحلمون أن يقتربوا من البابا، وما كان يدور في حسابهم، بأيّة طريقة، أن يحلّ هذا الانعام الثمين على صحافيّة فتيّة، بالاضافة إلى كونها امرأة.

في صبيحة أحد أيّام شهر كانون الثاني من سنة ١٩٩٦، وكان الله معي، اتّصلتُ بـPaul Poupard الذي كان قد وضعه على طريقي، ومعه كنتُ أقمتُ علاقات تتّسم بالاحترام والتّواطؤ معاً. حدث ذلك بعد إصابة البابا، يوم عيد الميلاد سنة ١٩٩٥، بوعكة، أثناء إعطائه البركة التقليديّة "للمدينة وللعالم" بواسطة الاعلام المرئيّ العالميّ Mondio vision. كان الكاردينال Poupard مُقِلاً في حديثه على الهاتف (في الفاتيكان، يحذّرون من الهاتف بعد أن عرفوا، في أيّام البابا بيّوس الثاني عشر، أنّ الراهبات العاملات على المقاسم الهاتفيّة في الكرسيّ الرسوليّ، كنَّ يتنصّتن على المكالمات لصالح الكاردينال كانالي Canali، حاكم الفاتيكان). قال لي ببساطة وبصوتٍ مطمئن "دعيني أراك عندي في آخر النهار".

يسكنُ الكاردينال في حَيّ Trastevere، في القاطع الثاني من نهر التيبر في قصر San Calisto، أحد القصور الفاتيكانيّة المنتشرة في روما. وراء هذا القصر القديم الذي يطلّ على ساحة القدّيسة مريم de Trastevere، ثمّةَ بنايات ضخمة وحديثة تحيط بهذه الساحة. في الطابق الثالث المطلّ على قبّة مار بطرس يسكن بعض من رجال الدين الكبار. ما إن خرجتُ من المصعد حتّى رأيتني أمام ممشى طويل غير مسقوف، حيث، على الشمال وعلى اليمين، تصطفّ أبواب عالية مطليّة لمّاعة ومتشابهة. لا أحدَ لأستفسرَ منه، ولا حرس سويسريًا ذا مهابة في الأفق ليقودني في هذا المكان المهيب والصامت والديريّ. ولكي أنجح في امتحان المرور الاوّل، كان عليّ أن أجد منزل

الكاردينال Poupard. كنت على حافّة اليأس عندما رأيتُ فجأةً لوحة من النحاس مثبّتةً على يسار الباب السميك، كُتِبَ عليها "الكاردينال أتشيغاري". لا، ما كان هو الذي أفتّشُ عنه، حتّى وإنْ سبق وقرأت كتابه الذي ما زلت أحفظ عنوانه: "أسير كحمار". خطوتُ أيضاً بضعَ خطوات. أخيراً، وقع نظره على لوحة مشابهة كُتِبَ عليها: "الكاردينال Poupard". كنت أرتجف من قلّة الصبر، وأنا أضغط على الزرّ النحاسيّ.

عندما أتى مرشدي القديم ليفتحَ لي، كان جاره المونسينيور de Nicolo، يسقي على السطيْحَة نبتاته الخضراء. بعد أن هنّأته ليده الخضراء، قدّمني الكاردينال المقلّ بالمديح حالاً إليه .بحرارة، وليرفع كلّ التباس حول لقائنا (فالأحبار يشكّون بعضهم في بعضهم الآخر)، أوضحَ أنّي كنت إحدى "تلميذاته القديمات النابهات"، أتيتُ لأقومَ بزيارة له وأنّي أحمل إليه كتاباً. فلا غرابة في الأمر في هذا القسم من السنة. لقد بدا المونسينيور de Nicolo لطيفاً جدّاً. وفيما بعد، كنتُ في حاجة إلى ثقته القيّمة، لأنّه كان مديراً لبيت البابا. وفي الواقع إنه أحد منظّمي الحفلات البابويّة. فكيف لي ألا أؤمن بأنّ الله كان يقودني، أو أقلّه واحدٌ من ملائكته؟ والآن، وقد ساعدني الحظّ، أصبح لي موطِئ قدم في باب القلعة الفاتيكانيّة!

بعد أن طفت سريعاً في كابلّته الخاصّة الصغيرة، حيث كانت الراهبتان -Marie Béatrice وClaire-Marie، اللتان تهتمّان به، قادني الكاردينال Poupard، وقد انضمّت الأختان إلينا، إلى مكتبته الفسيحة العالية، حيث يصطفُّ بانتظام تامّ خمسةَ عشرَ ألفَ مؤلَّفٍ، وقال لي من دون مواربة وبصراحة كليّة تعوّدتها منه معي دائماً: "إنّه لا يمكنني البتّة أن أرفعَ السمّاعة وأطلب من أمينة سرّي الخاصّة الحصولَ لكِ على موعد مع البابا. هذا لم يحدثْ يوماً. بالمقابل، ما يمكنني هو أن أجعلكِ تتقرّبين من حاشية الأب الأقدس. عندها، عليكِ أن تفيدي من المناسبة السعيدة...". معنى ذلك أن يكون لي الحظّ بأن أتخطّى الحاجز الثالث، حاجز الطوق البولونيّ. باختصار، كان عليّ أن أحصل من هؤلاء المقرّبين من البابا على شهادة حسن سلوك، تخوّلني أن أحصل على جواز إلى الأماكن الخاصّة الأحكم إغلاقاً في العالم.

إنّها لَمُحاولةٌ خطِرة نوعاً ما، لأنّك إذا مُنِيتَ بالاخفاق ولم تحصل على رضى مساعدي البابا المباشرين سُدّ بوجهك أيّ منفذ، ومُنع عليك ولوجُه إلى الأبد. عندها لا

تتكلْ على Joaquin Navarro-Valls الذي يحقد عليكَ إلى الأبد، لأنّك مررتَ بوقاحة من فوق رأسه. "ما سأدبّره لكِ، زاد الكاردينال تلقائيّاً، هو أنْ أمكّنكِ من أن تحضري، بمناسبة أعياد بدء السنة، هذه الاحتفالات البابويّة كلّها، وأن تكوني في الصفّ الأوّل، وإنْ يكن بطريقةٍ خفيّة وجانبيّاً. يجب أن تكوني على علاقة حسنة مع البعض، من دون مضايقة البعض الآخر.

فهمتُ الرسالةَ بسرعة. وساعدني في ذلك ماضيَّ وخبرتي كصحافيّة سياسيّة. وقد يمكن أنّ حدسي الأنثويّ أعانني أيضاً. فالدّخولُ إلى الفاتيكان يدخل حقّاً في لعبة اقتفاء الأثر. من هو البوليس الأهمّ؟ من هو الذي عليّ أن أنحاز إليه؟ من هو القائد القهرمان الذي يأتمر الآخرون بأمره؟ من هو الحارس السويسريّ الألطف؟ وأخيراً من هو المقرّب من البابا الذي عليّ أن أكسَبَ ودّه؟ لا تنسَي أنّهم يراقبونك من دون مجاملة (لماذا هي في الصفّ الأوّل؟)، وعليكِ ألاّ تخطئي في البروتوكول وفي الحركات الليتورجيّة.

بعد خمسة أيّام من القدّاسات والاحتفالات والبركات وغيرها، كانت عيون رجال الكنيسة هؤلاء كلّهم ترقبني. هل ستفتُر همّتها شأن سائر الصحافيين؟ إنّ جَلَدي وصمتي قد خلّصاني. حتى أنّه لمّا اتّجه يوحنّا بولس الثاني إلى كنيسة صغيرة في الضاحية ليمنحَ بركته لوفدٍ من مرمّمي الطرق، كنتُ هناك. هل لَحَظني أخيراً؟ في اليوم السادس، وكان نهار أحد، اقترب منّي المونسينيور Dziwisz، وقال لي: "أظنّ أنكِ أتيتِ لتكتبي مقالاً عن البابا؟ ففي خمسة أيّام، قد تمكّنتِ بالتأكيد من ملاحظة كلّ ما كنتِ تبغين. بإمكانكِ الآن أن تذهبي بسلام. إنّكِ تعلمين ما فيه الكفاية لتكتبي مقالتك".

إنّه الفخّ! صرختُ بكلّ تهذيب، ولكن بثبات: "تنقصني أشياء كثيرة، لا بل الجوهريّ منها. ما أرغب فيه، هو أن أتبع الأب الأقدس عن قُرب في حياته اليوميّة والشخصيّة حقّاً". كنتُ قد علِمت، بواسطة دركيّ من الفاتيكان، أنّ البابا كان عليه في المساء نفسه أن يستقبلَ أربعين حاجّاً بولونيّاً في مقابلة خاصّة. عندئذٍ قلتُ للمونسينيور Dziwisz: "أليس بإمكاني أن أحضُرَ هذه المقابلة؟". توقّف قليلاً، مترجّحاً بين التعجّب كيفَ أنّني على علمٍ بهذه الدعوة، وبين التفكير الذي يعتلجُ في داخله من أنّي إذا كنتُ قد علِمتُ بذلك، فهذا يعني أنّه يجب أن أكون صحافيّةً يقظة؛ ثمّ أجابني، وهو يضمّ

يديه بتقوى: "ولكنْ، لن تفهمي شيئاً ممّا سيقولونه". أجبت، وقد خفضت عينيَّ: "لستُ في حاجة إلى من يترجم لي، إنّي أقرأ ذلك على وجوههم". عندها، أخذ يدَيَّ بعذوبة، ونظر إليّ طويلاً، مهمهماً: "عودي في الساعة السادسة من هذا المساء".

في الساعة المتّفق عليها، حضرتُ إلى الباب البرونزيّ في آخر صفّ العواميد، حيث أوقفني نفرٌ من الحرس السويسريّ وسألني عن اسمي ومن أريد أن أقابل. أجبت بكلّ طبعيّة ممكنة: "البابا". فقادني هذا إلى ثانٍ، تحقّق من أنّ اسمي كان مسجّلاً على سجلّه الأسود. ثمّ سلّمني إلى حاجب أصعدني في مصعدٍ صغير مبطّن كعلبة مجوهرات. وفي الطابق الثاني رافقني إلى قاعة من قاعات الاستقبال. انتظرتُ هناك بضع دقائق، ومن ثمّ وصل المدعوّون البولونيّون الطافحون بشراً ونشوةً. وبعدها، بدا الأب الأقدس في الباب الخلفيّ.

اكتشفتُ عندها حبراً أعظم مغايراً عن الذي كنتُ أشاهده على التلفزيون. كان يخرج مع مواطنيه تماماً من شخصه الرسميّ. كان يمازحهم ويضحكُ معهم. سمِعْتُه يغنّي برفقتهم أغاني بولونيّة. وضعني المونسينيور Dziwisz مع نظرة تواطؤ في آخر صفٍّ البولونيين الذين كان يقدّمهم إلى البابا، وأسرّ إليه: "إنّها تلميذة قديمة للأب Poupard في روما".

أمسَكني عندئذ البابا بيديه: "هل أنتِ مسرورة في روما؟" أجبتُ: "يا صاحب القداسة إنّ سروري لَيزدادُ لو أنّه كان باستطاعتي ان أتبع قداستكم عن قرب لأحضّرَ عنكم تحقيقاً كبيراً". ابتسم البابا؛ فأخذني المونسينيور Dziwisz ناحيةً، وقال لي: "ندعوكِ فيما بعد".

طوالَ اليوم التّالي، ما كنتُ أجسرُ أن أغادر غرفتي في الفندق... في الغد رنّ الهاتف، وكانت الساعة الحاديةَ عشْرةَ إلاّ ربعاً: "يستقبلكِ البابا ظهراً". أخذتني الدهشة لحظّي الغريب. إنّ المئات من زملائي خاب أملهم قبلي.

ها أنا إذاً مع مصوّري، Jean-Claude Deutsch، أمام أسقف روما الذي استقبلنا في مكتبه. انحنينا أمامه. قبّلت خاتمه الحبريّ. أشار المونسينيور Dziwisz إلى Jean-Claude أنْ في امكانه البدء بعمله. قال له الأب الأقدس بالفرنسيّة: "أليس أنّه توجد مشكلةُ ضوء

بالقرب من النافذة؟ أتريد أن أرجع إلى الوراء قليلاً؟" لقد انتبه أنّ ثيابه البيض لا تبرزُ تماماً بعكس الضوء. أثّر فيَّ هذا اللّطف وهذه البساطة شديدَ التأثير.

بعد حفلة التصوير، باركنا الأب الأقدس. فشكرناه. ثمّ ابتعدَ. في هذه البرهة تنبّه Jean-Claude Deutsch بأنْ ليس لديه صورة لقداسته يضعُها على مكتبه. طلب إليّ قائلاً: "أوقفيه". أجبته: "إنّ هذا غير ممكن. لقد باركنا وغادر". لقد بدا لي أنّه غير معقول أن أركض وراء رأس الكنيسة الكاثوليكيّة، الوجه الأشدّ إعجاباً والأكثر احتراماً في العالم، في ممشى مقصورته الخاصّة. أخذ المونسينيور Dziwisz على ذاته، وقد سمع حوارنا، أن يلحق بالبابا. تحدّث إليه. وها هو البابا يعود إلينا. لقد وافق على الجلوس من جديد ولبرهة طويلة خاضعاً بارتياح لا منتهٍ لجميع طلباتنا. إنّها البساطة الدائمة. هكذا قُدّمتُ إلى يوحنّا بولس الثاني، وربحتُ ثقته، وولجتُ قلعة الفاتيكان.

أما ما تبقّى فيُخبرُك هذا الكتاب عنه.

الفصل الأوّل

الطوق البولنديّ

سأل Luigi Accattoli، مراسلُ جريدة Corriere della Sera، الأبَ الأقدس قائلاً: "أيّها الأب الأقدس، هل تتابع غداً مباشرة على التلفزيون مباراة كرة القدم البولونيّة الايطاليّة؟

أجاب البابا "آمل ألاّ يفوتني هذا النقل المباشر وأن يربح مواطنيّ".

إنّ تبادل الرأي هذا حدث في ١٤ حزيران ١٩٨٢ في طائرة من طائرات الخطوط الأرجنتينيّة التي كانت تقلّ يوحنّا بولس الثاني وحاشيته من بونس أيرس إلى روما. لقد حضر البابا المباراة (وكان سروره كبيراً لتعادل بولندا وإيطاليا؛ وكانت المباراة واحدة من دورة كأس العالم) مع المونسينيور Dziwisz أمين سرّه الخاصّ، في مكتبه، المكتبة ذات السجف الباجيّة للمقصورات البابويّة "بولندا الصغيرة كما يسمّيها الأحبار الايطاليّون وعلى مضض".

في الواقع، ومنذ وصوله إلى الفاتيكان، كوّن Karol Wojtyla حواليه، الحلقة الأولى الحميمة المؤلّفة تقريباً من البولنديين، فكانت القطيعة التامّة مع تقليد البابوات الايطاليّين. لقد اختار أن يعيش في مقصورته الخاصة في الطابق الثالث من القصر الرسوليّ، يحيط به ستّةُ ملائكة حرّاس، كلّهم بولنديّون: المونسنيور الأمين Dziwisz الذي وبعد اثنتين وعشرين سنة لم ينجح أحد في الكرسيّ الرسوليّ أن يلفظ أو أن يكتب اسمه صحيحاً، وخمسُ راهبات من جمعيّة خادمات قلب يسوع الأقدس. إنّهنّ يرتدينَ الثوب الأبيض عندما يقمنَ بوظيفة الممرّضات إبّان أسفار البابا، وإلاّ فاللون الأسود مع طوق صغير أبيض وقلب ملتهب أحمر مطرّز على الصدر. يلبسن في أعناقهنّ أيضاً صليباً من الفضّة والابنوس، وفي أيديهن خاتماً من الفضّة أيضاً ومسبحة سوداء تتدلّى

صليباً من الفضّة والابنوس، وفي أيديهن خاتماً من الفضّة أيضاً ومسبحة سوداء تتدلّى على الشمال، وعلى اليمين زنّار أبيض معقود. إنّهنّ يرتدين على رأسهنّ طرحة سوداء، تعلوها قبّعة بيضاء، وينتعلنَ صندالاً أسود. إنّ رهبانيّة خادمات قلب يسوع الأقدس قد تأسّست في بولونيا سنة ١٨٩٤. إنهنّ يهتممن بالفتيات ذوات الحاجة واللواتي يمررن بصعوبات. يبلغ عددهن الستمئة راهبة في العالم، يتوزّعن في بولندا وإيطاليا وفرنسا وبوليفيا وليبيا والولايات المتحدة. عندما كان Karol Wojtyla رئيس أساقفة eivocarC، المدينة ذات المئة كنيسة، "روما الصغيرة" كما تُدعى في بولندا، كانت الراهبات عندئذ بقربه. لقد أصرّ أن يأتي بهنّ إلى روما. من هنا أنّ Soeur Tobiana الرئيسة وممرّضته، والأخت Germana، والأخت Fernanda، والأخت Matylda، والأخت Eufrosyna يداومنَ على خدمته في الفاتيكان. إنهنّ يهتممن بأمانة السرّ والتحوّج والغسيل والمطبخ والصيدلة.

لقد تمّ الاتفاق بينهنّ على حماية الأب الأقدس ما أمكن من العالم الخارجيّ. يقول الكاردينال Poupard "بالنسبة إليهنّ، الغريب الذي لا يعرفنَ هو شخصٌ مشتبه به وغير معروف". لقد اختبرتُ ذلك بذاتي، عندما كنتُ ذات صباح مدعوّة من المونسينيور Dziwisz كي أضع بين يدَي الحبر الأعظم بالذات، عند الساعة الثامنة، نسخة من يوميّاتي التي كرّستها له وبوفرة. لقد قدّرت كم أثَرْتُ عصبيّة الراهبات، حال رؤيتهنّ لي. كنّ ينظرنَ إليّ من فوق إلى تحت، وإنْ بخفر. من الواضح، أنّهنّ كنّ يتساءلنّ: "من هي هذه؟ وما جاءت تعمل؟". كنّ يسائلنَ بعضُهنّ بعضاً بطرف العين، مضطرباتٍ ومنشغلاتِ البال. لم يتوصّلْنَ أنْ يُحطنَ بهذه المرأة ذات الاثنتين والأربعين سنة – إمرأة صبيّة جدّاً بالنسبة إلى الفاتيكان – وإنْ تكنْ تحترمُ تماماً البروتوكول الفاتيكانيّ بلباسها. عادةً كنت، أرتدي في الفاتيكان طرحة وتنوّرة تنزل تحت الركبة وقميصاً أسود ذا أكمام طويلة ومزمّك أسود اللون حادقه. ولكن، حسب العادة أيضاً، كنت أتجمّل لأؤكّد بأنّي لستُ راهبة. هؤلاء الراهبات كنّ مرتبكاتٍ، لأنّ يوحنّا بولس الثاني كان يمازحني. (إنّه دوماً منفرج الأسارير معي عندما كان يستقبلني في مقصوراته الخاصّة). هل كنت علمانيّة مكرّسة؟ هل كنت راهبة في زيّ علمانيّ؟ أو بالعكس، لا علاقة لي بمؤسّسات الكنيسة الكاثوليكيّة؟.

تشكّل هؤلاء النسوة الخمس حولَ البابا معقِلاً بولونيّاً صغيراً، في منتصف الطريق بين حرس مقرّب وجماعة رهبانيّة. إنه لَمُغْتَبِطٌ يوحنّا بولس الثاني أن يتكلّمَ البولنديّة معهنّ، وألاّ يبقى وحيداً ولمدّة طويلة في هنيهاته الحميمة. على خلاف أسلافه الايطاليين، رفضَ يوحنّا بولس الثاني أن يعيش منفرداً، وأن يتناول طعامه كمتوحّد – يقرأ له أمين سرّه –، وألاّ يلتقي أحداً خارج إطار المقابلات الرسميّة.

إنّ هذا البابا الآتي من الشرق، أوّل حبر لا إيطاليّ، منذ الفنلنديّ أدريان السادس في سنة ١٥٢٢، كان يصرُّ في المساء أن يجِدَ ذاته في محيطه المألوف. إنّه في حاجة إلى أن يرتاح فيجدّد قواه بعد نهارات طويلة ومضنية، هذا المتعدّد اللغات الذي يتكلّم الايطاليّة وأيضاً الانكليزيّة والألمانيّة والفرنسيّة. إنّه يفكّر مبشارةً بالايطاليّة والفرنسيّة والألمانيّة. عندما يتملّك لغة، كما شرح لي، لايتملّكها صوتيّاً فقط، بل قواعدَ أيضاً وفي كلّ دقائقها. إنّما ليست له السهولة إيّاها عندما يتكلّم الانكليزيّة، فهو أحياناً يفتّش عن الكلمة الصحيحة (خاصّةً عندما يكون تعباً، فيتغلّب اللفظ السلافيّ). ويتمكّن البابا من الكتابة بهذه اللغات من دون أخطاء. أضف إليها اللاتينيّة. ويحدّد الكاردينال Deskurs، أحدُ أكبر أصدقائه البولنديّين، أنّه يتقن أيضاً كلّ اللغات السلافيّة من دون التكلّم بها تماماً، و له آذان قَدْرَ ما للبيتلز من آذان.

أسباب ثلاثة عميقة وراء خلق يوحنّا بولس الثاني لهذه الحلقة البولنديّة الصغيرة:

لا يريد أن يضيّع "بولنديّته" كما تقول الألسنة الزربة من الكوريا. فالبعض يقولونها بحنان، والبعض الآخر يتهكّم (بعضهم يقول بمكر إنّ المهمّة الأساسيّة للبابا المقبل هي أن يطهّر الفاتيكان من البولنديّين).

يشكو الأب الأقدس من فراغ عاطفيّ كبير، ساعده أصدقاؤه البولنديّون على ملئه: منذ رؤيته، وهو في التاسعة من عمره، غياب والدته Emilia وقد أودى بها مرض في الرئتين؛ وفقد أخيه وهو في الثانيةَ عشْرةَ من عمره، وهو الطبيب إدمون الذي مات بالحمّى القرمزيّة، وقد انتقلت إليه وهو يعالج مرضاه؛ وفقدِ أبيه، وهو في العشرين من عمره، الملازم أوّل Wojtyla وقد أُحيل إلى التقاعد، وكانَ المعيل الوحيد للعائلة، وقد وجده ذات مساء في سريره بلا حراك.

أخيراً إنّه نهج يمتاز به كيانه الشخصيّ، وهو أن يعيش نوعاً ما بعيداً عن الكوريا الرومانيّة وزمراتها. هؤلاء الكرادلة الايطاليّون حتّى العظم والمعسولو الكلام لا يتسامحون مع هذا السلافيّ القويّ البنية العريض المنكبين، ذي العيون الضاحكة والوجنات العالية والمختلف عنهم جسديّاً.

بفضل هذه الحلقة البولنديّة، إنّه مُحاطٌ بأُناسٍ يفهمونه إذا همس همساً. عبر السنين أصبحوا عائلة قلبه. فلو لم يُحطْ نفسه بالمقرّبين منه، لجازف الأب الأقدس بأن يعرف وحدة موحشة. في هذه الأماكن المثقلة بالتاريخ كان البابا بيّوس السادس، وبيّوس الثاني عشر، ويوحنّا الثاني والعشرون، وبولس السادس، ويوحنّا بولس الأوّل في أكثريّتهم محاطين جدّاً بالأخوة والأخوات وأبناء العم وأبناء الأخوة، وكان عددهم الكبير يشكّل غزواً، وكان البابوات يوزّعون الألقاب الشريفة على بعضهم.

لقد ألّف يوحنّا بولس الثاني عالماً عاطفيّاً منظّماً، هو الذي لم يكن له إلاّ ابنة عم تُدعى Natalia Mrzycxod، كانت تقطن فرنسا. طبعاً لم يرُق هذا لنظر أحبار الكوريا الرومانيين الكبار، الذين، علاوةً على أنّهم لا يفهمون البولنديّة، يقبلون على مضض أن يتحمّلوا، بينهم وبين الحبر الأعظم، هؤلاء الوسطاء الغريبين الذين يقضون وقتهم في القيام بقدّاسات خافتة فيما بينهم. «إنّ Karol Wojtyla الذي هو لنصف الوقت بابا، ولوقت كامل بولنديّ، غدا امبراطور الامبراطوريّة الرومانيّة البولنديّة". هذا ما يقوله الكرادلة بخبث ليدلّلوا عبر هذا القول بأنّ أصول Wojtyla هذا إنّما هي وضيعة وليست أرستوقراطيّة. إنّه حفيد خيّاط لأبيه، وحفيد دبّاغ لأمّه، بينما عدد كبير من أسلافه الشرفاء كانوا أمراء ...Colonna, Barberini, Aldobrandini, Chigi, Rospigliosi. إنّ رأس القبيلة الأرستوقراطيّة للكوريا في هذه الأيّام، هو الشريف والمتعارف عليه رئيس الأساقفة Andréa Cordero Lanza di Montezemolo عمّ الرئيس de Ferrari الحاليّ الذي، في نظره، ينقص يوحنّا بولس الثاني أجداد أنيقون، يدعمه في ذلك المركيز Sacchetti المفوّض من الدولة لدى الفاتيكان.

إنّ الجماعة الصغيرة التي تحيط بالبابا ليس لها شيء من الامبراطوريّة. فالانسان الأشدّ قرباً من البابا، المونسينيور Stanislaw Dziwisz هو أدقّ منه جسماً، جبينه وضّاح ونظره يشرقط حيويّة. إنّه يلازمه كظلّه، وهو حاضر معه في كلّ وجبات طعامه. إنّه

يسكن في الفاتيكان في جناح صغير من الطابق الرابع الذي يشتمل على غرفة نوم ومكتب للعمل، ويصل بدرج لولبيّ إلى البابا حال نهوضه من النوم. إنّه بالقرب منه عندما يذهب إلى الصلاة والتأمّل في كبالّته الخاصة. إنّها لعلاقة شبه أبويّة وبنويّة توطّدت مدّة أربع وثلاثين سنة بين Dziwisz وWojtyla. "لقد قاسَمْتَني الصعوبات والآلام والآمال. تمتّع اليوم بالفرح إلى جانبي". هذا ما صرّح به يوحنّا بولس الثاني في ٧ شباط ١٩٩٨ يوم سامه أسقف شرف على San leone, en Calabre. إنّها مهمّة شرف، لأنّ هذه الأبرشيّة رمزيّة. كان قد رسمه كاهناً في سنة ١٩٦٦. هذا الدكتور في اللاهوت الطقسيّ خرّيج جامعة de Jagellon (حيث درس Wojtyla ذاته) هو الأقرب منه، وأقدم مساعد له منذ Cracovie والأشدّ أمانة. لقد نصحوه به على أنّه شخص موهوب جدّاً، وكان يفتّش عن مساعد له شاب. فذوقهم المشترك حيال الرياضة والتزلّج بنوع خاصّ، خلق، حالاً بينهما، رباطاً قويّاً وتجانساً شديداً، لأنّ Dziwisz هو أيضاً متزلّج ممتاز. لقد ولد في محطّة صغيرة للتزلّج de Raba Wyzna (التي يُطْلَق عليها اسم La Chamonix البولنديّة) بالقرب من Zakopane في جبال Tatras في جنوب بولندا. على كلّ حال، كانا يمارسان رياضة التزلّج بانتظام في Zakopane. وكان كلاهما قد تابعا القيام بهذه الرياضة بعد أن ارتقى Wojtyla إلى السّدّة العليا. (يقول المونسينيوري، وهم يصفّرون، «إنّ Dziwisz يقوم بسباق التعرّج أيضاً في الفاتيكان وبحذاقة". وهذا دام حتّى كسر يوحنّا بولس الثاني رجله في حمّامه سنة ١٩٩٤. قبل ذلك بوقت، وقد هوى البابا عن مزلجته في les Abruzzes، وقع Stanislaw وهو يحاول أن يخفّف من سرعته، وكسر ذراعه.

إنّ ترقية أمين السرّ الخاص هذا إلى الأسقفيّة كانت مفاجأة حقيقيّة في الكرسيّ الرسوليّ. هذه كانت مبادرة غير عاديّة في تاريخ البابويّة الحديثة. فالمونسينيور Dziwisz يلبس من الآن وصاعداً الزنّار البنفسجيّ. هذه التسمية القيّمة هي مكافأة استحقّها Stanislaw Dziwisz بعد ربع قرن من وضع نفسه الدائم بتصرّف الأب الأقدس، وهي أيضاً الطريقة الأسلم لحماية أمين سرّه الممكن النيل منه مستقبلاً، ومنع الكوريا الرومانيّة من أنّ تكلّف هذا الأخير، بعد غياب يوحنّا بولس الثاني، بمهمّة مخيّبة للأمل ووضيعة في مكان منعزل من هذه الارض. إنّ عدداً لا يُستهان به من أمناء السرّ الخاصّين لأسلافه ومن ذوي الشأن انتهوا في المجهول الكلّيّ. حتّى نهاية عهد بيّوس الثاني عشر، كانت مهمّة هؤلاء الأشخاص تقتصر فعلاً على بريد البابا وعلى بعض شؤون إداريّة غير ذات

أهميّة. ولم يكن يرِدُ في الذهن بأنّهم يتناولون ولو وجبة طعام واحدة مع البابا، أو أن يسمح لذاته باطّلاعهم على سرّ من أسراره. على الأكثر كان البابا يشرّفهم، نهار أوّل السنة، بأن يشرب معهم قليلاً من الخمر، ومن ثمّ كان يقدّم لهم وبسخاء القنّينة المفتوحة.

كان لبيّوس الثاني عشر أمينة سرّ وقهرمانة، الراهبة البفاريّة العنيدة والقويّة الأخت الأسطوريّة Pasqualina Lehnert. عندما مات، كان عزاؤها الزهيد هو أنّها أخذت لها كناريَ سيّدها الشهيرين. وبعد بضع سنوات من المطهر، أيّام يوحنّا الثالث والعشرين، أذِنَ لها بولس السادس أن تفتح بيت الراحة Pastor Angelicus حيث عزلت نفسها. عزاؤها الوحيد هو أنّه كان في إمكانها أن تشاهد من غرفتها قبّة مار بطرس. والمونسينيور Loris Capovilla ابن الخمسة والثمانين سنة، أمين سرّ يوحنّا الثالث والعشرين ومنفّذ وصيّته، حمل أوراقه الخاصّة وكرّس ذاته منذئذٍ لكتابة مذكّراته، وقد سمّيَ مطران شرف de Loreto، ولكن من بولس السادس. لقد كان لهذا الأخير مساعدان مباشران: أحدهما الأب Bruno Bossi الذي اختفى بين ليلة وضحاها قبل وفاته بقليل، وبطريقة سرّيّة من دون كشف السبب. أمّا الآخر وهو المونسينيور Pasquale Macchi وهو يبلغ اليوم من العمر السابعة والسبعين، وكان يُعتبر إنساناً ذا نفوذ قويّ أيام حبريّة Montini، هذا البابا الذي كانت تجلّه النفوس التقيّة لأنّه كان يلبس المسح (وهذا ما كشف عنه Macchi)، فقد حظي بأن عيّنه البابا الحاليّ مطراناً منذ عشر سنوات. أمّا الأب Diego Lorenzi، وقد كان لوقت قصير جدّاً أمين سرّ ليوحنّا بولس الأوّل، هذا البابا السيّء الحظّ الذي لم يملك إلاّ ثلاثة وثلاثين يوماً، عاد سريعاً إلى رعيّته في قرية Venetie، ولا وجود لاسمه في الدليل البابويّ الضخم ذي الغلاف الأحمر والمذهّب والمزيَّن بشعار خليفة رئيس الرسل، والذي يشكّل في آنٍ كتاباً مقدّساً ودليل هاتف للاكليروس. هذا البابا المسكين لم يترك أحداً في مكانه إلاّ ابنة أخيه Lina Petri Tormenta الموثّقة القيّمة في غرفة صحافة الكرسيّ الرسوليّ، Via della Conciliazione.

حاليّاً، إنّ المونسينيور Dziwisz هو الشخص الأكثر نفوذاً في الفاتيكان. إنّه يلعب دوراً رفيعاً ويُظهِر قدرة لا يعبّر شيء عنها رسمياً في النصوص. في العالم الكاثوليكيّ، كلٌّ يعرف أنّه المستشار السرّيّ للبابا، الذي كلماته تتفوّق، والذي هو أقدر في الأفعال

من الكاردينال الأمين السرّ Angelo Sodano، ابن السبعين سنة، والوزير الأوّل ليوحنّا بولس الثاني؛ وأقدر من مدير مكتبه Leonardo Sandri، ابن السبع والخمسين سنة، مطران أرجنتينيّ حلّ محلّ المونسينيور Giovani Battista Re؛ وأيضاً من المونسينيور Jean-Louis Tauran، وزيره للأعمال الخارجيّة. إن هؤلاء الثلاثة إنّما هم خرّيجو الأكاديميّة البابويّة الشهيرة ENA في الكرسيّ الرسوليّ، وكانت غير مرّة أكاديميّة الأشراف الباباويّين. إنّهم مديرو الملفّات الجوهريّة والحسّاسة، إنّما عليهم أن يمرّوا بِقِمْعِ Stanislaw، الذي حفاظاً منه على صحّة البابا يعيّن مواعيد لقاءاتهم معه وفي أيّة ساعة. إنّه إلى جانب البابا قبل زياراتهم وبعدها. إذاً له هو الكلمة الأخيرة. إنّه الحلقة الأساسيّة في هذه الماكنة الفاتيكانيّة البولونيّة. ومن هنا، إنّه الحافظ المطلَقْ لكلّ أسرار Carol Wojtyla.

ومع هذا تبدو الكوريا أكثر تسامحاً مع هذا الشخص الآتي من عالم غريب بالنسبة إليها. لقد أخذوا جميعاً بهدوئه ولطافته. فبقامته المستديرة والصرامة التي تُلْمَسُ لدى مقابلته والملطّفة بنعومته نجح مباشرة أن يفرض احترامه، وأن يقدّر حقَّ قدره بفضل رقّته النفسانيّة أيضاً. فالأشخاص الدهاة فهموا سريعاً إلى أيّ حدّ يلعب هذا المطران دوراً عظيماً في حياة يوحنّا بولس الثاني وعمله.

أمّا وقد تآلف بمهارة مع النظام البابويّ والبيروقراطيّ والمحكم الاغلاق والذي يؤلّف البنية الرسميّة لحكومة الكنيسة، راح يدير أيضاً مفكرة الكتاب الارجوانيّ الثمينة لأسقف روما. تضطرّه المراقبة في أن يحول دون دخول المخابرات كلّها على خط البابا الخاص قبل أن تصل إلى هاتفه الموجود في غرفة محاذية لمكتبه. إنّه هو الذي يقرِّر مع الحبر الأعظم، وفق معايير تفوق مفهوم عامّة الناس، الدعوات إلى القدّاس الصباحيّ في الكابيلاّ الخاصّة، ما يوفّر للبابا المناسبة في أن يلتقي أشخاصاً بسطاء جدّاً أحياناً، من دون مراقبة مسؤولي أمانة سرّ الدولة الدقيقة، وأيضاً من دون مراقبة البيت الحبريّ المكلّف نظريّاً أن يتتبّع كلّ الطلبات...

إنّ المونسينيور Stanislaw الذي لا يصبو إلاّ إلى خدمة البابا، هو الشخص الوحيد الذي يتناول يوحنّا بولس الثاني معه العشاء، ومعه ينظر من حين إلى آخر إلى التلفيزيون. إنّه الانسان الذي قاسمه الأوقات الأقدس والأصعب في حياته. إنّ أسوأ ذكرياته هي

بالتأكيد ذكرى الأربعاء المشؤوم، الثالث عشر من أيّار ١٩٨١، في ساحة مار بطرس، إذْ كان يجلس بالضبط وراء Karol Wojtyla على المقعد الخلفيّ لسيّارة التويوتا البيضاء. ففي الساعة الخامسة والدقيقة الحادية والعشرين، وقد أُصيب البابا برصاصتين من أربع أطلقهما Ali Agca عليه، انهار تماماً بين يديه. ببرودة أعصاب وحضور ذهنيّ قاد سائق سيّارة الاسعاف عبر أسواق روما الضيّقة متحدّياً الاتجاهات الممنوعة ليَربَحَ الدقائق الثمينة التي ولا شكّ قد خلّصت البابا من الموت. وكانت صفّارة الانذار في السيّارة والغمّازة معطّلتين، وما كان بالامكان أبداً تجربتها قبل ذلك.

ولو أنّ البابا لا يذكر هذا وهو يعلمه، فيوحنّا بولس الثاني يفضّل أن يذكر يد عذراء فاطيما. فالبابا يشعر يوميّاً بهدوء بال وأنّه محميّ بفضل حضورها الساهر والهادئ معاً. لقد أُقيمَ رابط اتفاق غريب بينهما، لا يخلو من المَكر في أوقاته. يزاول المونسينيور Stanislaw الفكاهة أيضاً. لقد سمعته يشرع ليوحنّا بولس الثاني مظاهر بعض من زوّاره مقلّداً إيّاهم. وهكذا رأيت البابا، ولمرّات عدّة، يضحك من كلّ قلبه لملاحظات معاونه القيّم الوجيهة والمضحكة في آن. إنّ Dziwisz الذي يرافق يوحنّا بولس الثاني في كلّ من تنقّلاته، حتّى في "بابا موبيل" يرى حتماً كلّ شيء. ذاتَ يوم أربعاء، وقد شاهدني من بعيد بنظره الثاقب (الذي مرّسه منذ المحاولة المشؤومة) بين الحجّاج إبّان المقابلة العامّة في ساحة القديس بطرس، لم يتردّد بأن دعاني لأن أصعد وراء يوحنّا بولس الثاني في "السيّارة البابويّة" السيّارة العجيبة التي تصعد السلالم وتنزلها. لقد أراد أن يكون في إمكاني الإخبار عن نزهة البابا في ساحة القدّيس بطرس: اختبار فريد لصحافيّ جالس في مؤخّرة السيّارة الشهيرة المسجّلة تحت الرقم "SVC1" (Stato della citta del Vaticano 1). يا للأسف، إنّ أفراد الأمن الايطاليّين المقرّبين لم يسمحوا لي بالصعود لأنّي ما كنت أحمل الإشارة. لهذا لا يمكنني أبداً أن أصف الشعور الذي يحدثه التجوال في هذه السيّارة الرائعة مع أسقف روما.

في الصباح الباكر، عندما يختلي يوحنّا بولس الثاني بذاته غارقاً في التأمّل أمام المذبح وتحت زجاجيّة كبالّته الصغيرة المضيئة، يضع المونسينور Dziwisz على مركعه جيباً صغيراً من الجلد الأسود يحتوي على ٤٠ بطاقة تحمل أسماء الأشخاص الذين كتبوا إلى الأب الأقدس يسألونه أن يصلّي لأجلهم. تجدّد اللائحة في الأسبوع ويسهر

المونسنيور Dziwisz، كما في كلّ وقت ألاّ يعثر البابا، ويبقى دوماً على رهبة أن يسنده. إنّه يقف بصمت قربه، مثل ظلّه، مقاسماً إيّاه هذه الهنيهات الأولى من الصلاة حيث يستمدّ البابا القوّة لنهاره، قبل مساعدته له في لقاءاته الرسميّة وغير الرسميّة، وفي أعماله الصباحيّة. إنّه متيقّظ دوماً ليدفع إلى الحبر الأعظم بالخطاب الذي عليه أن يقرأ، موعزاً إليه عرضا بحركة سريعة أن يلقي التحيّة على أحد المؤمنين هنا، وأن يتوقّف لبرهة هناك، وأن يمنح بركة لشخص هنالك. إليك هذا الحدث المهمّ للغاية: غداة انتخابه، ذهب البابا الجديد ليعود صديقَه الكاردينال Deskur في مستشفى Gemelli، وقد نسي أن يبارك الممرّضين والممرّضات. فدعاه رئيس البروتوكول إلى مراعاة النظام. فيتذكّر يوحنّا بولس الثاني ذلك مبتسماً ويقول: "كان يعلّمني كيف أتصرّف كبابا".

يحرص المونسينيور Dziwisz ألاّ يدفع بنفسه أمام الكاميرات ولا بقرب الحبر الأعظم حيث يتدافع أحياناً أحبار ذوو شأن ومتزلّفون. في الفاتيكان هناك نجم واحد: إنّه البابا. سيّان عند سكريتيره الخاصّ ألاّ يكون في المكان الأوّل من المسرح، وقت هو يراقب، قدر المستطاع، نشاطات حياة يوحنّا بولس الثاني خارج الأطر المؤسّساتيّة. ليس لديه مفاتيح مار بطرس، إنّما لديه كل إجازات المرور. لا شيء ممكناً من دونه. إنّه لسهل له أن يتذرّع بأنّ الأب الأقدس تعب ليبعد لقاءً أو ليرجئ زيارة شخصيّة إلى أجل غير معيّن. في الواقع، إنّه يحزر إذا ما كانت تزعجه أو تتعبه.

تتمحور الجالية البولونيّة المهمّة حول المونسينيور Dziwisz في المدينة الخالدة. إنّها قبضة من الأقارب الذين لهم مراكز استراتيجيّة: فالأب Adam Boniecki هو مدير قديم للطبعة البولونيّة من الـOsservatore Romano المجلّة الرسميّة للفاتيكان (هذه الطّبعة البولونيّة قد استُحدثت بعد انتخاب Karol wojtyla، والتي خلافاً للطبعة الايطاليّة لا تصدر إلّا مرّة في الأسبوع. إنّها مربحة لأنّها تُباع بأعداد محترمة في بولونيا)؛ والأب Mieczyslaw Mokrzycki أمين سرّ معاون خاصّ للبابا؛ والمونسينيور Henryk Nowack، المسؤول عن القسم البولونيّ في أمانة سرّ الدولة؛ والمونسينيور Pawel Ptasznik وغيره من المواطنين الذين يعملون في مراكز غير محدّدة، ولكنّهم يتعلّقون مباشرة بالمونسينيور Stanislaw، متجاهلين البيروقراطيّات والأقنية الرسميّة البطيئة جداً.

إنّهم يعملون في حلقة مغلقة، تحفظهم وتساعدهم لغتهم المشتركة. وهذه أيضاً حال الراهبات البولونيّات الخمس المعتزلات في الشقق الخاصة. وإذا كنتَ من المحظوظين، تلتقي بهنّ عند منعطف L'Annona، المخزن الفاتيكانيّ المعفى من الرسوم حيث تجد الزبدة الدانمركيّة، والجبنة البولونيّة، والكحول الفرنسيّة، مع جناح للخضار الفاخرة الذي يقرب من Monoprix Gourmet وFauchon، حيث يتجوّلن لشراء الموادّ الأساسيّة للبيت البابويّ. في الواقع، إنّها المناسبة الوحيدة لتغادر الراهبات الطابق الثالث. لقد هرَبنَ مرّة بصورة استثنائيّة في آب ٢٠٠٠ إبّان سهرة الـJMJ ليشاهدنَ في ساحة القدّيس بطرس الملايين من شباب العالم أجمع يهتفون لسيّدهنّ؛ لقد تخفّيْنَ حتّى لا يصطادهنّ المصوّرون. فلا الجمهور ولا الصحافيّون يعرفون وجوههنّ، وهذا سرّ من الأسرار في إيطاليا. وكم كنت محظوظة ذات يوم، وكنت قد تهت في متاهات ممرّات أجنحة الأب الأقدس (كان عليّ أن ألتقي الحبر الأعظم على السطح مع المونسينيور Stanislaw لأخذ عدد من الصور) فلَقَيْتُني وجهاً لوجه مع الأخت Germana. في الحقيقة تضايقتُ كثيراً من أن تتخيّل، وبدون حقّ، أنّي دلفتُ إلى هنا بطريقة مشبوهة. لقد فُسِّرَت مواجهتنا تفسيراً سيّئاً. أمّا وقد اضطّربتُ، فامتنعتِ الأخت أن تسمع شروحاتي وأن تنظر إلى الشارة التي على صدري. (بطاقة من البلاستيك تزيّنها الشارات البابويّة مع اسمي) لقد دعت أحد أفراد الحرس السويسريّ، وطلبت إليه أن يقودني إلى البوّابة البرونزيّة. إنّما كان لي الوقت الكافي لأتفرّس فيها. وهكذا توصّلت، وبغبطةٍ، أن أقتربَ من خادمة من الخادمات السرّيات للبابا، وأن أُشبِعَ فضول عدد لا بأس به من زملائي الايطاليّين المتشوّقين للتفاصيل...

الأخت Tobiana ممرّضة–طبيب، تسهر على صحّة الأب الأقدس وعلى تزويد الصيدليّة بالأدوية، وهي منذ زمن ترافق البابا في أسفاره.

الأخت Fernanda الأم الوكيلة، تدير وتدبّر شؤون البيت وتهتمّ بحسن سيره.

الأخت Germana تهتمّ بوجبات الطعام. فالمطبخ هو غرفة بسيطة جدّاً ريفيّة، مؤلّف من طاولة كبيرة من الخشب الأبيض مغطّاة بشرشف مشمّع زهريّ، ومن آلات عصريّة: خلاّطة وآلة لقهوة الـExpresso. على الحائط ذي اللون الباج والباهت، هناك صورة مؤطّرة للبابا يمشي في حديقة الفاتيكان. فالأخت الطاهية ترتدي مئزراً وطرحة تشدّها تحت عنقها وَقبّة صغيرة؛ وكلُّ هذا هو من اللون الأبيض.

الأخت Eufrosyna من أصل بولنديّ، ويهوديّة مرتدّة علىغرار الكاردينال Jean-Marie Lustiger، تتكلّم لغات عدّة، كالحبر الأعظم: البولنديّة والانكليزيّة والألمانيّة والايطاليّة والفرنسيّة. إنّها تهتمّ بمراسلاته الخاصّة، تستعين في ذلك بآلة كاتبة قديمة العهد، وتهيّيء الرسائل على ورقة سميكة من الرقّ مضروبة بطابع رسوليّ وبشعار البابا يوحنّا بولس الثاني، الذي فيما بعد يستخدم قلمه الرفيع ويوقّع بالحروف الأولى أو ليضع مباشرة ختمه باللاتينيّة Joannes Paulus II.

يعود إلى الأخت Matylda مسؤوليّة الثياب. قد يحمل ذلك على الضحك، ولكنّ الأمر لا يتعلّق بمهمّة مريحة. للبابا عشرون غنبازاً من عند Annibale Gamarelli خيّاط البابوات والكرادلة والأساقفة الذي يقع مخزنه على طريق Santa Chiara بالقرب من Pantheon. فمنذ سنة ١٧٩٨ وعائلة Gammarelli، أبّاً عن جدّ، يُلبسون البابوات حسب القياس، مستخدمين أقمشة نفيسة أو غيرها. عندهم على فيشة كلّ القياسات منذ قرنين (من عندهم يشتري Edouard Balladure كلساته الحمر ذات الخيط D'Ecosse). وإفراطاً في الدقّة، إنّ أزرار غنابيز البابا البيضاء إنّما هي موشّاة بخيط أبيض يشكّل مصلّبات مطابقة تماماً للزيّ. إنّ لهذه الغنابيز شريطِ حاشية أبيض على أبيض غير مَرئيّ تقريباً، وأكمامها هي أقصر وأضيق ممّا كانت قديماً، تحتها قميص بيضاء يُقفلها طوق رومانيّ ذو أردان مقلوبة– يعشق البابا أزرار الأكمام. يقدّمها له أحياناً كثيرة أفراد من خاصّته هم على بيّنة من هذا الأمر. يجب أن تكون الغنابيز والقمصان مكويّة بمنتهى الأناقة، فتسترسل بأناقة.

جيوب البابا هي دوماً فارغة. في الواقع، هو لا يحمِلُ أيّة هويّة. إنّه الانسان الأكثر شهرةً في العالم. لا يحمل معه دراهم أبداً. على مثال ملكة انكلترا، إذا كان عليه أن يدفع شيئاً، فالحاشية تتكفّل بذلك. البابا لا يقبض أجراً، بعكس الكرادلة الذين يقبض كلّ واحد منهم ٥٣٠٠٠٠٠ لير شهريّاً، ما يعادل ١٦٠٠٠ فرنك تقريباً. إنّه مُعفى من كلّ شيء كما رئيس جمهوريّة فرنسا. إنّما مرّة في السنة، بمناسبة يوم فلس مار بطرس وبولس الواقع عيدهما في ٢٩ حزيران، بإمكان المؤمنين أن يقدّموا العطايا للأب الأقدس. هذا الحساب الشخصيّ يستخدمه البابا لمدّ يد المساعدة إلى أعمال المحبّة حسبما يشاء. على الأخت Matylda أن تعمل، بمعنى أن يكون في تصرّف البابا

قلنسوات عديدة لأنّ الهواء يأخذ بعضها بعيداً. عليها يقع أيضاً الاعتناء بالزنانير البيضاء السميكة، وبالمعاطف الطويلة البيضاء المائلة إلى الصُفْرَة، وبمجموعة الأردية الحمراء الأنيقة المنمّقة بخيط أحمر ذهبيّ. إنّها أردية معَدّة لمناسبات احتفاليّة.

حسب كتاب للطقسيّات يعود إلى القرن الثاني عشر، فإنّ الثياب البيضاء الداخليّة التي على البابا أن يرتديها إنّما ترمز إلى البراءة والمحبّة، والثياب الحمراء الخارجيّة تذكّر بدم الشهداء والسّلطة والرّحمة. ليس وارداً حتماً أن تتلطّخ ثياب البابا البيضاء، بالرّغم من نشاطاته اليوميّة المتعدّدة. من ناحية أخرى، أسرّ أحد أطبّائه "في غداءات العمل لا يتناول أبداً السلطة ولا السباغيتي ولا ما شابه حتّى لا يُعرّض ثيابه لنقطة مشؤومة من الخلّ أو من المرق. في الأوقات الحميمة، لا يتردّد في أن يعقد فوطة حول عنقه". فالأحذية الموكاسان الحمراء التي يشدّها حذّاء من Turin (قبلاً كان قياسها ٤٣، إنّما هي الآن ٤٤ فأرجل البابا غير مستقرّة) يجب أن تكون حتماً لمّاعة تماماً. للبابا أيضاً حذّاء في Cracovie يرسل اليه أحذية قويّة. أخيراً، إنّ البطارشيل والبدلات المطرّزة بالخيط المذهّب، إنّما هي موضوع اهتمامات الراهبات الدقيقة، وتشكّل عملاً صعباً لأنّ الخيط المذهّب يتأكسد ويَنْسَلُ بسهولة.

يلبس يوحنّا بولس الثاني دوماً في البنصر الأيمن الخاتم الحبريّ، وصليب صدره الذهبيّ المهيب هو مثبّت في غمبازه. إنّه يملك عدّة خواتم حبريّة، لأنّ هذه تكوّن الهدايا النادرة الشخصيّة حقاً مع أزرار القمصان والساعات الممكن تقدمتها له. إنّما، لا يعير البابا أيّة أهمية لقيمة الهدايا التي يقبلها. قمت ذات يوم بزيارته في روما وقدّمت له ساعة صغيرة مسلّية من المعدن تحمل رمز الصحيفة وآلة تصوير بمثابة عقرب للثواني. كم كانت دهشتي كبيرة، عندما رأيت الأب الأقدس يربطها فوراً في معصمه إلى جانب Rolex ثقيلة ذهبيّة من طراز President Oyster Perpetual ذات سوار مخطّط من المعدن نفسه سبق وقدّمتها له الجماعة البولونيّة في باريس. هذا ما أزعج بوضوح بعض أعضاء حاشيته. ولكنّ هذا لم يغضب المونسينيور Dziwisz الذي وجد ساعتي مضحكة، فقدّمت له ساعة مثلها فيما بعد.

إحدى الراهبات، وغالباً الأخت Matylda هي التي تسوّي له يديه بطريقة عاديّة. ومرة في الشهر يأتي المزيّن أنطونيو، الذي يملك صالوناً في Borgo Pio ليقصّ له شعره.

يوم الأحد، تكبر، الجماعة البولونيّة القريبة من الأب الأقدس. اليوم أكثر من الزمن الذي مضى يحبّ البابا، ابن الثمانين سنة، أن تحيطه، يومَ الرّب، وجوه مقرّبة إليه. في طليعتهم يأتي الكاردينال Andrzej Maria Deskur ابن السادسة والسبعين والصديق الحميم منذ الاكليريكيّة، المتحدّر من عائلة بولونيّة أرستقراطيّة، والذي قد تربّى على أيدي مربّيات إنكليزيّات وفرنسيّات في قصر العائلة على مقربة من Kielce، والذي صادرته الشيوعيّة إلى وقت. له شقيقان في بولونيا، يربّي أحدهما أحصنة صغيرة مؤصّلة. إنّه يتكلّم على السواء الفرنسيّة والانكليزيّة من دون إشكال. إنّه لاهوتيّ ذو مستوى، وفي الوقت نفسه يعيش حياة عالميّة وفي رخاء. إنّه يتقن لعبة البريدج ويمتاز بالحيويّة. لقد كان لوقت طويل رئيس اللجنة الأسقفيّة للوسائل الاجتماعيّة، وحتّى اليوم لا يزال رئيسها الفخريّ. إنّه أبرز أعضاء الكوريا الرومانيّة إحاطةً بالمعرفة بها. فالكاردينال Deskur الأشدّ قرباً من البابا من أيّ صاحب رتبة كنسيّة آخر، يشكو من قلّة حظّه بأنّه ظلّ مُعاقاً على أثر نوبة أصابته أثناء مجمع الكرادلة سنة ١٩٧٨ وكان ابن خمسين سنة. وإنْ يكن ينتقل على كرسيّ صغير، فرأسه يعمل جيّداً جدّاً. هذا العالِم ذو النفوذ والظريف اللاّذع كان وراء حملة نَشِطَةٍ لانتخاب يوحنّا بولس الثاني، الذي قبل أن يشغل كرسيّ القدّيس بطرس كان يسكن تقريباً دوماً عنده إبّان توقّفه في روما. فبعد بضع ساعات لانتخابه الاحتفاليّ، كرّس البابا المنتخب أولى زياراته لِـDeskur في مستشفى Gemelli. من دون أي استثناء يأتي الكاردينال Deskur، كلّ أحد عند الساعة الواحدة، ليلتقي البابا إلى طعام الغداء. يحتفلان معاً بعيد ميلاد كلّ منهما، وفي الرابع من تشرين الثاني يحتفلان معاً بعيد القدّيس شارل، عيد الحبر الأعظم.

أسرّ لي قائلاً:"أشحذ ذهني طوال الأسبوع لأقع له على نكات جديدة أخبره إيّاها"

– عن أيّ شيء يا صاحب النيافة؟

– عن مار بطرس. عن الكاردينال Martini، عن الكاردينال Ratzinger، عن الايطاليّين في الكوريا الرومانيّة. المواضيع لا تنقص.

– تريد أن تلمح بأنّ الايطاليين يضايقونه؟

– لا، ليس هذا بالتمام. إنّه لا يفقه أبداً ما يحاولون أن يشرحوه له. إنّه يجدهم معقّدين وغامضين. ولمّا كان لا ميلَ له للمجادلة البتّة، ينزع غالباً إلى قطع المناقشات معهم ببرهان قصير وهادف تماماً.

يتصرّف الكاردينال Deskur مع البابا بدرجة من الحريّة تُدهش دوماً المدعوّين الآخرين.

تقدّم في هذه الوجبات الدافئة (التي تبدأ دوماً بالصلاة) أطباق بولونيّة: شوربة شعير حامضها قليل، مصارين à la Wadowice أي بالحبق والتوم البرّي، ضلع خنزير برّي مع الملفوف، فطاير بالسبانخ، أجبان حادّة. هذه الأطباق هي غالباً مناسبة لتجمع يوم الأحد خارج أي بروتوكول، شخصيّات بولنديّة من الكرسيّ الرسوليّ، الكوريا "الموازية" حيث يسكن بعضهم في القصور الفاتيكانيّة، من بينهم صديق الفتوّة الأب الكاتب Mieczyslaw Malinski وأساقفة مارّين بالفاتيكان، أصدقاء في المدرسة البولونديّة de l'Aventin وطبعاً Jerzy Kluger الصديق الأقدم لِـKarol Wojtyla في مدرسة Marcinwadowita. عندما يكون في روما. هذا المهندس اليهوديّ البولنديّ الذي يسكن بين لوندره وإيطاليا والذي غدا رجل أعمال مهمًّا، هو الوحيد الذي معه يستعيد Wojtyla ذكريات طفولتهم السحيقة في الزمن في مدينة Wadowice، المدينة الصغيرة في الجنوب البولنديّ حيث أبصر النور في ١٨ أيّار ١٩٢٠. فرّقتهما الحرب، ولكن في سنة ١٩٧٨ وجد Jerzy رفيق الدراسة اللاّمع وقد غدا بابا.

هكذا يجتمعون فيما بينهم Slaves سلافيّين، حول وجبة هادئة يغلب عليها التفكُّه والغناء أحياناً. بعكس الرواية الشائعة بأنّ البابا لا يشرب إلّا الفودكا البولونيّة، هو يأخذ كأسه المألوفة من النبيذ الأبيض المستخرج من الكروم الحبريّة مقطوعاً بالماء. بالمقابل يكرّمه مدعوّوه، إذ يعتدّون أمامه بأنّ الفودكا البولنديّة إنّما هي أقلّ ضرراً من الروسيّة. يرتاح يوحنّا بولس الثاني معهم، الأمرُ الذي لا نلحظه عنده في وجباته الرسميّة؛ إنّه لَمغتبط بأن يعيد إنشاء هذا العالم الحميم والدافئ الذي طالما نقصه.

وممّا لا شكّ فيه، ينجح يوحنّا بولس الثاني بأن يحافظ على توازنه وأن يتخطّى المحن بفضل هذا الجوّ العائليّ وبفضل إيمانه الكبير.

ذات يوم أحد، بينما كان يستقبل في إحدى قاعات المقابلة الوسيعة حجّاجاً بولنديين كانوا يتهافتون بشغف ليلمسوه، قال لهم وهو يضحك، بهذه الدالّة التي كان يبرهن عنها دوماً مع مواطنيه والتي أزعجت جدّاً موظّفي الفاتيكان الايطاليّين: "كلّنا أبناء عمّ. يكفي أن تقولوا أنّ لكم قريباً في روما حتى يسهّل عليكم الحصول على تأشيرة". إنّها مجرّد دعابة، ولكنّها تشرح تماماً التعلّق الأحشائيّ الذي له بشعبه. بين زوّاره البولنديين، يستقبل الأب الأقدس، بانتباه خاصّ، رجال الدين الذين كانوا اكليريكيّين في Cracovie، عندما كان رئيس أساقفة فيها. كان قد اعتاد أن يرى هؤلاء الشبان كلاًّ بمفرده ويصغي إلى مشاكلهم. لقد مرّ عليه منهم ما يقرب الألف أو يزيد. يعلّق أحدهم، وهو الأب Pawel Sukiennik قائلاً: "هذا ما أوجد بين Karol Wojtyla وبيننا علاقات عميقة دامت ثلاثين سنة بعدئذ". فالأب Sukiennik هو اليوم خوري رعيّة Niegowic التي شغل فيها يوحنّا بولس الثاني نائب خوري بين ١٩٤٨ و ١٩٤٩.

أخيراً، إنّ خليفة أمير الرسل الذي كان منذ بدايات حبريّته يتنازعه الالتزام الراعويّ والتصوّف وميل لعلم اللاهوت، وضع وجوده في روما تحت حماية عذراء Gzestochowa البولنديّة. وكبولنديّ كان يكرّمها قبل كلّ تشخيص آخر لمريم. لقد علّق نسخة عن أيقونتها في كبّالة أجنحته الخاصة. فعذراء Gzestochowa السوداء الحاملة الطفل يسوع، وقد دُعيت هكذا بسبب لون وجهها الداكن، هي شفيعة بولندا. فمؤمنو، بولندا ينسبون إليها عطايا عجائبيّة. إنّهم لعلى قناعة بأنّه في ساعات تاريخهم العسيرة أنعشت الايمان عندهم وخلّصتهم من التهديد الروسيّ. وأوكل Wojtyla إليها أيضاً حياته وخدمته منذ سيامته الكهنوتيّة في سنة ١٩٤٦. ولقد جدّد هذه البادرة في سنة ١٩٩٩، وهو ساجد عند أسفل معبد Gzestochowa على قمّة Jasna Gora في بولندا. وأرسل إلى هذا المعبد الزنّار العريض الأبيض الملطّخ بالدم، والذي كان يرتديه يوم محاولة قتله في ١٣ أيّار ١٩٨١. فلقد أعلن، بعد ذلك ببضعة أسابيع، للمؤمنين الذين قصدوا ساحة مار بطرس: "لقد أزاحت العذراء بيدها الرصاصات القاتلة".عندما يذهب إلى بولندا، يلتقي الأب الأقدس فيها رفيق الدراسة القديم في الاكليريكيّة الكاردينال Franciszek Macharski، رئيس أساقفة Cracovie، الذي هو أيضاً واحد من حلقة المقرّبين إليه والذي يُسْكِنُه دوماً في كرسيّ المطرانيّة (بيته من ١٩٦٤ إلى ١٩٧٨). وعندما يأتي الكاردينال إلى روما، يتناول الطعام أقلّه مرّة مع يوحنّا بولس الثاني.

لقد استقبلني الكاردينال Macharski في المطرانيّة في Cracovie، الايطاليّة بزخرفتها وجوّها. يغطي أرضها بلاط أنيق من الرخام الأبيض والأسود. إنّها تتألّف من أجنحة فخمة ذات الطراز الفلورنتيني، تزيّنها اللوحات الدينيّة القديمة حيث رواق لرسوم البابوات منذ النهضة. لقد أسرّ إليّ الكاردينال قائلاً: " منذ شبابه عرف يوحنّا بولس الثاني ما هو الجوهريّ في حياته. في الحقيقة، ما كان يفكّر بأنّه سيصبح بابا. ولكنّه هو الذي قال في ساحة مار بطرس يوم انتخابه "لا تخافوا". وقد غدا متصوّفاً عظيماً، راح يُكثر من الصلاة. كان يسيطر على ذاته جدّاً، وما كان يحبّ أن يكون جازماً. كان يحبّ أن يتحمّل الناسُ مسؤوليّاتهم. ما يسترعي الانتباه، هو أنّه يستمع دوماً إلى محدّثيه حتّى النهاية، اليوم كما في الأمس. بالرّغم من تقواه العميقة، كان رجل عمل: كاهناً وأسقفاً وكاردينالاً؛ كان يعرف أن يحرّك المؤمنين، ولا سيّما الشباب منهم. فبولندا هي حاضرة دوماً في صلاته".

إذاً ما لا يقبل الجدل هو أنّ حبّ بولندا يحتلّ مكاناً أساسيّاً في العمق من قلب صاحب القداسة. يقول Deskur إنّ في إمكانه أن يترك الفاتيكان لساعة كي يذهب فيساعد البولنديين، الذين يعاملونه بالمثل. فأيّ مكان من أرض الوطن تطأه رجلاه ينصبون له فيه تمثالاً من البرونز. وما يجدر ذكره، هو أنّ في هذه التماثيل يميل غمباز البابا طوعاً نحو اليمين، كما لو أن ريحاً تهبّ من الغرب نحو الشرق.

ويشرح الكاردينال Poupard بأنّ ما يميّز طبيعة البابا بولونيّاً هو ميله العفويّ للصمت. لقد كان ضحيّة الحكم التوليتاريّ في الشرق. لهذا هو حذر، ويمارس الفطنة دوماً. "وقال الكاردينال ما رأيته قطّ يسجّل شيئاً، بينما كان دوماً يسألني عن أشخاص متنوّعين وبدقّة كبيرة. إنّه لا يكتب شيئاً واثقاً فقط بذاكرته الخارقة. ولمّا كانت له العادة بأن يحيق بالمشاكل، فهو لا يسمح بأن يحيّده أحد عمّا يريد أن يعرف. على الأكثر، يطلب من الشخص الذي يستقبله أن يسلّمه بطاقة فنّية حيث لا يظهر التوقيع أبداً". إنّها ردّة فعل بديهيّة حذرة من بولنديّي كنيسة الصمت، هذه الكنيسة التي كانت، طوالَ سني الحكم التوليتاريّة، المكانَ الوحيد للتعبير عن الحريّة البولنديّة. فالكنائس كانت الأماكن الوحيدة حيث لا يدخل البوليس السياسيّ.

بعد الاجتياح النازيّ، وبعد أن أمضى Karol Wajtyla حياته الاكليريكيّة في الخفاء (في بلد شيوعيّ) رُسِمَ كاهناً بالسرّ في الأوّل من تشرين الثاني ١٩٤٦ في Cracovie في كنيسة الكاردينال Adam Stefan Sapieha الخاصّة. بعد أربع وخمسين سنة لا يمكن للانسان أن يتملّص من ماضيه. إنّ حذر الأب الأقدس لهو معلّل بسعة، لأنّه في آخر هذا الحكم حيث تسري شائعات عديدة، يمكن أن يكون هناك آذان خبيثة تسترقُ السمع في القصور الحبريّة الواسعة، والاختصاصيّون الالكترونيّون في الفاتيكان هم في تفتيش دائم عن آلات تنصّت.لقد وجدوا بعضاً منها. إنّ هذا الشكل من التجسّس يخيف إبّان المجمع المقبل (من دون أن نتحدّث عن الخلويّ). في ما يخصّ شغور الكرسيّ الرسوليّ تلحظ القوانين الرسوليّة بأن يقوم رجلان تقنيّان موثوق بهما إبّان المجمع، بالتّأكد من أنْ لا تدخل أيّة وسيلة تسجيل أو نقل إلى كنيسة Sixtine حيث سيجتمع الكرادلة، ولا إلى غرف Domus Santae Marthae الواقعة ضمن أسوار الفاتيكان حيث سيسكنون، والتي تسهر راهبات المحبّة على حسن إدارتها.

إنّ حبّه لمسقط رأسه لَقويّ جدّاً، بمعنى أنّ يوحنّا بولس الثاني قد عاد إليها سبع مرّات في اثنتين وعشرين سنة من ولايته. وهو دوماً يُستقبل فيها بالحماس عينه. واليوم أيضاً، وبعد عشر سنوات من سقوط الحكم الشيوعيّ، تبثّ القناة الأولى للتلفزيون البولنديّ والاذاعة الوطنيّة، مباشرةً أيّام الأحاد وعند الظهر، البركة البابويّة التي يعطيها البابا من نافذة أجنحته الخاصّة في الفاتيكان. وفي السنة الماضيّة سُمّي مطار Cracovie باسم "مطار يوحنّا بولس الثاني". فالرئيسان ديغول وكندي لم يحظيا بهذا الشرف إلّا بعد موتهما.

في سنة ١٩٨٢، وقد قام يوحنّا بولس الثاني في Toscane، في Livourne بزيارة معمل Solvay الشركة التي استخدمته كمكسّر حصى وقت الحرب في مقالع Cracovie، قدّم في كلمته شرحاً لهذا الحبّ، فقال:"بولندا هي وطني، وإنْ يكن منذ أصبحت بابا غدا العالم أيضاً وطني. ومع هذا أنا مَدين لبولندا بهذا: هو أنّها وطن تعذّب كثيراً، وأهّلتني أن أفهم كلّ الذين يتعذّبون أكان من نقص في الخيور أم من نقص في الحريّة. إنّ تضامني مع كلّ الشعوب التي تتعذّب هو إذاً طبيعيّ".



الفصل الثّاني

في الخامسة والنّصف صباحاً:
تضيء نافذة في ساحة القدّيس بطرس

العتمة شديدة جدًا، وبالكاد نرى واجهة بازيليك المدينة الخالدة التي لا تزال نائمة وGiovanni من وراء مقود آليّة الغسيل المجهّزة بمحرّك، والتي أعارتها بلديّة روما للفاتيكان، يغسل بمياه غزيرة ميدان ساحة القدّيس بطرس. إنّه يوقف نافورة مائه كي لا يلوّثني. إنّها الساعة الخامسة والنصف. إنّي وإيّاه الكائنان البشريّان الوحيدان الحاضران في هذه الساعة الصباحيّة، في هذه الساحة الشهيرة. يطلُّ Giovanni من نافذة آليّته، ويدلّني إلى نافذة مضيئة في الطابق الثالث من القصر البابويّ. "إنّ البابا يعمل الآن". أتأمّل، متأثّرةً مِثْلَه، النورَ الخفيف الذي يلمع فوق. إنّها الحقيقة. إذاً، فيوحنّا بولس الثاني، بالرّغم من عمره وأمراضه وتعبه، ينهض كلّ صباح مع الفجر كراهب ليصلّي ويعمل وحيداً، بينما الفاتيكان كلّه يغطُّ في النوم.

لمّا أكّدوا لي بأنّ البابا ينهض مع الفجر صدّقت بصعوبة. فمُدراء الإعلام كانوا يقولون لي ذلك دوماً عن السياسيّين الكبار، فيما كان هؤلاء لا يعتدّون بأنّهم يستيقظون مع صياح الديك ليكتبوا كتباً تاريخيّة. إنّ Jacques Attali يؤكّد أيضاً بأنّه ما كان ينام إلاّ أربع ساعات في الليل. بيد أنّه، بقدومه البارحة في طائرة روما، في التاسعة صباحاً، كان جاري البرلمانيّ الفرنسيّ يغفو تقريباً على كتفي. عندها، كيف يمكن أن نتصوّر البابا المسكين الذي تعرّض لمحن جسديّة كثيرة، كما يصرّح القريبون منه، بأنّه يعيش ساعات يعيشها الراهب الـTrappiste.

ولمّا كنت أريد أن أطّلع على الحقيقة والأسطورة، أتيت في الساعة الخامسة إلى ساحة القدّيس بطرس. ففي الساعة الخامسة والنصف تماماً، أضاءت غرفة البابا. في الحقيقة، تأثّرت على مثال Giovanni، ولكنّي كنت راضيةً في داخلي، لأنّي ما سمحت لنفسي بأن يقودني في ذلك مؤرّخو الأب الأقدس، وما تأسّفت أبداً بأنّي نهضت من النوم باكراً.

أخبرني أعزّ صديق له، الكاردينال Deskur، "أخوه العزيز على قلبه" حسب تعبير أحد مساعديه المقرّبين اليه، وأيضاً بعض الكرادلة الذين طلبوا منّي أن أكتم السرّ، كيف يُمضي يوحنّا بولس الثاني نهاره دقيقة بدقيقة تقريباً. فتيقّنت بذاتي من أنّ ما أطلعوني عليه كان صحيحاً، وليس انعكاساً لمجاملة شدّ عزيمة. في الواقع، حضرت مرّة قدّاس البابا الصباحيّ، وتحقّقت ممّا يتناوله على الترويقة. لقد استقبلني بعد القدّاس. وتمكّنت، لمرّات عديدة ولساعات، من متابعته في نشاطاته اليوميّة.

عندما يستيقظ البابا من تلقاء ذاته في الخامسة والنصف (ليس بحاجة إلى منبّه)، وهذا ما اعتاد عليه منذ فتوّته، يمدّ يده الطويلة الناحلة، اليد المدهشة في هيكل عظميّ مربّع، وفيها خاتَمُه الحبريّ الذي لا ينزعه أبداً، نحو منضدة سريره. يتلمّس قليلاً ما بين شحيمته وصورة أهله وصليب صدره الذي وضعه هنا، وليضغطَ أخيراً على مفتاح من المعدن المذهّب فيُضيء مصباحَ سريره ذا العاكس الرماديّ للنور. وعندئذ يرتدي البابا "روبه" ويتّجه نحو مكتب عمله الذي يبعد خمسة أمتار عن سريره، وهو من خشب ذي لون فاتح، عليه غطاء جلديّ أحمر، وينيره قنديل بسيط بشكل ملقط، ذو ذراع متحرّكة.

هنا، في هذه الغرفة القَشِفة تقريباً، في وسط أغراض له حميمة، من بينها الأعزُّ على قلبه: صورة لوالدته في إطار بيضاويّ فضّيّ، وصورة منسوخة لسيّدة Gzestochowa يتأمّل أمامها لبضع دقائق في سكون الليل.

ثمّ ينهض ويتّجه نحو حمّامه، الذي منذ ٢٩ نيسان ١٩٩٤، وحيث زلّت به القدم وانكسر عظمُ فخذه، هو مغطّى بتراب مضادّ للانزلاق، وقد سلّحت حيطانه بقبضات معدنيّة، فيحلق ذقنه ويستحمّ.

في العشيّة، تكون الأخت Matylda قد هيّأت ثياب الأب الأقدس: غمباز وcamail أبيضان من القطن الناعم وأحذية حمراء من الجلد "البوردو". أحياناً، تأتي وتساعده حتّى يلبس ثيابه.

إنّها الساعة السادسة والنصف. يتّجه نحو كبالّته الخاصّة ذات الحيطان الملبّسة بالرخام من Carrare، والتي كان قد أعدّها البابا بولس السادس. يعلو المذبح صليب ضخم من البرونز. إنّه، بالنسبة إلى البابا، الوقت الأهمّ من نهاره. إنّه لوحده مع الله. يركع على الأرض، ثمّ ينبطح بطوله. إنّها الطريقة الصوفيّة لصلاة الكهنة البولنديين. لقد كنت شاهدة على ذلك، وتأثّرت شديد التأثّر. وهذا أعادني بالذكرى إلى احتفالات لبس الثوب الرهبانيّ في مدرستي، حيث تنبطح المبتدئات بمآزرهنّ البيض على البلاط في وضع عبادة كاملة. الطقس إيّاه يُحافَظُ عليه في رسامة الكهنة والأساقفة أيضاً.

يبقى الأب الأقدس دقائق طويلة في الصلاة. ثمّ ينهض في الوقت الذي تدخل فيه راهبتان تضيئان الشموع على المذبح. يركع على مركعه البرونزيّ: أثاثٌ ضخمٌ مزوَّدٌ بلوحة، عليها يمكنه، إذا أراد، كتابة الأفكار التي قد يكون استوحاها من تأمّله. بعدها، يساعده أمينا سرّه المونسينيور Stanilaw Dziwisz والمونسينيور Mieczyslaw Mokrzycki في لبس بدلته البيضاء الحريريّة مع صليب أحمر وشريطة من اللون نفسه. يمكن أن تكون البدلة خضراء أو بيضاء تزيّنها أشرطة زرقاء، أو تكون مطرّزة أيضاً. إنّ هذا لَيتعلّق بالليتورجيا. يمتلك الأب الأقدس من البدلات ما لا يحصى، وهي هدايا يتقبّلها من مؤمني العالم أجمع. إنّه يعطي بعضها للأساقفة الذين يستقبلهم، وحتّى لبعض الكهنة. فيا لَفرحهم، وأيُّ شرف هو بأن يكون في استطاعتهم الاحتفال بالقدّاس، وهم يرتدون بدلة ارتداها البابا.

وعندها يصل خمسة عشر مدعوّاً لحضور القدّاس الخاصّ. إنّهم من بلدان وأوضاع متنوّعة: أساقفة غرباء، زائرون شهيرون كان أوّلهم الملك Baudouin، وتبعه Raymond Barre, Jean Guitton et Maradonna، أو مؤمنون عاديّون كتبوا إلى البابا يطلبون منه هذه الحظوة. هذا للتدليل بأنّ معايير الاختيار تختلف تماماً عن التي تُعتَمَد في الـElysée وفي البلاط الملكيّ بإنكلترا. فالمدعوّون ذاتهم لا يفقهون ذلك ويستغربون بأن يكونوا في عداد هؤلاء الرفاق المتنوّعين. فالذين يقطنون في الخارج أُعلموا

بالمراسلة التي تتولّاها الأخت Eufrosyna، وعمدوا إلى السفر لهذه الغاية. أمّا الذين هم في روما، فينبّههم المونسينور Dziwisz باتصال هاتفيّ، عشيّة اليوم الموعود. لا أحد يقدّم المدعوّين بعضهم لبعض. إنّنا نرى الملوك يتفحّصون، بغرابة، وجوه المؤلّفين والأساقفة والقياصرة. بالنسبة لي، كلّهم كانوا يتساءلون من هي هذه. يتلو البابا قدّاسه باللاتينيّة والايطاليّة، مُدخلاً مقاطع من لغات الحاضرين الغرباء، مجاملةً لهم. إنّها الهنيهة الأولى من نهاره، التي يتكلّم فيها لغة غريبة.

وفي غياب راهبة من الراهبات، يخدم القدّاسَ أحدُ المدعوّين؛ وهو في العموم، كاهن. يطول القدّاس أكثر من العادة، لأنّ حركات البابا بطيئة بسبب العمر. فالآن، قليلاً جدّاً ما يناول الأفخارستيّا بذاته، إذ إنّ حاشيته من العلمانيّين، أي رئيس حرسه وطبيبه ومصوّره يتناولون دوماً. إنّ هذا لَيُتعبه، ولا سيّما أنّ الكؤوس المذهّبة بذهب من عيار ٢٢، والتي هي أعمال فنيّة جميلة جدّاً، هي ذات وزن ثقيل ليدَيه الضعيفتين. لا عظة في القدّاس الذي يتبعه فعل شكران. فوجوه الراهبات اللواتي يحضرن القدّاس الخاصّ مشعّة هي. نعم، إنّ التُقى يلعب دوره. ولكنّها أيضاً مناسبة، بالنسبة إليهن، للخروج من أعمالهنّ الوضيعة ورؤية العالم. عندما يكون أحد المدعوّين الشهيرين حاضراً، فهنّ لا يتوقّفن من النظر إليه خلسةً. عادةً، إنّ المدعوّين كلّهم يتناولون.

عندما يلتفت البابا في آخر القدّاس نحو الحضور قائلاً لهم : "ite missa est" اذهبوا انتهى القدّاس، تستحوذ قشعريرة غريبة كلَّ هؤلاء المحظيّين. نشعر بحَمٍّ في الهواء. لا أحد يدري في الحقيقة ماذا سيحدث ولا ما سيعمل. لم يُقلْ لهم شيءٌ. مَنْ يستبقي البابا للترويقة؟ في الواقع، اثنان أو ثلاثة من المدعوّين يبقون. ولكنْ، قبل ذلك يستقبل البابا الجميع في الصالون الخاص ذي اللّون الباجي، والذي توجد فيه مكتبة من الخشب الضخم. هنا، يمنح البابا ضيوفه مقابلة لبِضع دقائق، يخلّدها كموضوع فخر لهم مصوّرهُ الرسميّ Arturo Mari: رجلٌ في الخمسين من العمر، يرتدي قميصاً أسود وبنطلوناً أدكن؛ فخِلتُه يسوعيّاً ولوقت طويل.

في هذا الوقت بالذّات يسلّم المدعوّون للبابا الهديّة التي يكونون أعدّوها بكلّ محبّة، وهي تتراوح بين «شك» للأعمال الخيريّة وساعةٍ ثمينة. والهدايا الأشدّ وضاعة هي: صورة له على نسيج، باقات من الزهر، علب من الشوكولا، حتّى أجبان وسلال من

الخبز. ولقد رأيت أيضاً بعض المدعوّين يقدّمون له صورته مصنوعة من "السباغيتي" أو من السُكّرنبات. إنّها تُحَف فنيّة تطلّبت ساعاتٍ من العمل، يسلّمه إيّاها أصحابها بفرح وسرور عميقين. راهبات مكسيكيّات حملن مجامع من مربّى الـGoyave هيّأنها بذاتهنّ. وقدّم له المصارع الايطاليّ الأولمبيّ Patricio Oliva كفوف المصارعة. كلّهم يقدّمون، بطريقة عفويّة، هداياهم للأب الأقدس؛ ورئيسُ خدمه الجليل، Angelo Gugel، ابن الخمس والستين سنة والدركيّ سابقاً، يتسلّمها ويضعها على طاولة كبيرة، محاولاً ترتيبها بانتظام. إذ ذاك يقدّم لهم البابا أيقونات ومسابح من اللؤلؤ وعلاّقات مفاتيح عليها صورته. وحسب مقام المدعوّ وإلهام الأب الأقدس الشخصيّ، يمكن أن تكون هذه الأغراض التقويّة من البرونز أو من الفضّة وحتّى من الذهب.

عندئذ، ووسط هذه الحرارة العامّة، وبينما يحافظ الحرّاس السويسريّون على المظهر النظاميّ، يقودون معظم المدعوّين، وبكلّ لطف، نحو المخرج، ماعدا المختارين القليلين الذين سيقاسمون البابا طعام الترويقة. إنّه لشرف عظيم، لأنّه من زمنٍ ليس ببعيد، كانت العادة تقضي بأن يتناول البابوات الطعام لوحدهم.

تقدّم الترويقة حوالى الساعة الثامنة في المائدة القريبة من الصالون. تزيّن جدرانها السمراء لوحات دينيّة قديمة ولوحة مطويّة فنّية ثلاثيّة جميلة. حول الطاولة المستطيلة المغطّاة بشرشف أبيض، هناك ستّة كراسٍ من المخمل ذات مرتفقات وظهر عالٍ. يشغل البابا لوحده جهة من جهات الطاولة الطويلة، وهو أثَرٌ من البروتوكول القديم الذي يقضي بألاّ يكون للباباوات جيران إلى المائدة. تتألّف وجبة الطعام من القهوة أو الشاي والحليب ومن مربّيات ثمار حمراء أو الخوخ المركّز كما في بولندا، ومن بيض مع التوم البرّيّ أو الأعشاب، وقطع من الجانبون، وجبنة، ووريدات، وهي خبزات صغيرة، مستديرة ساخنة إيطاليّة على شكل وردات يولع البابا بها وتعبق رائحتها الحلوة في الصباح حال دخولنا أجنحة البابا الخاصّة. "أتيت روما خصّيصاً لآكل هذه الخبزات الصغيرة"؛ هذا ما كان يقوله البابا أحياناً ممازحاً. يتناول يوحنّا بولس الثاني شاي Earl Grey الانكليزيّ المعطّر بالبرغموت Bergamote. لا يأخذ أبداً القهوة. البابا ليس ذوّاقة ولا شرِهاً. بالنسبة له، هذه الترويقة البولونيّة (einadains eL) هي الوجبة الأساسيّة من النهار. لهذا، هو يصرّ أن يكون طعامها وافراً. "عندما نأكل، نتقن عملنا"، هذا ما قاله يوماً

للراهبات الدومينيكيّات de Saint - Sixte في Tours، وقد دعا لتناول طعام الغداء إلى مائدتهنّ كلّ أساقفة فرنسا في أيلول سنة ١٩٩٦ إبّان زيارته لوطننا.

آنية المائدة هي من الصينيّ المطعّم بالعاج مع خيط من الذهب، وتحمل الشعار البابويّ. إنّها من شغل Richard Ginori الايطاليّ الشهير بصناعة الصينيّ. خلافاً لملكة انكلترا، لا يسلّم الكرسيّ الرسوليّ شهادة "مموّن قداسته". علاوة على ذلك، إذا استفاد المموّنون من ذلك للدعاية، عندها يمتنع الكرسيّ الرسولي عن طلب أيّة بضاعة منه. يتملّك الخجل غالبيّة المدعوّين، فلا يتجاسرون على لمس أيّ شيء. إنّهم يخافون من أن يلطّخوا ثيابهم بالمربّى (يوحنّا بولس الثاني لا يلطّخ ثيابه أبداً). وبالأكثر يخافون أن يكون فمهم ملآنَ، حين يتوجّه إليهم البابا بالكلام. وما يعزّيهم هو أنّ رائحة شهيّة تَصدُر عن الخبز والبيض المقليّ، وأنّ Angelo Gugel رئيس الخدم يحثّهم بحرارة أن يذوقوا كلّ شيء. وبلجاجة، يشدّد على أنّ كلّ شيء لذيذ. تقليديّاً، إنّ مطبخ الفاتيكان متقشّف، ولكنّه مُتْقَن. الكرادلة هم أنفسُهم شرِهون (أسمح لنفسي أن أقول إنّهم عندما يتنقّلون، يتبادلون، كدليل Michelin، عناوينَ الأديرة التي تقدّم أطيب الأطباق...)

عند الساعة التاسعة يتّجه نائب السيّد المسيح إلى مكتبه الخاصّ. المكتب، بالمعنى الخاصّ، هو من خشب الجوز، مزوَّد بوصلة تمكّن أمين السرّ من أن يجلس ويضع عليها ملفّه. إنّ جهاز الهاتف هو أبيض اللون. هنا لا يدخل الخلويّ. على كلّ حال، إنّ كثرة أجهزة بثّ راديو الفاتيكان تشوّش كلّ الخطوط. علاوةً على الهاتف الأبيض الذي يُستخدم للاتّصال بالأجنحة الخاصّة وبأمانة السرّ، هناك الموزِّع الرماديّ الذي يسمح بالاتّصال بكلّ مكاتب خدمات الكرسيّ الرسوليّ، وهناك جهاز أسود للخطّ الخارجيّ. إلى زمن البابا بولس السادس، كان من غير المعقول أن يتكلّم البابا بالهاتف. أمّا اليوم، فيتلقّى يوحنّا بولس الثاني أحياناً مكالمات هاتفيّة، ولكنْ بعد ثلاث تصفيات: المقسّم العام، ثمّ مقسّمه الشخصيّ، وأخيراً بواسطة المونسينيور Dziwisz. فالبابا الطيّب يوحنّا بولس الأوّل الذي ما كان يُلمّ كيف تتمُّ التصفية، كان يجاوب في الأيّام الأولى لحبريّته مباشرةً على كلّ الذين يهتفون إليه. ذات يوم، كان صحافيّ تابع لمجلّة Gazette de Venise يريد أن يتّصل بأمين سرّه، وإذا بالبابا على الهاتف، فاستولى الذهول عليه وضاع في اعتبارات وتمنّيات من كلّ نوع، وبالتّالي أفاد من هذه المخابرة الفجائيّة ليعمَل منها سبقاً صحفيّاً.

في متناول يد الأب الأقدس، إلى جانب مكتبه، يوجد الدليل الحبريّ الأرجوانيّ المذهّب، ودليلُ الأشخاص البارزين في الكنيسة، والفهرس الهجائيّ التليفونيّ لكلّ الجماعات الدينيّة المجلّد بالأبيض. أمام مقلمة البابا الجلديّة الكستنائيّة، هناك ساعة من البرونز والبلّور وصليب على قاعدة سوداء.

وهو في طريقه إلى مكتبه، أخذ من على الطاولة بضع يوميّات: La Stampa, La Repubblica, Il Corriere della Sera, The International Herald Tribune, Die Welt, Le Figaro. وفيما بعد يحملون إليه في قميص من الجلد الأبيض مدموغة بالشعار البابويّ L'Osservatore Romano الناطق الرسميّ باسم الفاتيكان.

إنّ الأب الأقدس الذي يتكلّم سبع لغّات، يتصفّح العناوين العريضة لكلّ الصحف. يقرأ المقالات التي تهمّه، مستخدماً تقنيّة قراءة سريعة على طريقة جون كينيدي. يستطلع خاصّةً مجلّة الصحافة التي تُصدرها أمانة سرّ الدولة، ويغوص بغبطة زائدة في قراءة Tygodnik Poweszechny صحيفة Cracovie الكاثوليكيّة، حيث يدبّج صديقه الكبير الأب Adam Boniecki مقالاته دوماً. يداوم في مكتبه الخاصّ حتى الساعة الحادية عشرة، وهو يملي رسائله على الأخت Eufrosyna.

في هذا المكتب بالذات، بعيداً عن ضجيج العالم، ألّف يوحنّا بولس الثاني رسائله، ومنها إنجيل الحياة في سنة ١٩٩٥، والتي لاقت رواجاً إذ نُشرت في اثنين وخمسين بلداً، وبيع منها أكثر من أربعة ملايين نسخة. إنّ حقوق المؤلّف لهذه الرسالة كما لسائر مؤلّفاته، تعود إلى أعمال الرحمة عبر حسابه الخاصّ في بنك الفاتيكان. في إحدى زوايا المكتبة، تقوم، تحت الشبّاك، منصّة صغيرة مضادّة للانزلاق، يعتليها الأب الأقدس يوم الأحد ليبارك عشرات الآلاف من المؤمنين المحتشدين في ساحة القدّيس بطرس.

لمّا كانت الأجنحة الخاصّة انعكاساً لشخصيّة يوحنّا بولس الثاني، فلهذا هي ترتدي وجهاً مغايراً تماماً للّذي كان لها أيّام البابوات السابقين. هنا أيضاً الجوّ هو أكثر بساطة، وأقلّ زهواً، وبعيدٌ كلّ البعد عن هندسة النهضة الايطاليّة الرائعة بأحجامها الضخمة، ومظاهرها الخدّاعة، ورسومها الجداريّة المائيّة، وغرفها العالية السقوف، ورخامها المدبّج بالذّهب الخالص. ففي أرض المدخل الرخاميّ مثلاً نُزّلت حجارة

قاسية ونادرة ومتعدّدة الألوان، تمثّل شعار البابا الأرستقراطيّ، من القرن السادس عشر. وفوق باب المدخل الثقيل، أُلْصِقَ شعار البابا يوحنّا بولس الثاني، رسمه له اختصاصيّ بالشعارات، عندما كان رئيس أساقفة Cracovie؛ إنّه يشتمل على صليب لاتينيّ أزيح عن المركز ومن الحرف اللاتيني المذهّب M على قعر لا زورديّ يرمز إلى تعبّد Karol Wojtyla الكبير للعذراء مريم. وعندما انتُخِبَ بابا، زيد على الشعار التاج البابويّ ومفاتيح القدّيس بطرس من الذهب والفضّة. هذا الجناح المؤلّف من عشرين غرفة، قد غدا لا تكلّف فيه، وخسر من فخامته ومن صرامته بفضل العديد من الأغراض المألوفة والتذكارات. لقد غدا مكاناً مُعاشاً، حيث الحجّاج ذوو الأناقة والسترة الباذنجانيّة الطويلة، والطوق الأبيض المكسور والمدلاّة منه سلاسل متصالبة من الذهب والفضة، وحيث الحرس السويسريّ بألبستهم ذات اللونين يقومون بالحراسة أمام الباب، ويبدون وكأنهم من عصر آخر وغير متوافقين مع طريقة عيش يوحنّا بولس الثاني العاطفيّ والبسيط معاً. لقد وضع البابا هنا وهناك صوراً لوالدته الحبيبة Emilia، وصوراً عصريّة للعذراء، وصلباناً من المعدن المذهّب، وصورة للكاردينال Wyszynski رئيس أساقفة بولونيا السابق. هنا وهناك هدايا من حجّاج، وأشياء منتقاة متواضعة. أمّا وقد تملّكني الاطمئنان من تواضع بعض هذه الأشياء، فلم أتردّد، في زيارة من زياراتي، من أن أقدّم للأب الأقدس عدسة مكبّرة للقراءة من الصباغ الأسود والزجاجيّ، وقلماً متجانساً صاغهما صائغ باريسيّ. ما أن تسلّم البابا هديّتي حتى راح، وكان مرتاحاً ذاك الصباح وبنوع خاصّ، يتلهّى بالتحديق إليّ تحت نظر أسقفين شابّين غريبين.

هذه التذكارات التي لا قيمة كبيرة لها، والتي يعلّق عليها أهميّة تتعارض مع أبّهة الأماكن، الارث الفخم العائد إلى أحبار بناة من القرن الثامن عشر، وعلى سبيل المثال بيّوس السادس (١٧٧٥-١٧٩٩)، الذي يَدين له الفاتيكان بقسم من الفخامة الحاليّة. لقد عرف Karol Wojtyla أن يقطع صلته بماضٍ إيطاليّ حيث كان يبرز خاصّة أثاث النهضة وأشياءها الثمينة: مناضد من الخشب المذهّب، تماثيل حجريّة من العصر الوسيط، مكاتب من القرن الخامس عشر مزيّنة بالحجارة القاسية، وقطع من الأثاث النادرة المدموغة بشعارات الفاتيكان. يأخذنا العجب، عندما نقع في هذه الأماكن الشهيرة على بساطة للأبّهة ورفضٍ لها، وبنوع خاصّ بالنسبة إلى صحافيّة فرنسيّة أليفة فخفخةِ الايليزه والقصور الوزاريّة والعاملين فيها المعجبين بذواتهم. لقد نجح البابا،

بفضل هذه التحف العزيزة على قلبه، وبفضل بضع نبتات خضراء، أن يجعل من هذا الاطار المهيب الأيّام إطاراً أقلّ رهبة، خلافاً للعديد من قصورنا الوطنيّة حيث لم تتوصّل أيّة امرأة وزير، ذات الذوق المتردّد، إلى أن تبدّل من التحف التي خلّفها الماضي، حتّى لنظنّ تقريباً أنّ هذه التحف التي أورثها باباواتُ النهضة قد غدت معه أشياء مألوفة.

في الساعة الحادية عشرة تبدأ حياة يوحنّا بولس الثاني العلنيّة. عندها ينتقل من أجنحته الخاصّة في الجناح الشرقيّ من الطابق الثالث ("من بيتي" كما يقول) إلى الأجنحة الرسميّة التي تقع في الأسفل تماماً، في الطابق الثاني. إنّها تشتمل على عشرين غرفة رئيسيّة، تماماً كما أجنحته الخاصّة، وهي نسخة طبق الأصل عنها. في هذا الطابق تجري منذ ١٨٧٠ نشاطات الأب الأقدس الأساسيّة الرسميّة. يستقبل الكرادلة والحجّاج ذوي الشأن في قاعة مجمع الكرادلة الفخمة. أمّا رؤساء الدول وأصحاب السلطة في هذا العالم فيستقبلهم في المكتبة البابويّة الكبرى. إنّها تشبه تماماً المكتبة التي في الطابق الأعلى. بمعنى أنّ العظماء الذين يستقبلهم البابا يظنّون هذه المرّة، أنّه يمنحهم مقابلة خاصّة في أجنحته الخاصّة. هذا ما جرى حديثاً مع رئيس جمهوريّة هندوراس ومع دوقة لوكسامبورغ العظيمة. قد تعرف ذلك هنا. في الواقع، إنّ استقبالات رؤساء الدول تحدث دوماً في الأجنحة الرسميّة. هذا ما حدث لِValéry Giscard d' Estaing، وقد استقبله البابا، في ٢٨ تشرين الأوّل ١٩٧٨، وقد مضى على انتخابه اثنا عشر يوماً. على عجل، أعطى الأب الأقدس مقابلة في ٢٤ تشرين الأوّل ١٩٧٨ للرئيس الايطاليّ Alessandro Pertini حتّى يكون أوّل رئيس دولة استقبله البابا، وقبل أيّ رئيس غريب. ووفق بروتوكول لا يتغيّر، ينتظر رئيس الحجّاب ومعاونه الضيوف المشاهير على باب الشقّة، ويرافقانهم حتّى عتبة المكتبة حيث يستقبلهم البابا واقفاً. يقبّلون خاتمه البابويّ ويسلّمون عليه باليد بعد أن يكونوا قد انحنوا أمامه.

بمناسبة المقابلات الرسميّة، والتي تجري دوماً في هذه الأجنحة من الطابق الثاني، يحتشد السفراء لدى الكرسيّ الرسوليّ وكبار الموظّفين الدوليين. كلّهم يريدون أن يكون لهم حديث مع البابا على انفراد. يحاول الأب الأقدس أن يتحاشاه عندما يخاف ألاّ يغدو ذلك مألوفاً ودبلوماسياً. المنهجيّة لا تخطىء لتحاشي ذلك. إنّها تحدث في وقتين: إمّا أنّ البابا يتظاهر، وقد غدا الحديث غير ذي أهميّة، أنّه شيخ تعب، ما يثبّط

همّة الثرثار؛ وإمّا يوجّهه، وبلطف زائد، نحو وزيره الأوّل الكادرينال Sodano وهو يتمنّى له، بصوته الجهوريّ: "إقامة سعيدة في روما". الكثيرون من هؤلاء الشخصيّات هم مطلّقون أو أنّهم في وضع شاذّ، ويعرفون أنّ البابا هو على بيّنة من ذلك، الأمر الذي يحرجهم.

يلعب الاطار أيضاً دوره الرادع والمؤثّر. فمهما كانت الأحاديثُ قصيرة، فإنّ محدّثي البابا هم منذهلون أمام الهيبة اللدنيّة التي له، وأمام قدرته الغريبة في فهم مشاكل آخر العصر هذا. والمعتادون منهم على اللغة الخشبيّة هم في ذهول أمام صراحته وحريّته في الكلام. على ما يبدو، إنّ كبار هذا العالم لا يحدثون تأثيراً عنده البتّة. فعندما زاره Giovanni Agnelli الملقّب "بملك إيطاليا"، مقدّماً له سيّارة Fiat مصفّحة، ثمنها مليون من الفرنكات، بالكاد نظر إليه، ومنحه ثواني معدودات للصورة. بينما في مساء ذاك النهار استقبل ولمدّة طويلة راهبات بولونيّات وغنّى معهن. البعض من محدّثيه يحاولون أحياناً أن يحرجوه بطرحهم عليه أسئلة صداميّة، فيجيبهم بجمل مقتضبة وقاطعة. وكما قال Valéry Giscard d'Estaing إنّه لا يدخل أبداً في جدل. إنّه يطرح جملة تضع حدّاً للنقاش. ويستنتج الكاردينال Poupard "أنّ ذاكرته الرائعة وثقافته الواسعة وحسّه الفطريّ للتعبير كلّها تأتي لإعانته".

بعد هذه المقابلة العامّة ينتحي جانباً بالأكثر أهميّةً من محدّثيه، حيث يقدّم لهم أيقونات، أو نسخات أعمال فنيّة من متاحف الفاتيكان، أو لوحات من الموزاييك موضوعة على طبقٍ من الفضة يحمله رئيس الحجّاب. تقدّم الأيقونات في علب معدنيّة خضراء أو زهريّة مدموغة بشعار البابا المذهّب. في أكثر الأحيان يتقبّل عوضاً عنها هدايا أخرى، وغالباً إنّها نسخ رديئة لأعمال فنيّة من بلدان منشأ زوّاره الشهيرين. ففي مناسبة العيد الثمانين لميلاده، قدّم له رئيس مجلس الشيوخ الايطاليّ Nicola Mancini نسخة عن الدستور الايطاليّ مع هذه العبارة: "البابا هو أيضاً أب وطننا" (ففي إيطاليا كما رأينا، الدين والسياسة متّفقان). وقدّم له البرلمانيّ Marco Pannella مخطوطة دينيّة مِن القرن السادس عشر. وهنا أيضاً يعود لـAngelo Gugel أن يتقبّل الهدايا وأن ينضدها بانتظام على طاولة من الجوز. إنّ كلّ هذه الاجراءات الشكليّة تؤلّف مسرحيّة لطيفة تشعرك وكأنّك في قصر Versailles أو في قصر بيزنطيّ. من ثمّ تحصى هذه الهدايا في

سجلّ، وتُخزّن في الـFloreria الرسوليّة التي هي في آن متحف البابوات الخاصّ، ومغارة علي بابا للأشياء التي تزيّن مكاتب الدوائر والمجالس البابويّة. إنّ بعض الهدايا التي يتقبّلها البابا، وقبل كلّ شيء المواد الغذائيّة المعرّضة للتلف، إنّما هو يوزّعها على أولاد مستشفى Bambin Gesu، مستشفى أولاد روما المرضى، وإلى أولاد بيت الأم تريز الداخليين المبنيّ ضمن أسوار الفاتيكان، أو إلى غيرها من مؤسّسات أعمال الرحمة.

تحصى المقابلات الخاصّة ببضع مئات في السنة. إنّها مخصّصة للكرادلة القاطنين في روما، ولرؤساء الدّول ورؤساء الحكومات، ولرجال السياسة من الطراز الأوّل، وللدبلوماسيين الذين يأتون ليقدّموا أوراق اعتمادهم، ولبعض المؤلّفين والعملاء الشهيرين. والبابا الذي لا يقبل من ناحيته أيّ وسام، يمنح أثناء هذه المقابلات الخاصّة وسام المسيح الأعلى أو امتيازات فخريّة أخرى لمن يشاء أن يكرّمهم، شرط ألاّ يكونوا من المطلّقين.

يتناول البابا طعام الغداء بين الواحدة والنصف والثانية. في الواقع، ليس له ساعة محدّدة تماماً، الأمر الذي يغيظ الايطاليين المسؤولين عن البروتوكول. فالبولنديّون في العموم، هم قليلاً ما يعلّقون أهميّة على ساعات محدّدة لوجبات الطعام. لا يجلسون إلى الطعام إلاّ بعد أن يكونوا أتمّوا ما عليهم أن يعملوا. في أغلب الأحيان يدعو الأب الأقدس إلى مائدته آخر أشخاص يستقبلهم، وغالباً ما يكونون أساقفة من البلدان التي سيزورها عمّا قريب. إنّه يتنبّه إلى جنسيّة مدعوّيه بالنسبة إلى قائمة الطعام الموكولة إلى الأخت Germana. إذا ما استقبل فرنسيّاً، يتأكّد من أنّ هناك حلوى بعد الطعام. فعندما دعا إلى الغداء أخيراً الكاردينال Poupard وكان عائداً من روسيا، حرص أن يهيّء له حلوى مع الفاكهة والكريما؛ وكان أنّ راهباته أكّدن له أنّ الفرنسيين يولعون بها. وعندما يكون هناك إيطاليّون، يصرّ أن تقدّم دوماً الـPasta على أنواعها، ومن المفضّل أن تكون قصيرةً لئلا يوزّع منها هنا وهناك. وكي يستقبل صينيين، وقف على رأي الكاردينال Deskur الذي هو ذوّاقة في الأكل، ويُعرف عنه أنّه يعدّ أغنى طاولة بولونيّة في روما. وبين مدعوّيه غالباً ما يحصى كاهن من كهنة الرعايا الرومانيّة، الذي سيحظى بمباركة قداسته لكنائسه الأحد الذي يلي. ففي عشرين سنة، ذهب يوحنّا بولس الثاني إلى مئتين وإحدى وأربعين كنيسة، من أصل ثلاثمئة كنيسة في روما الكبرى.

يأكل الأب الأقدس بولونيّاً، أي انّه يتناول طعاماً غنيّاً حسبما يقتضيه مناخ وطنه البارد. هذا، مع أنّه يعيش منذ اثنتين وعشرين سنة في إيطاليا. إنّه أمين للعادات. إنّ وجبة طعامه، التي تتحكّم بها عصا الأخت Germana، تتألّف من المعجّنات والخضار المسلوقة، ومن فطائر الخضار واللحوم المشويّة، ومن الأسماك والسمبوسك المحشو باللحمة أو بالملفوف، ومن السمك المطبوخ بعصير الفواكه نهار الجمعة وسلطة الفواكه والحلويّات، ومنها الفطائر البولونيّة بالقشدة Kremowska الشهيرة، ومن الجبنة البيضاء والكريما "ذات الجيوب المملوءة"، وهي كناية عن كريما مقلوبة على الطريقة البولونيّة.عندما كان مدعوّون إيطاليّون ذوو شأن يرون البابا يرشّ شيئاً ما على السلطة الخضراء، كانوا يتساءلون فيما بينهم ما إذا كان ما يرشُّه، هو جبن غير دسم؛ وكان يبدو لهم أنّه كذلك. في الواقع، كان نوعاً من نباتات عشبيّة طبيّة بريّة. وتماماً، كما في وطنه بولندا، تقدّم الفاكهة بعد الطعام، تدعمها حلويّات هديّة من حجّاج مواطنين. يقدّم، مع هذه الأطباق، الخمرُ الأبيض الذي أنتجته كروم عنب الكرسيّ الرسوليّ. هذه الخمور هي أحياناً فائرة ومغلقة بإحكام بسدادات، كالتي تُسدّ بها قناني الليموندادا. يشربها الأب الأقدس مقطوعة بالماء، والأفضليّة هي لماء San Paolo: مياه هادئة وقليلة المعادن. في الصيف، يحدث أنّه يتناول البيرة، ودوماً باعتدال. في شبابه، تسجّل Karol Wojtyla في نادي مكافحة إدمان المسكرات. إنّ معظم المحاصيل الطازجة من بيض ودجاج والـmozarella تصل كلّ صباح بشاحنة مبرّدة من مزرعة الدارات البابويّة في Castel Gandolfo، مقرّ البابوات الصيفيّ الذي يقع على بعد ستة وعشرين كيلومتراً من روما. عندما استقبل في ١٥ حزيران ٢٠٠٠، مئتي فقير أو شريد، بمناسبة اليوبيل الكبير، في صحن قاعة Nervi، كانت لائحة الطعام التي قُدِّمَتْ مؤلّفة من الرافيولي، ولحم عجل بالفرن، وبطاطا مقليّة، وجبنة، وسلطة فواكه وخمر إيطاليّ وأخيراً قدح من النبيذ الفوّار. قام بالخدمة إكليريكيّو مدرسة روما.

أمّا وقد استراح يوحنّا بولس الثاني من صباح مضنك، يبدو حسنُ معشره بعد تناوله الطبق الأول. إنّه يعرف كيف يحمل مدعوّيه على الكلام. ما إنْ يجلس إلى الطاولة حتّى يبادر بالقول: "أيّة لغة نتكلّم اليوم". يأكل الأب الأقدس قليلاً وسريعاً، ما يمكّنه أن ينصرف لمدعوّيه. من عادته أن يطرح عليهم هو أوّلاً أسئلةً، أحياناً دقيقة، ما يسمح له بالتّالي أن يزدرد بعض لقمات وهو يسمع أجوبتهم. إنّه وقت مفضّل لتبادل الأفكار ومناقشتها بحريّة.

بعد الوجبة يفيد البابا من ساعة قيلولة تقريباً (وصفها له أطبّاؤه) في غرفة، حيث يجلس في مقعد من مقعدين من الدمقس الأحمر ذي مسند قاس. بعد ذلك بقليل ينهض ويغطّي أكتافه بمعطف أسود، هو له منذ كان أسقفاً في بولندا، ويتوجّه بُتؤدة نحو السطح الذي يشرف على روما وعلى باحة Saint Damase (التي رتّبها فيما قبل البابا بولس السادس) حيث يسير بخطى صغيرة وهو يصلّي شحيمته. هذا هو تمرينه الجسديّ الأعنف.

نحو الساعة السادسة والنصف، وقد عاد الحبر الأعظم إلى مكتب جناحه الخاصّ، يدعو مساعديه المباشرين، نوعاً ما حكومته: الكاردينال Angelo Sodano، الذي أرجعه من Chili حيث كان سفيراً بابوياً؛ والمونسينيور Léonardo Sandri أمين سرّه العام الذي يحمل لقب "النائب"؛ وأيضاً وزير خارجيّته المونسينيور Jean-Louis Tauran. وكلّ واحد منهم يفكّر أنّه يقوم بمهمّة عظيمة في الفاتيكان. فالمونسينيور Tauran هو من الأحبار الفرنسيين القلائل، والذي تخرّج من الأكاديميّة الحبريّة ومن الجامعة الغريغوريّة الحبريّة. إنّه خبير أيضاً في خمور Bordeaux. ومن المدعوّين أيضاً، وبطريقة شكليّة وبدون اعتبار سُلطة كنسيّة محدّدة، رجالُ الكنيسة البولنديون المخلصون الذي يعاونون يوحنّا بولس الثاني من دون انقطاع، وهم المونسينيور Stanislas Rylko والمونسينيور Henryk Nowack والأب Stanislaw Szlowieniec.

قبل العشاء، ينزل يوحنّا بولس الثاني من جديد إلى الطابق الرسميّ، حيث غالباً ما يستقبل بعثات غريبة أو مجموعات من الحجّاج المنتخبين والذين لا يتعدّون الثلاثين شخصاً. كثيرون يأتون من البلدان الشرقيّة. وفي هذه السنين الأخيرة، وقد أخذ التعب يبدو عليه أكثر فأكثر، لا يفكّر البابا أن يُجهد نفسه إلاّ لأجل هؤلاء الذين يحملهم في قلبه بنوعٍ خاصّ. إنّما هو لا يقوم فيهم أبداً خطيباً، يمطرهم بخطابات ناريّة كان سخيّاً بها. فالكاردينال أمين سرّ الدولة يوزّع بنفسه النصّ المصوّر لهذه الخطابات وبطريقة احتفاليّة.

إنّها الآن الساعة الثامنة. تبدو على الأب الأقدس إمارات التعب. يصعد من جديد إلى جناحه الواقع في هذه الأجنحة التي شغلها، منذ بيّوس العاشر، سبعة بابوات، وهو السابع منهم، يرافقه المونسينيور Dziwisz، الذي يحمل في يده ورقة صغيرة، سجّل

عليها أوقات عمل البابا ومعايناته. وقد كان يشغل هذا الجناح بيّوس العاشر إبّان مجمع الكرادلة في ١٩٠٣، والذي فضّل، بعد انتخابه، أن يبقى فيه بدل أن يسكن في الطابق الأسفل شأن أسلافه.

يذهب البابا أوّلاً إلى الكابيلّا ليتأمّل، وهو ساجد على مركعه. ومن ثَمّ يعود إلى مكتبه ليلقي نظرة على العناوين الكبيرة لنشرة الأخبار المتلفزة الايطاليّة في قناة الدولة الايطاليّة الأولى. إنّه ينظر أحياناً إلى قنوات بولنديّة، يمكنه التقاطها بفضل هوائيّ قمر صناعيّ مخبّأ في زاوية الـAttico، وهو سطحٌ مزروعٌ أزهاراً يقع في الطابق الأخير (نصب فيه البابا دربَ صليبٍ صغيراً حيث يذهب أحياناً بعد الظهر ليصلّي). قليلاً ما يهتمّ بالأفلام. ومع هذا حضر أخيراً: La Porta del cielo، فيلم قديم عن فاتيما لـVittorio de Sica. وحضر فيلماً عن "la vie est belle" لِـRoberto Benigni، وفيلم Le frère de notre Dieu للبولونيّ Krzystof Zanussi، وفيلم Pan Tadeusz لِـAndrzej Wajda.

العشاء هو أكثر بساطةً من الترويقة، ويقتصر غالباً على شورباء غير دسمة وعلى خضار وفواكه، وبعض المرّات على Pirojki. تقوم العادة في بولندا على أخذ وجبة خفيفة عند المساء فقط، وأحياناً باردة. لا يقبل البابا مدعوّين إلى العشاء. يحضرها فقط المونسينيور Dziwisz. فيها لا يتكلّم يوحنّا بولس الثاني إلاّ نادراً. يقول: "أنا اليوم بابا صامت". تخدم العشاء راهبة من الراهبات، لا Angelo Gugel كما على الترويقة. طبعاً إنّها تقوم بخدمتها من دون أن تتكلّم، بينما يحثّ Angelo المدعوّين ليتناولوا الطعام وبوفرة.

في الساعة الحادية عشرة يغرق البابا من جديد في الصلاة. فهو في مكتبه أو في غرفته راكع. وقبل أن يستسلم للنوم، يقرأ في سريره بضع صفحات من كتاب أو يصلّي شحيمته، وهي كناية عن كتاب ضخم مجلّد يسحبه من جيب من الجلد المغلق بسحّاب. وعندما تسمع الراهبة التي تسهر في غرفة مجاورة صوت السحّاب الذي يدلّ على أنّ الكتاب المقدّس قد أُعيدَ إلى جيبه، تعرف أنّ نهار صاحب القداسة قد انتهى. في هذا الوقت تضغط يد الأب الأقدس النحيفة والهزيلة على المفتاح المعدنيّ المذهّب المثبت على منضدة السرير. ينام البابا، وهو يصلّي سبحته.

الفصل الثالث

أبداً دون بنتيَّ

أثناء الشتاء، كنت قد أحضرتُ للأب الأقدس عدداً من مجلّة Paris Match يُخْبِرُ سفره إلى فرنسا في أيلول ١٩٩٦. تصفّحه باهتمام.

قال لي: "إنّي لَمتأثّر جدّاً. هل تعلمين أنّ هذه المجلّة فيما مضى، تحت الحكم الشيوعيّ، كانت تصلنا إلى بولندا، وكانت بالنسبة إلينا صورة فرنسا والحريّة؟"

هل هذا كي يشكرني، بأن أضاف الأب الأقدس وهو يمسك يدي قائلاً: "لماذا لا تجلبين معكِ ابنتيكِ إلى الفاتيكان لأباركهما؟" لقد تملّكني التأثّر. شكرته على هذا الانعام الخاصّ.

ولمّا عدت إلى باريس، رحت أتساءل إذا كنت أقود ابنتَيَّ في وقت واحد أو المرّة تلو الأخرى (وهكذا أرى البابا في مناسبتين). الاثنتان معاً هذا ما كان يقلقني نوعاً. أثناء مقابلة أخيراً في Hotel de Ville، وكانتا تصحبانني، تشيطنتا، إذ كانتا، على طريقة التزلّج الأولمبيّ، تتزحلقان على رخام صالونات رئيس البلديّة المصقول...

قرّرت بأن أختار Cosima، خمس سنوات، وأقدّمها هي الأولى للبابا. هكذا تجنّبت تعصيباً غير نافع، وهو أنّه بين أخوات ننجرّ إلى ارتكاب حماقات. تحدّثت معها حول الفستان الذي سترتديه ذلك اليوم. ولمّا كانت لا تزال متأثّرة بأفلام Un Indien dans la ville et Pocahontas، كانت تصرّ، وبشكل قاطع، بأن تذهب إلى الفاتيكان كهنديّة صغيرة. نجحت في اقناعها بأنّ من يحصل على إنعام أن يباركه البابا في مار بطرس شخصيّاً، فإنّ فستاناً من القطن الأبيض هو حلّ معقول. لقد أغوتها فكرة هذا

السفر، حتّى وإنْ كانت لا تفهم تماماً من هو البابا، وبالرُّغم من التعليم الدينيّ التي كانت تتلقّنه في المدرسة. كانت ترى العديد من صوره في البيت، وكانت تجد أنّه يتمتّع في التلفيزيون بنظرة أكثر حناناً من رجال السياسة، ولكنّها ما كانت تفقه لأيّ سبب كان يرتدي دوماً اللباس نفسه، ولماذا صليب صدره الضخم الذهبيّ، هو أكبر بكثير من الصليب الذي اقتبلته من عرّابها يوم عمادها. ما كان يسرّها، بنوع خاصّ، هو أن تسكن بضعة أيّام عند خالتها Sophia، وألاّ تذهب إلى المدرسة في بحر الأسبوع، وأن تذهب لترى رجلاً شيخاً يشبه من دون شكّ جدّها الذي لم تعرفه قط؛ وبكلّ تأكيد، أن تأكل صحوناً كبيرة من السباغيتي بصلصة البندورة كما في La Belle et le Clochard de Walt Disney.

ها نحن اذاً صباح الثلاثاء في الطائرة إلى روما. إنّ Cosima لمغتبطة بفكرة زيارة هذا الفاتيكان الذي رأته في الصور عدّة مرّات، حتى وإن لم تكن قد أدركت البعد الروحيّ لهذه المقابلة البابويّة. تشعر بأنّها فخورة بفكرة أنّ في استطاعتها أن تتحدّث عن ذلك عند عودتها مع رفيقاتها في ملعب المدرسة، وأن تصف لهنّ بازيليك القدّيس بطرس وقد سبق وأخبرها عنها الأب Tessier في صفّ التعليم المسيحيّ، وأنّها قد بنيت على شرف ذكرى القدّيس بطرس. "أنت الصخرة وعلى هذه الصخرة سأبني بيعتي"؛ إنّها لَصيغة ذات وقع على الأولاد. أخيراً، إنّها سترى، بأمّ عينها، ويمكن ستلمس أيضاً هذا الانسان ذا اللباس الأبيض، والذي في ما يختصّ به تهتف أمّها أمام الشاشة الصغيرة: "دعوني أسمع ماذا يقال عنه". وغالباً ما يبدو مصوَّراً على شريط سينمائيّ، الشيء الذي يحملنا على الصمت لبضع دقائق.

كنت أوضح لها بأنّ عليها أن تدعوه: "يا صاحب القداسة". وكنت أحملها على أن تراجع ذلك. من ثمّ حاولت أن أشرح لِـCosima، من دون أن أستعمل الكلام الفاتيكانيّ الجافّ والمبهم، ما هي المقابلة العامّة نهار الأربعاء، والتي في نهايتها يستقبلنا الأب الأقدس. هذه المظاهرة الممكنة للجميع تبدأ في الساعة العاشرة أو الحادية عشرة. وحسب الوقت والفصول وعدد الأشخاص، تحصل إمّا في ساحة القدّيس بطرس، وإمّا في قاعة Nervi، وإمّا في البازيليك. فإذا جرت في ساحة القدّيس بطرس، يجلس البابا الذي يكون قد وصل على السيارة 4X4 الشهيرة قبالة الشعب أمام البازيليك على كرسيّ ظهرها عالٍ على المؤمنين، الذين يتراوح عددهم ما بين الخمسة آلاف والستة آلاف

أن يُبرزوا عند مدخل الساحة بطاقة دعوة خاصّة. يتوجّه البابا إليهم، أقلّه بخمس لغات، ثمّ يباركهم. عندما تحدّث المقابلة في قاعة Nervi يكون العدد أقلّ من ذلك: ثلاثة آلاف شخص تقريباً. هنا أيضاً على المؤمنين أن يكونوا حاملين بطاقات زيارة. وللحصول عليها يجب الحضور في العشيّة إلى الباب البرونزيّ في الفاتيكان، ويطلبونها من الحرس السويسريّ (ذي اللباس المرسوم من Michel- Ange) حيث يتمّ تسليمها، وحيث يُسْمَعُ جوابٌ ذو لهجة سويسريّة ألمانيّة: "على يمينك، خذ درج بيّوس التاسع الذي يقودك إلى ساحة Saint Damase".

ما إن يصل الحاجّ إلى ثلثي الدرج، وهو ضائع نوعاً أمام هذه الأماكن الشاسعة، حتّى يجد نفسه أمام باب ضخم يعلوه تاج فخم، حيث يقرأ بأحرف نافرة Prefettura della Casa Pontifici. من هنا سيحصل على البطاقة التي يحلم بها منذ زمن بعيد، مدهوشاً من بساطة الأمر، إذ هي كناية عن ورقة صغيرة ثمينة يحرص ألاّ يضيّعها (لا يعطى له ورقة ثانية)، وبواسطتها يمكن أن يلبّي رغبته التي كانت الدافع الأساسيّ لمجيئه إلى روما، ألا وهي رؤية يوحنّا بولس الثاني. إذا كان الأمر يتعلّق بعرسان جدد، فهؤلاء لهم الحقّ في معاملة مميّزة. علاوة على بطاقات دعوة من اللون الأبيض بالنسبة لهم والتي لها رمزها، يسلّمهم أحد الأحبار أيقونة ومسبحة هديّةً من البابا. وعلى العروس الصبيّة، وهي مجبرة على ذلك، أن ترتدي ثوب زفافها الأبيض. إنّ الذين يلجأون، سيّما في هذه السنوات الأخيرة، لخدمات الـPrefettura، يحصون بمئات الألوف الذين تمكّنوا هكذا أن يقبلوا في استعراض مقابلة الأربعاء الغريب.

عندما تكون خدمات الـPrefettura مضطرّة أن ترسل بطاقات الدعوة إلى أُناس ذوي شأن، أو إلى منظّمي الحجّ الجماعيّ الذين لم يحضروا شخصيّاً، إنّما هي تجبهها مشاكل لا مناص منها تعود إلى البريد الايطاليّ غير المنتظم. فعندما يحدث أنّ المستفيدين لم يتسلّموا بطاقاتهم الثلاثاء مساءً، عندها تصادر سيّارات سوداء فخمة من الـAutoparco vaticano لتودع "إفتح يا سمسم" الذين يهمّهم الأمر. فالشخصيّات ذوو الشأن يتسلّمون بطاقات للجلوس في الصفّ الأول، بالضبط أمام البابا. فيما مضى كان عدد البطاقات التي تسلّم ثلاثمئة بطاقة. أمّا اليوم فلا يتعدّى عددها الثلاثين. يجب أن نزيد عليها بطاقات المرضى والمتزوّجين الذين يوضعون دوماً في الصفّ الأوّل. هؤلاء الناس الجالسون في الصفّ الأوّل هم أكيدون بأنّهم سُيقدّمون إلى البابا (يقدّمهم مدير

البيت البابويّ)، الأمر الذي يمكنّهم من تقبيل خاتمه، ولا سيّما أنّهم يخلّدون في مستوى مرصوص كما لو أنّهم وجهاً لوجه مع البابا، بفضل مصوّر يوحنّا بولس الثاني الخاصّ، الذي يسلمّهم في المساء عينه وفي الفندق الكليشيّات التذكاريّة. ما يُطلب منهم فقط هو أن يتركوا في مغلف معدٍّ لهذه الغاية مبلغاً زهيداً من ثلاثين فرنكاً. ويلعب الحظّ دوره بالنسبة للشخصيّات، وللأشهر منهم، إذ تظهر صورهم بالأبيض والأسود في l 'Osservatore Romano، والذين يحاولون فيما بعد أن يسلّموها لصحف بلادهم لتظهر فيها قبل أن يضعوها بلا مبالاة على مكتبهم أو على البيانو.

إنّ الشخصيّات، في أغلبيّتهم، لا يعرفون تنظيم الكرسيّ الرسوليّ المعقّد في هذا الموضوع، إذ تكون عندهم القناعة بأنّهم حظوا بمقابلة خاصّة. في الواقع، خارج الأشخاص الرسميين الدينيين أو الدنيويين على أعلى مستوى، إنّه لمن المستحيل أن يحظى أحدهم بمقابلة خاصّة حقّاً، مع أنّ البابا يستقبل خمسمئة شخص تقريباً في السنة. تسمح المقابلة العامّة يوم الأربعاء لـKarol Wojtyla مع تقبيل يده للصفّ الأماميّ، أن يستقبل أُناساً شهيرين في بلادهم في أغلب الأوقات، ولكنْ ليست لهم بنظر الأب الأقدس الأهميّة التي تبرّر بأن يمرّوا أمامه في مقابلة خاصّة حقّة. ومع ذلك، فالأمر ليس ذا أهميّة، لأنّ الانعام النسبيّ للصفّ الأماميّ يتراوح من Brigitte Bardot حتّى Jean-Claude Gaudin، وغالباً ما يدغدغ أحلامَ الشخص سفيرُه لدى الكرسيّ الرسوليّ القصير الباع، فيذهب سعيداً جداً لأنّه شاهد منظراً غريباً. ويظنّ، أكثر من ذلك، بأنّه نَعِمَ بمقابلة خاصّة. فالمسألة كلّها تتعلّق بدقائق الأمور.

على كلّ حال، إنّ المقابلةَ العامّةَ نهار الأربعاء لهي مشهد رائع المنظر حارّه ومنظّم تماماً. في هذا النهار، وأسبوعيّاً، يحضر آلاف الأشخاص الذين ليسوا دوماً من الكاثوليك. هناك فِرَقُ مسرح في ثيابهم التنكّريّة، وجنرالات إيطاليّون بلبساهم الرسميّ وأوسمتهم، وطلاّب الأكاديميّةَ البحريّة، وفرق السيرك، وأعضاء مؤسّسات متعدّدة... وطبعاً مئات من الكهنة والراهبات والمرسلين الآتين من بلدان بعيدة. عندما يطلّ أسقف روما ببطء على ساحة مار بطرس في سيّارته البيضاء الثقيلة بين هذا البحر البشريّ، تستقبله عاصفة من التصفيق والهتاف الشديدين، والأغاني والجوقات الموسيقيّة والأوركسترا. إنّه لَمدهش أن تلاحظ البهجة تضيء كلّ الوجوه. لقد رأيت آلاف العيون تذرف دموع الفرح، وهي تحدّق إلى هذا الرجل الذي يحمل على منكبيه ثقل الأيّام

حقّاً، وبنوع خاصّ ثقل الكنيسة الكاثوليكيّة. إنّه لمنظر لا ينسى، منظرٌ عفويٌّ ومؤثّر، لا تشارك فيه الأغلبيّة إلاّ مرّة واحدة في حياتهم. مقابلة حاضرة تاريخياً في كلّ الذاكرات منذ هذا اليوم الأسود: الثالث عشر من أيّار ١٩٨١، وقت أطلق Ali Agca النار على البابا. صور توالت مرّات لا تحصى على شبكات محطّات تلفزيون العالم كلّه.

قبل هذا الوقت، كان مألوفاً أن نرى البابا جالساً في سيّارته الـJeep وسط الجمهور المحتشد في ساحة القدّيس بطرس. في أيّامه الأولى، كان Karol Wojtyla ينزل من السيّارة ويختلط بالحجّاج. وبالرّغم من الاستغراب الذي يعلو وجوه أعضاء الكوريا الرومانيّة الجامدة نوعاً، كان الأب الأقدس، يحدوه الزخم الذي له، يوقّع إمضاءَه للمؤمنين. كان ذلك إلى أن قرّر ذات يوم أن يتوقّف عن الاختلاط بالحجّاج، إذ كان كلّ مرّة، يصعد نحو الساعة الواحدة إلى بيته وأكمامُه ممزّقة ومعصماه ملأى بالخدوش ومدمّمة. فالراهبات كنّ يفقدن اتّزانهنّ عندما كان يقترب منهنّ، فتتطاير طرحاتهنّ حتى السماء السابعة، وبنوع واضح طرحات راهبات من أفريقيا وأميركا الجنوبيّة وآسيا. وهنّ في حالة الحماس الشديد هذا، كنّ يحاولنَ أن ينزعن قطعاً من ثيابه كما الفتيان المعجبون بالـBeatles في سنوات الستين... في الحقيقة، كان، البابا المتسامح يفهم جدّاً الدافع المحرّك لهؤلاء النسوة اللواتي كنّ ينطرحن على أقدامه واللواتي كان يهمهم لهنّ قائلاً: "انهضن! انهضن!". طبعاً، كنّ يحملن في اليد اليمنى خاتم تكريس ذواتهنّ للربّ، الذي يشعرن به في قلوبهن كعروس إلهيّ. لكنّ الأب الأقدس ما كان باستطاعته أن يجبه هذه الدلالات أسبوعاً بعد أسبوع. لقد أعلن يوماً، وبطريقة جهوريّة، في ساحة مار بطرس أمام الحجّاج، بأنّه لن ينزل أبداً بين الشعب.

بالنسبة إلى البابوات السابقين، المنزوين تماماً في الفاتيكان، كانت المقابلات العامّة يوم الأربعاء تشكّل مناسبة للقاء منتظم مع الناس ومرّة وحيدة يتواجه فيها الأحبار العظام مع خرافهم. إنّ أسلاف يوحنّا بولس الثاني قليلاً ما كانوا يخرجون من قصورهم، وما كانوا يسافرون أبداً. إنّ أوّل بابا للقصر اجتاز الحدود، كان بولس السادس الذي لم يقم إلّا بتسع سفرات قصيرة ورمزيّة إلى الخارج.

لماذا اختير يوم الأربعاء؟ حتّى يتمكّن الذين يمكثون وقتاً قصيراً في روما ولا يمكنهم أن يحضروا صلاة التبشير يوم الأحد ظهراً، من أن يكون لهم حظٌّ ثانٍ لرؤية

البابا وسماعه. فالذين هم في روما للأيّام الأولى من الأسبوع يفيدون من المقابلة، والذين يأتونها في آخر الأسبوع يفيدون من صلاة التبشير.

لقد طبع كلّ حبر أعظم أويقات النعمة والتقوى المسيحيّة هذه بطابعه الخاص. إنّ الأكثر تسلية، ولكنّه أيضاً الأصعب أن يُحتذى به، كان الوديعَ يوحنّا الثالث والعشرين الذي كان يرتجل نوعاً من العظة—الحوار مع المؤمنين. حوار معقّد لا يتوصّل أن يحذو حذوه فيه لا الأحبار، مع أنّهم معدّون لهذا النوع من التمرين، ولا الحجّاج المتحمّسون. يخبر Bruno Bartoloni الفاتيكانيّ بامتياز والمحرّر في وكالة France Presse إنّه ذات يوم في المقابلة، وجّه رئيس أساقفة Milan وبابا المستقبل Giovanni Battista Montini بعض كلمات ملؤها الاحترام إلى يوحنّا الثالث والعشرين الذي أجاب بطلاقة لسان، وأخذ يستذكر بحماس وبطريقة شعريّة التماسيح على شواطىء نهر الـGange. وتبيّن فيما بعد أنّ البابا، وكان قد احتفل بعيد ميلاده، وقد يمكن أنّه شرب كأساً صغيرة من كروم الربّ، نسبةُ الكحول فيها أعلى ممّا هي في القدّاس. "نحن معشر الصحافيين، تابع Bartoloni كان يُطلب منّا أن نحضّر المقابلة العامّة لنسجّل الخطابات. وكان المدير المعاون de l'Osservatore Romano, Cesidio Lolli يستمع إليها من جديد ويرتّبها على طريقته، وكان يعلن فيما بعد وبرباطة جأش "إليكم كلمات الأب الأقدس كما سمعناها من فمه بالذات...". أمام هذا النجاح المتعاظم للاتصال بالشعب اتصالاً مباشراً وعضويّاً، هو بولس السادس الذي طلب من Le Milanais Nervi، واحد من ثلاثة مهندسي الأونيسكو في باريس، أن يبني القاعة التي تحمل اليوم اسمه على أنقاض راديو الفاتيكان.

عند هذه التظاهرة الأكثر فأكثر شعبيّة، اضُطرّ كلّ من البابوات، قبل يوحنّا بولس الثاني، أن ينصاع مكرهاً لمحمل البابا الثقيل، وهو كرسيّ من المخمل الأرجوانيّ السميك ومن الخشب المذهّب المثبت على زنود قديمة يحملها حمّالون أثناء الاحتفالات، والتي تحمل واحدة منها شعار بيّوس الثاني عشر. كان على رأس الكنيسة الكاثوليكيّة الأعلى أن يعتلي هذا العرش المتحرّك. يتعهّد حمل العرش موظّفون شرفاء من الفاتيكان ويحيط به الحرس النبلاء. هذا يمكّنه بأن يُرى من بعيد، ولكنّ هذا أيضاً يسبّب له في العموم وجعاً في القلب لأنّه يترجّح كمركب بين الأمواج الهوج، ولأنّ الحمّالين كانوا من قامات متفاوته طولاً. البارحة كما اليوم يريد الحجّاج أن يروا الأب

الأقدس، لأنّ سلطته الروحيّة على الكنيسة هي أيضاً سلطة زمنيّة على الفاتيكان، ولحضوره الجسديّ شيء من الرمزيّة ويبعث على الاطمئنان. فالبابا بولس السادس الذي كان يشعر بدوران وهو يعتلي الكرسيّ كما لو أنّه في البحر، قد حاول عبثاً أن يلغي هذا العرش، كما توصّل أن يتخلّص من تاجه المرصّع بالألماس والثقيل جدّاً. والبابا يوحنّا بولس الأوّل النحيل البنية رفض أن يستعمله في حفلة تتويجه.

كان على يوحنّا بولس الثاني أن يخضع لمهزلة الكرسيّ الثقيلة وغير الدارجة. ولكن ما يتمتّع به من طبع صلب وإرادة قويّة ينمّ عنهما ذوقه، رفضها حالاً. وبعد أن قبل لوقت بمنصّة غير لبقة ونقّالة قرّر إلغاءها، لأنّ يوحنّا بولس الثاني ما كان يشعر أنّه حرّ الحركات على هذه الآليّة ذات الدواليب. لقد استعيض عنها بسيّارة الجيب البيضاء والـpapamobile. لم ترَ Cosima محمل البابا الغريب.

لسنوات طويلة كانت المقابلات العامّة تجري على مرحلتين. لقد كان القسم الأوّل مكرّساً للاتصال بالشعب. كلّ كان يعرف أنّه لكي يكون في إمكانه أن يقترب من يوحنّا بولس الثاني، أو أن يرافقه الحظّ أن يلمسه في زمن كان فيه أكثر رشاقة، يجب عليه أن يأخذ له محلاً، إمّا على هامش الفسحات المحدّدة بسياجات من الحديد في ساحة القدّيس بطرس، وإمّا في الممشى الوسط المؤدّي إلى قاعة Nervi. كان البابا يتحرّك في الواقع يمنةً ويسرةً ومن الأمام إلى الوراء.

في أيّامه الأولى غالباً ما كان يأخذ بين ذراعيه أولاداً ويرمي بهم في الهواء، ثمّ يلتقطهم تحت نظر مسؤولي البوليس والحرس الحبريّ المغتاظين، إذ كانوا يقدّرون المجازفة التي بها يجازف البابا بنفسه كلّ مرة كان يقترب من الشعب، إذ يكون بمتناول أيّ كان أن يجرحه وبطريقة عنيفة، أو أن يطعنه بخنجر أو أن يحقنه بسمّ قاتل. ولكنّه ما كان يشغل باله بهذا قط. إنّ Karol Wojtyla كان يحبّ هذا الحمّام البشريّ الأسبوعيّ باتّحاد مع المؤمنين. وإذا كان التصفيق هو القياس، فالبولنديّون كانوا دوماً في الطليعة. وبعد أن يكون قد صلّى معهم، يحييّهم بالايطاليّة والانكليزيّة والفرنسيّة والألمانيّة والاسبانيّة وببعض لغات أخرى سلافيّة، وأحياناً يتحدّث بعشر لغات. إنّ أوقات الثقة والحريّة هذه أُلغيت بعد محاولة القتل سنة ١٩٨١. منذئذ، يخضع المدعوّون المغتبطون بهذا الكرمس البابويّ لمراقبة دقيقة من البوليس الايطاليّ الذي يقدّم مساعدته بتمريرهم تحت كاشفة للمعادن، للتأكّد من أنّهم لا يحوزون أسلحة،

ولوضعهم بانتظام شعبةً شعبة، وحسب وقت وصولهم، ووفق الحرف المسجّل على "إفتح يا سمسم".

في القسم الثاني من المقابلة، يجلس يوحنّا بولس الثاني ويتلو خطابه. ولا يصعد الممشى الوسط، كما كان يفعل بانشراح في بدء حبريّته. عندما تجري المقابلة يوم الأربعاء في قاعة Nervi يبلغ المنصّة من مدخل جانبي ليصل إلى قعر الصالة حيث ينفصل عن الحائط مسيحٌ مشغولٌ من البرونز وكأنّه يخرج من علّيقة ملتهبة. هذا العمل الفنّي طلبه بولس السادس من النحّات الايطاليّ Pericle Farrini. في الوسط كرسيّ عالي الظهر من الخشب المذهّب، صلب ومغطّى بمخمل سميك قشديّ، وهو بعيد كلّ البعد عن شكل العرش. يعلّق البابا على وقت العظة أهميّة كبيرة. إنّها بالنسبة له امتحان جسديّ. عندما تجري المقابلة في ساحة القدّيس بطرس، تجب مساعدته ليصعد الدرجات. إنّ المقابلة في فصل الصيف تنهكه، لأنّه لا يتحمّل حرّ المدينة الشديد. ولكنّ رؤية هذا الشعب المتعدّد الألوان والشديد الحماس يجدّد قواه بطريقة عجيبة، وهذا كافٍ ليتابع بالايطاليّة تعليماً مسيحيّاً جافّاً جدّاً، وقد بدأ بإعطائه في سنة ١٩٧٨، الأمر الذي يمكّنه على مدّ الأسابيع أن يحلّل مواضيع الايمان المسيحيّ المتنوّعة، أو أن يتكلّم حول الأوضاع الراهنة، أو أن يشرح سفراته المتعدّدة. إنّ جوهر عظاته هذه غالباً ما يترجم ترجمة تبلغ إلى ستّ عشرة لغّة مختلفة. فيما مضى كان البابا ينزل بقدم ثابتة إلى الصفّ الأماميّ. أمّا اليوم فهم المختارون يصعدون نحوه.

كان الأمر مغايراً بالنسبة إلى Cosima. لقد حقّ لها معي بمقابلة خاصّة بعد الحفلة التي جرت هذا اليوم في قاعة Nervi. إذاً في السادس والعشرين من حزيران ١٩٩٦، أشار إلينا المونسنيور Stanislaw بطريقة خفيّة، أن نخرج من باب يؤدّي إلى قاعة استقبال صغيرة، خارقاً البروتوكول بلباقته المعتادة تحت نظر Monduzzi القاسي المستنكِر، مدير البيت البابويّ ومنظّم الحفلة المتسلّط. هنا كان الأب الأقدس ينتظرنا ويداه ممدوتان. رأيت Cosima، التي ابتدأت تجد هذه الحفلات طويلة نوعاً، كما لو أنّها مشدودة بجاذبيّة يوحنّا بولس الثاني. فتحت له فجأة ذراعيها، وبعفويّة رائعة، كما لو أنّها هي التي تريد استقباله. في هذا اليوم بالذّات فهمت التأثير السحريّ الذي ينطلق من يوحنّا بولس الثاني. وأنا العليمة بطبع Cosima المنقبض، عرفت بأنّ هذه الحرارة المؤمّنة،

وهذا الاشعاع الذي لا يوصف، هما اللذان أمليا عليها هذه الحركة غير المنتظرة. أمّا وقد تأثّرتُ جدّاً، لأن الأمر يتعلّق بابنتي، فخطرت ببالي كلمة الانجيل: "دعوا الأطفال يأتون إليّ". لقد تأثّرت غالباً بأن أرى بأيّة محبّة كان الأب الأقدس يستقبل هذه المخلوقات البريئة – كجدّ حقيقيّ. لقد رأيته يرميهم بين ذراعيه، يقبّلهم، حتّى أنّه كان يخرج محرمته ليمسح جبهة ولد بلّلها العرق.

على أثر ملاحظة من Cosima – في هذا العمر ننظر كلّ شيء – ما لفت انتباهي، ذاك الصباح، هي مجموعة الهدايا التي قدّمت للبابا على أثر هذه المقابلة وبأيّ خشوع تتقبّلها حاشيته: أزهار وكتب وتماثيل ورسوم له ومغائر ميلاد ورزم رسائل الكثير من المؤمنين حيث يعهد إليه غالبيّتُهم أفراحهم وأتراحهم، ومئات منهم يطلبون صلاته، وإلى ذلك الكثير من الأطايب، هدايا كانت تنضد شيئاً فشيئاً على طاولات كبيرة جانبيّة مرتّبة لهذه الغاية. إنّ مجمل هذه الهدايا توزّع من جديد على الأعمال...

عامّةً، نهار الثلاثاء، عشيّة المقابلة العامّة لا أمين سرّه الخاصّ ولا الكاردينال أمين سرّ الدولة يأخذان مواعيد رسميّة للأب الأقدس. إنّه يوم تأمّل حتّى يتمكّن من أن يجمع أفكاره ويغوص في موضوع خطاب مقابلة الغد. بعض النفوس ومن قلب الكوريا، التي قليلاً ما تعرف المحبّة إليها سبيلاً، يهمهمون بأنّ آخرين يكتبون له خطابه. في الحقيقة، إنّ هذه الخطابات يكتبها Karol Wojtyla بالبولونيّة وتلطّفها الترجمة الايطاليّة. إنّ اختيار الموضوع صعب جدّاً ويردّده مدّة أسابيع عدّة. إنها دروس أدبيّة عالية، غالباً ما تمرّ فوق رؤوس المؤمنين الذين لا يتنبّهون لهذا الحديث إلاّ عندما يسمعونه يسمّي مجموعتهم.

هو المظهر الرمزيّ الذي يسيطر على هذه المقابلة الحارّة في الهواء الطلق. في الطقس الحسن الذي يدوم، في هذا البلد المبارك من الآلهة، من أيّار حتّى تشرين الأوّل، يعمل البابا أحياناً بلذّة واضحة. وبسرعة خفيفة يجول الأب الأقدس في ساحة مار بطرس في إحدى سيّاراته 4X4 البيضاء Fiat, Mercedes ou Toyota التي يركّز عليها نوعاً من العرش وخلفه كرسيّان جانبيّان. وعندما يكون الطقس حارّاً جدّاً يجول في Papamobile مكيفّة. في كلّ الأحوال، إنّه اليوم محميّ أكثر بكثير من الأمس. يحوطه دوماً حرّاسه، وعيونهم عشرة عشرة على الشعب. في زمن محاولة قتله، كان الحرّاس الأمنيّون غير ذوي أهميّة، والحركة الأولى التي كانت تبدر عن الحرس السويسريّ هي

أن يسجدوا باحترام عند مرور أسقف روما بدل أن يراقبوا المؤمنين. الأمر نفسه كان يجري مع البوليس الايطاليّ.

إنّ مهمّة البوليس الايطاليّ تقوم بأن يراقبوا ساحة القدّيس بطرس، وإن تكن خارج الأراضي الايطاليّة. من حيث المبدأ، لا يدخل البوليس الايطاليّ إلى البازيليك. ولكنّه مقيّد أمنياً بحراسة البابا الشيخ، ويداوم رقابته اليقظة عندما تجري مقابلة الأربعاء في الكاتدرائيّة. ولكنّه لا يحضر عندما يستقبل يوحنّا بولس الثاني في قاعة Nervi، لأنّها لا تقع على الحدود، بل في الحقيقة في قلب أراضي الكرسيّ الرسوليّ.

عند رجوعها إلى باريس، راحت Cosima تخبر أختها وتطيل عن الصباح الذي أمضته في الفاتيكان، ممّا دفع بمارينا أن تحيا الخبرة عينها. ولأنّ يوحنّا بولس الثاني كان قد دعاها، ذهبنا الاثنتان إلى روما في شهر أيلول. إنّ اللباس هذه المرة لم يكن مشكلة. لقد اتفقنا على أنّ فستاناً أبيض يليق بالمقام. لقد حفظت مارينا ابنة السابعة كلّ تفصيل من هذه البركة وتتبّعتها بانتباه كبير. الشيء الذي لم تتحسّب له مارينا عندما اقتربت من الأب الأقدس، هو انحناءته نحوها بالبساطة والثقة التي يتميّز بها وطرحه السؤال عليها بالفرنسيّة: "أتتكلمين الايطاليّة أيضاً مثل والدتك؟" وهنا، وقد اضطربت جدّاً وقبل أن يباركها، راح يسألها بلطف، وكانت ابنتي تجيب من دون إرباك مع كلّ الاحترام الواجب نحو محدّثها: "نعم أيّها الأب الأقدس، وأتكلم الانكليزيّة أيضاً". فراح عندها يوحنّا بولس الثاني يضحك وابتسم المونسنيور de Nicolo مدير الحفلة وسيّدها لمارينا محبّذاً، لأنّه كان يشعر أنّ عفويّتها تزيد هنيهةَ طراوةٍ على هذه الظاهرة الدينيّة حيث يحتشد أحبار عظام حول يوحنّا بولس الثاني.

إنّي أشعر بفرح عظيم عندما أحضر هذه المقابلة العامّة، بمعنى أنّي أعمل جهدي عندما أذهب إلى إيطاليا بأن أكون في روما نهار الأربعاء. أستطيع دوماً أن أحصل فيها على مكان ليس ببعيد عن الأب الأقدس بفضل الصداقة الصافية التي تربطني بـ Marjorie Week المسؤولة الصحافيّة في قلب المجلس الحبريّ للوسائل الاجتماعيّة، وبفضل التواطؤ الذي بيني وبينها. لقد قال لي منذ بضع سنوات رئيس l'Associated Press لأوروبا الوسطى السيّد Dennis Redmont: هل تعلمين، هذا آخر استعراض عالميّ، يجب ألاّ نضيّع هذه الفرصة عندما نكون في روما". في الحقيقة لهو كذلك.

الفصل الرابع

يوحنّا بولس الثاني خارج الأسوار

يا لسعادتي في أنّ الأب الأقدس لم يعلم أبداً إلى أيّة حيلة لجأت فاستعملت، لأعرف جيّداً مقصورته الخاصّة إبّان سفره إلى كوبا.

في ٢١ كانون الثاني ١٩٩٨، بعد ثلاث عشرة ساعة طيران، حطّت طائرة البابا في La Havane. إنّها المرّة الأولى التي فيها يذهب البابا إلى كوبا. إنّه يرغب في أن يسلّم رسالته، رسالة الرجاء والسلام، إلى هذا الشعب الذي عانى كثيراً. أكثر من ثلاثة آلاف صحافيّ أتوا إلى كوبا. وبينما هو وحاشيته ينزلون نحو رصيف المطار Jose Marti، وأمّا وقد نهض الجميع، فأفدت عندئذٍ من هذه السانحة واختبأت في مرحاض L' Airbus 300 d 'Alitalia الأماميّ. ولمّا نزل الركّاب جميعهم، تمكّنت من الدخول إلى مقصورة البابا التي تقع في مقدّمة الطائرة وسجّلت كلّ التفاصيل. لا يدخل المقصورة أيّ صحافيّ. أريد أيضاً أن أتحقّق بأنّ الممرضة الطبيب ليوحنّا بولس الثاني، الأخت Tobiana، التي لا تخرج أبداً من الفاتيكان، هي هذه المرّة استثنائيّاً على متن الطائرة.

لقد أكّدوا لي في روما بأنّ الراهبة، لشدّة تحفّظها، كانت تغادر بعد سائر الركّاب. أمّا وقد سجنت نفسي في المرحاض، فكنت أفتح الباب قليلاً لأتابع مغادرة الركّاب. خرجت لمّا فرغت الطائرة. دخلت مقصورة البابا بعد أن أزحت ستارها. وسجّلت بسرعة كلّ ما فيها.

كانت الأخت Tobiana لا تزال هنا. لم ترَني لأنّها كانت تدير لي ظهرها. من ثَمّ ذهبتُ إلى المخرج. ومن كوّة الطائرة كنت أشاهد الاستعداد البوليسيّ والعسكريّ الأخّاذ، وقد انتشر أفرادُه على مدرج المطار ليستقبلوا البابا. كان في انتظاره Fidel

الأخّاذ، وقد انتشر أفرادُه على مدرج المطار ليستقبلوا البابا. كان في انتظاره Fidel Castro والوزراء جميعهم والسلك الديلوماسيّ والأساقفة. كان من النافل أن أجعل الآخرين يلاحظون خروجي لوحدي. من ناحية أخرى، أوراقي ليست معي، لأنّ من يسافر مع البابا، تضبط له حاشيته أوراقه حتّى العودة.

فكّرت في أحسن طريقة كي أنسلّ من الطائرة إبّان عزف النشيدين الوطنيين وتبادل خطابات التأهيل التي كانت تطول وتطول. فبعد أن لملمت من المقصورة البابوية كلّ ما كنت في حاجة اليه، لأتبّل مقالتي القادمة، (أكثر من ثلاثة آلاف صحافيّ كانوا وصلوا بوسائلهم الخاصّة ليغطّوا هذا الحدث الذي لا مثيل له)، كان مزعجاً إلى حدّ أن أحوّل أنظار بضعة آلاف من المؤمنين الآتين إلى المطار ليشاهدوا المصافحة التاريخية الحارّة بين قداسته والزعيم الأعلى، وأن أحمل زملائي على التركيز عليّ، إذ يقبض البوليس عليّ وبقوّة. لقد خلّصتني الأخت anaiboT من دون أن تدري. فعندما رأيتها تنزل سلم الطائرة، قرّرت أن ألتصق بها، علّني مع فستان أسود يصل إلى نصف بطّة الساق أمرّ وكأنّي راهبة في نظر شرطة النظام. لم ترمقني الأخت Tobiana بنظرة. إنّها لا تتكلّم مع الغرباء. فالشّكر للّه، لقد حضر أحد المسؤولين من المطار ليرافقها عند نزولها من الطائرة. لم يطرح عليّ سؤالاً واحداً، وتركني أمرّ معها. طبعاً، إنّ القارئ الكريم يقدّر تصرّفي المتحفّظ. ولكنْ، لمّا كان العالم بأسره أبرشيّة Karol Wojtyla الحقّة، والطائرة بيته الثاني (كما يقول هو عينه)، فإنّ فضولي النهم قد أُترِع تماماً. زد عليه أنّ الأب الأقدس قد قضى حتّى الآن ما يقارب الخمسمئة يوم خارج الفاتيكان، أي ما يعادل السنة والأربعة أشهر.

إنّها المرّة الأولى في التاريخ يقطع فيها البابا هذا العدد من الكيلومترات: مليون ومئة ألف كيلومتر حتّى اليوم، أي ما يعادل ٢٩ مرّة دورة الأرض وثلاث مرّات المسافة التي تفصل بين الأرض والقمر. لقد قام البابا باثنتين وتسعين سفرة خارج إيطاليا، وبمئة وسبع وثلاثين داخلها.

لقد استقبل الايطاليّون البابا في زيارات قام بها باستمرار: من الجبليين الضائعين على قمم جُمُد جبال الألب وApennins، إلى صيّادي ألـAdriatique الذين رأى كلّ واحد منهم البابا. إنّ أطول سفرة قام بها سنة ١٩٨٦ كانت إلى آسيا وأوقيانيا، عندما انتقل من

إلى Bangladesh، مع توقّف في Nouvelle Zélande، ومن أوستراليا إلى Seychelles فإلى جزر Fidgi.رقم قياسيّ ٨٤٩٧٤ كيلومتراً قطعها البابا في ثلاثة عشر يوماً وستّ ساعات وخمس عشرة دقيقة. وإنّ أقصر سفرة قام بها في آب ١٩٨٢ إلى Saint Martin، وهي دولة كاثوليكيّة صغيرة، أكبر بقليل من الفاتيكان (ستون كيلومتراً مربّعاً) محصورة في إيطاليا بالقرب من Rimini. لم يقضِ فيها الأب الأقدس سوى ثلاثمئة دقيقة ليعودَ في المساء بالذات إلى روما. خلال سفراته الاثنتين والتسعين الدوليّة، منذ ١٩٧٨، زار يوحنّا بولس الثاني مئة وثلاثة وعشرين بلداً من أصل مئة وواحد وتسعين بلداً تتألّف منها الكرة الأرضيّة. ذهب ثمانياً وأربعين مرّة إلى أوروبا (إلى اثنين وثلاثين بلداً)، وإحدى عشرة مرّة إلى أميركا الوسطى وإلى جزر Antilles (إلى ستّة عشر بلداً)، وعشر مرّات إلى ثلاثة بلدان من أميركا الشماليّة، منها سبع مرّات إلى الولايات المتّحدة (البلد الذي زاره الأكثر مع وطنه الأم بولندا، وقبل فرنسا التي زارها ستّ مرات). وزار إحدى عشرة دولة في آسيا. قام بأربع زيارات لست دول في أوستراليا وأوقيانيا، وخمس عشرة زيارة لثلاث وأربعين دولة في أفريقيا. لقد ألقى أكثر من ألفي خطاب خلال رحلاته إلى الخارج. ، وسجّل رقماً قياسيّاً في خريف ١٩٧٩، حين قام بسفرته الثالثة بين إيرلندا والولايات المتّحدة، إذ ألقى ستة وسبعين خطاباً. إنّها لنتيجة تدوّخ أشجع طوّاف حول العالم. لقد التقى ما يقارب نصف مليار من كاثوليك العالم، من مالطه إلى البرازيل، ومن المكسيك (التي شهدت وأولى سفراته) إلى الفيليبين، ومن نيكاراغوا إلى غينيا الجديدة. لقد قام أيضاً بزيارة بلدان معظم سكّانها من المسلمين كتركيا، والبروتستانتيّة كالبلدان السكندنافيّة، والهندوس كالهند. يأمل Karol wojtyla، وهذا آخر تحدّياته، أن يستطيع الاحتفال يوماً بالقدّاس في الصين البلد الأكثر سكّاناً في العالم، وأن يتوقّف في روسيا ليقترب من بطريرك موسكو.

بعد أن جاب العالم، لماذا يسافر بعد، بالرّغم من أوصاب الشيخوخة؟ ما الذي يحمل بعد هذا الرجل المتألّم، ابن الثمانين سنة، على الركض؟ لقد انطبع الألم على وجهه، وقوامه انحنى. إنّه يمشي بصعوبة وهو في حاجة أن يتّكئ على عصاه الراعويّة. لماذا هذا الذي يصفه بعضهم "بالنبيّ الهرم التعب"، يواصل يفسّر حرفيّاً وصيّة المسيح "اذهبوا وعلموا كلّ الأمم"؟ بعد عقدين من السنين باهرَين، ما حمل الصحافة الأميركيّة أن تصفه بالبابا النجم، هل يتمكّن يوحنّا بولس الثاني أن يحمل شيئاً جديداً؟ ما زالت

أعجوبة حضوره تذهل الجماهير! هذا ما يبرّر أسفاره المتعبة أكثر فأكثر، والتي يواصل الزام نفسه بها. إنّ هذا البابا ليوفّر لنا تأثّراتٍ قويّةً، كما في اسرائيل منذ زمن قليل.

يقول اللاهوتيّ الألمانيّ Joseph Ratzinger، رئيس مجمع العقيدة والايمان وواحد من الكرادلة الأقرب إلى الحبر الأعظم: "إذا وجدنا يوحنا بولس الثاني على غرار القدّيس بولس لا يتعب حتى أقاصي الأرض، وإذا أراد ألاّ يضيّع أيّة مناسبة كي يبشّر بالبشارة الجديدة، ليست الغاية من ذلك الدعاية، ولا التفتيش عن الشعبيّة. هذا فقط لأنّه تلميذ يسوع".

إنّ أسفاره هي بعيدة عن أن تكون أسفار متعة له أو للّذين يرافقونه. كلّ شيء أُعدّ للاتّصال بأكبر عدد من الناس والأماكن في أقصر وقت ممكن. في حزيران ١٩٩٦ خلال سفرة قصيرة ليومين إلى ألمانيا، وكنت قد رافقته فيها، كان يتوقع ثلاث عشرة تظاهرة مختلفة تتراوح بين خدمات دينيّة للقاءات مع مؤمنين، وبين استقبالات سياسيّة ومسكونيّة. سفرات متواصلة. ان Karol wojtyla، هذا البابا المولع بالمسرح في شبابه، يعرف أهميّة الحركة. انّ التحدّث عن المغفرة شيء، وشيء آخر أن يؤخذ له فيلم في السجن على انفراد مع Ali Agca الذي كاد يقتله. هذا ما أوجد حدثاً أثّر على مخيّلة المؤمنين. عندما تؤخذ له صورة، وهو يحمل بين ذراعيه Koala، رمز أوستراليا، كما في Brisbane في تشرين الثاني سنة ١٩٨٦، فهذا يجعله ذا شعبيّة عند الأولاد. أن تورَدَ مسألة المسكونيّة، فهذا لا يثير الحماس أبداً. لكنْ، أن ترى يوحنّا بولس الثاني في أسّيز في سنة ١٩٨٦، يحيط به على المنصّة رجال دين أورثوذكس وبورتستانت ويهود، بوذيّون ورئيس هنديّ مكلّل بالريش، فهذا ما يدهش ويحمل على التفكير. خلال أسفاره يثير حماس الكاثوليك ويشجّعهم أن يحاربوا تحت راية الايمان. إنّه يتوجّه إلى الشعوب والحكّام، والأخلاقيّات تدخل في الجدل السياسيّ والدبلوماسيّ. إنّ كلّ خطاب من خطاباته تتحدّث عنه وسائل الاعلام بإفاضة، وتردّده في أربعة أقطار العالم. مثلاً كان في استطاعة الملايين من المشاهدين في كوبا، أن يروا على شاشاتهم ظهور هذه الصورة اللامعقولة، صورة Fidel Castro، الكاهن الأكبر للقدّاسات الماركسيّة، وهو ضائع في شعب يصلّي.

ذاك اليوم من كانون الثاني ١٩٩٨، كان على متن الطائرة التي تقلّ البابا إلى كوبا حاشيته العاديّة، التي ابتدأتُ أعرفها جيّداً، لمقدار ما رافقت البابا في تحرّكاته. إنّها تتألّف من الكاردينال Angelo Sodano أمين سر الدولة، ومن بضعة من الكرادلة الآخرين، (يتبدّلون حسب السفرات) ومن أساقفة ومونسينيورية، ومن رئيس راديو الفاتيكان والمسؤول عن السفرات الأب Roberto Tucci، ومن مدير الفاتيكان الأب Borgemeo، ومن مدير الرقيب الرومانيّ – الذي يدعى في الفاتيكان بالذهب – البروفسور Mario Agnes، ومن بضعة علمانيين بينهم مصوّره الخاص Arturo Mari وسبعة حرّاس سويسريين وجندرمة فاتيكانيين. إنّ أعضاء حمايته المقرّبة غدوا أكثر عدداً منذ محاولة قتله في ١٣ أيّار ١٩٨١. لا يمكن لأيّ كان الصعود إلى الطائرة عندما تحطّ في مطار؛ ويتناوب الجندرمة على حمايتها طوال توقّفها. كما يقوم حارسان سويسريّان، كلّ ليلة، بحراسة غرفة الأب الأقدس، طوال إقامته في الخارج.

على هامش هذه الحاشية الرسميّة، يصرّ يوحنّا بولس الثاني أن يكون بقربه في سفره من يدعوهم على انفراد "عائلته". بالتأكيد المونسينيور Dziwisz والمونسينور Marini المسؤول عن الحفلات الليتورجيّة الـVénitien الحارّ الفعّال والمهضوم. إنّه يوجد أينما كان وبحذر. وهو الذي ينظّم مزهوّاً كلّ القدّاسات والاحتفالات الدينيّة، وهو الذي يتأكّد من أنّ القربانات الكبيرة جدّاً قد وصلت سليمة، والتي هي بكبر بيتزا napolitaine، وتصنعها خصّيصاً بهذا الشكل راهبات من جنوب إيطاليا، حتى يستطيع الأبعد من الحجّاج رؤيتها خلال القدّاسات الكبيرة. يقف في الطائرة قريباً من الأب الأقدس خادمه الأمين Angelo Gangel. عيناه شاخصتان إليه، ويتنبّه إلى التفاصيل العمليّة (هو الذي بحوذته عصا البابا ومعطفه ومخزن السبحات التي ستوزّع على طاقم الطائرة والمضيفات، والذين يقبلونها في أكثريّتهم وهم راكعون). إنّ هذا الانسان العظيم النحيل الجسم، الذي يمشي برشاقة، والذي مع ذلك يُجهد نفسه ليعيش بخفاء، كان في خدمة يوحنّا بولس الأوّل. وقد دفعته محبّته ليوحنّا بولس الثاني إلى تعلّم قليل من البولنديّة ليفهمه عندما كان يعبّر بهذه اللغة. لقد غدا ملمّاً خير إلمام بالمعلوماتيّة، وهو الذي بحوذته حاسوب الأب الأقدس الالكترونيّ، يسجّل له مواعيده.

كلّ هذا العالم الصغير، حيث لكلّ شخص عمله المحدّد تماماً، يشعر أنّ مهمّته الرئيسيّة هي الحفاظ على حياة البابا في كلّ مكان وكلّ زمان. يا لدهشتي الكبيرة، عندما رأيت ذات يوم أحدهم يقفز نحو المضيفة في الطائرة، وكانت تعرض كأساً من الكوكاكولا على الأب الأقدس. ولمّا كان البابا غارقاً في كتاب صلاته، كان يهمّ، وبدون انتباه، لأن يشرب هذا الشراب الغازيّ الممنوع من شربه، نظراً لسرعة عطب إمعائه منذ المحاولة المشؤومة. إنّ البقيّة من حاشية البابا هي في فئة الأعمال.

في هذه السفرة العابرة الأطلنتيك نحو كوبا، كان هناك أيضاً جماعة الصحافيين "الفاتيكانيين" العاديين، وكانوا كلّهم في الدرجة السياحيّة: المراسلون الدوليّون للصحف والاذاعات والتلفزيونات، لا بل أيضاً لاقطو الصوت والمصوّرون، والمصوّرون السينمائيّون، والكهنة مراسلو أجهزة الفاتيكان. إنّهم حصيلة اختيار سرّيّ لا يرحم، لأنّ هناك طلبات عديدة تأتي من وسائل العالم الاعلاميّة. ما يلفت الانتباه، هو أنّ مساند الرأس إنّما هي مزيّنة بشعار البابا. يقيم البابا دوماً في المقصورة التي هي قبل الدرجة الأولى. يجلس بعده أمين سرّه الخاصّ المونسينيور Dziwisz ورئيس حكومته الكاردنيال Sodano. مبدئيّاً يفصلنا عنه وعن حاشيته الستار التقليديّ (الذي يبقى في أغلب الأحيان مفتوحاً إبّان السفرات القصيرة؛ وهذه رغبة الأب الأقدس). إنّ فوج المضيفين والمضيفات ليبدو التأثّر على محيّاهم، بأن يكون على متن طائرتهم خليفة بطرس الرابع والستون بعد المئتين. في وقت إقلاع الطائرة، تبقى إحدى المضيفات جالسة قبالة ركّاب الدرجة الأولى. لهذا، تحرص الشركة على أن تكون ظريفة. في الطائرة إلى كوبا، رأيت مضيفة تحمل إلى الأب الأقدس وجبة خفيفة كما دوماً على أجنحة أليطاليا: جومبون de Parme، بطّيخ، هبرة عجل، أجبان متنوّعة (غالباً ما تحمل أسماء قدّيسين مثلاً Le saint nectaire. على أجنحة Air France هناك أيضاً Caprice des Dieux) كاتو. قيل لي: لا راهبات البتّة في Air France. هل هي مزحة؟) تفّاح إجاص بالفرن، سلطة فواكه وخبزات صغيرة بالزيت (نوع من الفطائر). نزولاً عند طلبه، قدّمت لنا لائحة الطعام عينها. لم تتردّد Alitalia بأن تقدّم châteauneuf-du-Pape، التي يقطعها الأب الأقدس كعادته بالماء قبل أن يأخذ كاسة كبيرة من نقع قشرة الليمون الحامض Le Canarino، شاي الفلاّحين الـnapolitains، ما يعطي يوحنّا بولس الثاني القوّة ليقوم بمؤتمر صحافيّ على علو ألفي متر فوق الأطلنتيك. لقد جاب الأب الأقدس

الطائرة بخطى صغيرة، واستند إلى الخزانة التي تفصل الدرجة السياحيّة عن درجة الأعمال وباركنا. غبطة حادة سادت، لأنّ المتكلّم المتطلّب Joaquin Navarro - Valls لا يراقبنا (كان قد سبقنا إلى La Havane محاولاً إقناع المسؤولين عن تلفزيون الدولة أن يبثّوا مباشرة نزول الأب الأقدس من الطائرة والقدّاس الذي سيقيمه). وقد ارتحنا أيضاً من حضور مساعده ذي الوجه العابس Le Flamamd Vic الذي كان قد كسر رجله. لقد تأثّرنا شديد التأثر بأنّ البابا اقترب منّا. هنا، ولمرّة واحدة، لا يمكنه أن يتخلّص منّا. إنّ بطريرك الغرب لهو على أقلّ من مترين منّا. يده اليسرى ترتجف، وهذه أعراض الـParkinson الذي يعيق كلّ حركة من حركاته؛ إنّما وجهه مشرق. الـRonletabille القديمو الصنعة، وبعضهم يصعد لأوّل مرّة إلى طائرة البابا، قد بلبلتهم الهالة الغريبة التي تصدر عنه. لا أحد يحلم بأن يطرح عليه أسئلة معقّدة كالتي تطرح على شخصيّة سياسيّة عظيمة، حتّى ولا الاميركيّون المعتادون على المحادثات المباشرة والذين ينقصهم التهذيب تجاه الشخصيّات. وإذا ماعرضنا عليه أمراً وباحترام، فالبابا يجيبنا بدقّة ومرح وبدون مواربة. إنّه يعبّر على التتابع بالاسبانيّة والانكليزيّة والايطاليّة. ففي هذا المؤتمر الصحفيّ الحارّ والمرتجل، إنتقل البابا وبسهولة مذهلة من لغة إلى أخرى. إنّ هذه السهولة اللغويّة، التي ليست من عادة الكثيرين من رؤساء الدول، خدعت أكثر من واحد مدّة اثنتين وعشرين سنة. ولمّا كان أنّ أحداً لم يطرح عليه أسئلة بالفرنسيّة، كنت لها. ولمّا كنت واحدة من ثلاث صحافيّات في الطائرة مع مراسلة التلفزيون الأميركيّ اللاتينيّ ومراسلة New York Times، ترك لي الزملاء اللطيفون المكان الأوّل. تجاسرت وطرحت عليه هذا السؤال، وأنا واقفة، وقد استولى عليّ الخجل: "كيف حالك، أيّها الأب الأقدس؟"

أجابني، وهو يغمض عينيه مع قليل من الارتياح وقليل من الرصانة، وبابتسامة: "إنّي أتسقّط أخباري من الصحف".

بعد أن قضى يوحنّا بولس الثاني ما يزيد على نصف ساعة معنا، باركنا من جديد وعاد إلى مقدّم الطائرة. لقد بقي طويلاً معنا، في رفقتنا، ممّا حمل هذا الكاردينال ذا القبّعة الحمراء أو ذاك أن يمدّ رأسه بسيماء مخيّبة، ويتأوّه بأسىً، وهو على يقين تامّ بأنّنا نقول الكثير في البابا ونكتب القليل فيهم في مقالاتنا، هم الذين بسحناتهم الناشفة

يتصدّقون علينا بنتفٍ من الأخبار ودوماً. وهو يسير ببطء، توجّه البابا نحو مقصورة قيادة الطائرة. بارك طاقم القيادة. ثمّ، وهو مسند يديه الطويلتين على كتفي قائد طاقم لطائرة AZ 4668 (شرف قيادة طائرة البابا يمنح دوماً لرئيس قادة طيران Alitalia) سأله: "كم الساعة الآن في Cuba؟ ويخبر الطيّار، فيما بعد، أنّه خُيّل له يرى ملاكاً ظهر عليه، عندما انعكس خيال البابا الأبيض فجأة في زجاج مقعد ربّان الطائرة.

على خلاف ما ما يظنّ بعضهم، فإنّ الكرسيّ الرسوليّ لا يملك أسطولاً جويّاً، بينما أصغر رئيس، في أصغر دولة، له عامّةً طائرةً عابرة للمحيط، ويأتي على رأس وفد يتسوّق من معارض Bourget أو Farnborough. يستأجر الكرسيّ الرسوليّ طائرة من الشركة الوطنيّة الايطاليّة Alitalia لكلّ سفرة. والطائرة معدّة لتلبّي حاجات المسافر الشهير. وتضع Alitalia بتصرّفه وحسب مدّة سفره، إمّا طائرة ٣٠٠، وإمّا طائرة McDonnell Douglas 80 (هذه الشركة اشترتها Boeing منذ ثلاث سنوات) للسفرات القصيرة. طبعاً، إنّ قيمة الايجار رمزيّة. تقدّم شرك Alitalia عادة، فاتورة بكلّ استئجار للكرسيّ الرسوليّ، ولكنْ، في آخر السنة، تعيد هذه الشركة السخيّة بشيك المبلغ الذي يكون الكرسيّ الرسوليّ قد دفعه. في الحقيقة، إنّ لفي هذا طريقة شكر للدعاية غير المعقولة التي توفّرها لها سفرات الأب الأقدس. أن يشاهد الملايين الانسان ذا اللباس الأبيض، وأن يروه ينزل من على سلّم طائرة Alitalia (مع علم الفاتيكان الأصفر والأبيض الملصق على واجهة الطيّارة السميكة في مقدّمة مقصورة قيادة الطائرة)، إنّ لفي ذلك دعاية تحسد عليها، في زمن تفجُّر الاحتكارات في أوروبا.

لا شيء يجمع بين الطائرات الموضوعة في تصرّف الأب الأقدس مع Air Force one الـBoeing 747 التي تخصّ رئيس الولايات المتحدة والتي هي حقّاً بيت أبيض طائر يحوي على: غرفة نوم، بيت خلاء، قاعة محاضرات، حمّام، مطبخين، مكتبين، زاوية مستشفى، مكتب أمناء السرّ، ستّة بيوت خلاء و٨٤ تلفوناً. إنّ الاوضاع التي يسافر فيها يوحنا بولس الثاني هي في منتهى البساطة. وكما يقول الأب Tucci المنظّم الجدير والحاذق للسفرات: "لو أنّ الأمر لا يتعلّق إلاّ بيوحنّا بولس الثاني، لكان يسافر بطريقة أشدّ اتّضاعاً".

يجهّز مقصورة البابا نخبةٌ من عمّال Alitalia (هم هم دوماً). يفكّكون كليّاً فسحة الدرجة الأولى، ليضعوا مكانها مكتب الأب الأقدس وسريره الصغيرين.

الحرامات وغطاء السرير والشراشف البيضاء المنسوجة من الصوف والقطن الممتاز، صُنعت خصّيصاً للبابا. إنّها ذات قياس معيّن، وقلّما تتجعّد. لقد طرّز عليها شعار يوحنّا بولس الثاني بخيوط ملزوزة وموشّاه بالذّهب. وقد وُضع السرير ذو الظهر الجلديّ المائل إلى الصّفرة بالقرب من كوى الطائرة. على يمين السرير ستارة غامقة الزرقة، علّق عليها صليب كبير من الخشب والبرونز. هذه الستارة تغطّي الحاجز دون طاقم الطائرة. في القسم الثاني جُهّز صالون – مكتب مشدود من قماش أرجوانيّ، حيث وضع كرسيّ ضيّق وقاسٍ نوعاً مغطّى بقماش من جلد الماعز، لونه باج شفّاف وأزرق سماويّ. وعلى الشمال، طاولة فسيحة مكسوّة بغطاء أبيض، حيث رُتّبت بعض الصحف والمجلّات الدوليّة وسن بينها طبعاً الصحافة البولونيّة. ولم تَخَفِ الحاشية يومذاك أن تضع بينها صحيفة L'Express التي كانت صورة البابا تزيّن غلافها، وقد حملت هذا العنوان: "هل على يوحنّا بولس الثاني أن يذهب؟" قبالة الطّاولة – المكتب يوجد بنك ذو مسند صغير يسمح باستقبال أربعة أشخاص. على حجرة الطيّار من الخارج، وعلى مقربة من السلّم يرى بوضوح شعار البابا وعلم البلد الذي سيزوره الأب الأقدس.

هل سيقتني الكرسيّ الرسوليّ طائرة خاصّة به ذات يوم؟ حتّى انتخاب Karol Wojtyla لم تطرح المسألة قَطّ، ذاك أنّ تنقّلات الأحبار العظام كانت نادرة. ما كانوا يسافرون أبداً ليحملوا البشارة الجديدة عبر العالم. والبابا الأوّل، عبر تاريخ البابويّة كلّه الذي اعتمد الطيّارة، إنّما كان بولس السادس، وذلك في كانون الثاني ١٩٦٤.

لأوّل مرّة في التاريخ المعاصر، حدث لم يسبق له مثيل في الواقع. لم يكتفِ أسقف روما، الذي دامت حبريّته ١٥ سنة، بأن يتكلّم ويكتب ويسدي النصائح في قعر خلوته، وهو في السادسة والسبعين من عمره. محى من الأذهان صورة البابا القاسية الدهريّة، إذ حمل عصا الحاجّ، وخرج من الفاتيكان ذي الـ٤٤ هكتاراً، ليتعرّف مباشرة على خرافه. في الحقيقة، إنّ تنقّلات بولس السادس التسعة الكبيرة عبر القارّات الخمس، كانت سفرات بروتوكوليّة رسميّة أقلّ منها سفرات راعويّة. في كلّ الأحوال، إنّ هذه

الاتصالات، وإنْ رسميّة ثقيلة، قد فتحت الطريق ودشّنت عصراً بابويّاً جديداً. إنّها مرحلة اجتيزت. بالاضافة إلى ذلك، فإنّ بولس السادس قام بعمل نبويّ، عندما اختار رمزيّاً أورشليم كهدف لسفرته الأولى، وذلك في كانون الثاني ١٩٦٤. اعتُبِر الحدث مهمّاً جدّاً، إذ عنونت الصحف صفحاتها الأولى بما يأتي: "لقد كتب الانجيل الخامس في عهد بولس السادس". وخصّصت Paris Match عددين خاصّين للحدث، حتّى أنّها أرسلت إلى أورشليم ٦٠ صحافيّاً، من بينهم ٢٥ مصوّراً، سافروا من باريس إلى أورشليم، ثمّ إلى باريس، على متن طائرة Caravelle، تحوّلت إلى غرفة تحرير متّصلة بواسطة الراديو بادارة المجلّة القائمة في Orly.

إنّ عودة خليفة بطرس إلى الأرض المقدّسة، كانت الحبّة التي أثمرت بعد ستّ وثلاثين سنة مع يوحنّا بولس الثاني. لقد ذهب بولس السادس أيضاً إلى Bombay، وإلى الأمم المتّحدة في New York (في ١٩٦٥)، وإلى Fatima (في ١٩٦٧)، وإلى اسطنبول (في ١٩٦٧) وإلى بوغوتا (في ١٩٦٨)، وإلى جينيف (في١٩٦٩)، وإلى Kampala (في أوغاندا ١٩٦٩). وفي تشرين الثاني وكانون الأوّل من سنة ١٩٧٠ إلى آسيا في رحلة متعبة من عشرة أيّام شملت Teheran, Dacca, Manille, Samoa, Sydney, Djakarta, Honkong, Seylan. إنّها لَمجازفة شجاعة لهذا البابا الاصلاحيّ، مجازفة كادت تنتهي قبل أن تبدأ. فما أن حطّت الطائرة في Manille، حتّى انقضّ عليه رجل متخفٍّ بلباس كاهن وطعنه بخنجر في اتّجاه القلب. نجا بأعجوبة مع جراحات في يده اليسرى. لم يلحظ الجمهور شيئاً، لأنّه كان يرتدي صدرة من صوف، امتصّ نسيجها السميك الدم، فلم ترشح بقع على الغنباز الأبيض.

لقد كانت سفرة العشرة أيّام، من خمسين ألف كيلومتر، سفرة مظفّرة. فإلى الحماس الذي استُقبل به بولس السادس، كان هناك أحياناً اعتراضٌ بسيط ضدّ الكنيسة الكاثوليكيّة المحليّة أو ضدّ المسكونيّة. يجب الاقرار بأنّ رؤية حبر أعظم غير خارج من النفتلين، بل رؤيته باللحم والعظم، لا على السدّة، بل في مكان آخر، إنّما كانت ثورة في العمق. إنّ أعداد المستمعين التي لا تحصى (مليون au Rizal Park de Manille) ستبقى بالنسبة لبولس السادس التذكارات الكبيرة والأخيرة. كان هذا سفره الأخير خارج إيطاليا. لقد وُجّهت إليه الانتقادات، كما وُجّهت أحياناً إلى يوحنّا بولس الثاني، الذي حملت استعراضاتُه الضخمة الكاثوليكَ التقليديين على أن يصرّوا أسنانهم.

كانوا يشبّهون، من دون مجاملة، بولس السادس "بعاصفة صيفيّة أقلّ خصباً من مطر الخريف الناعم الذي ينفذ إلى قلب الأرض". كانوا ينتقدون خطابات أسفاره، ويأخذون عليها بأنّها ترداديّة، ويعتقدون أيضاً بأنّ البابا حيث يذهب كان متكلّماً أكثر منه سامعاً. وخلال السنوات الثماني التي بقيت له في هذه الحياة، كان بولس السادس يلتقي الشخصيّات الكبيرة فقط في الفاتيكان، لأنّه كان قد أصيب بداء المفاصل الذي أعاق سيره أكثر فأكثر.

قبل بولس السادس، افتتح يوحنّا الثالث والعشرون هو أيضاً سابقة تاريخيّة. ففي ٤ تشرين الأوّل ١٩٦٢ خرج من الفاتيكان واستقلّ القطار متوجّهاً إلى Notre Dame de Lorette، شفيعة الطيّارين، وهو معبد يقع بالقرب من Ancône. ومعبد Lorette هو الأشهر بين أماكن الحجّ الايطاليّة منذ ٧٠٠ سنة. فالبيت المقدّس وصورة العذراء فيه هما غاية الحجّاج العديدين. فبيت العذراء في الناصرة نقله الصليبيّون إلى Colli del Lauri، بُنيت فوقه، في القرن الخامس عشر، بازيليك كقلعة تحميه. إنّها السفرة الأولى في التاريخ. لقد تجاسر بابا، وكان أكمل الواحدة والثمانين من عمره، أن يركب القطار ويقطع مسافة ستمئة وخمسين كيلومتراً خارج الأسوار. فعلى طول المسيرة، كانت تنتظره جموع غفيرة آنذاك وأحياناً منذ الصباح الباكر، لأنّهم كانوا يريدون أن يروا أخيراً بابا خارج مملكته. كان المؤمنون يلوّحون برايات، كان في الإمكان قراءة ما كتب عليها: "يعيش البابا" "ليعش السلام"! "ليحيَ بابا المَجمع". وفي Lorette استقبل البابا Roncalli الطيّب آلافٌ من الأشخاص. لقد احتشدوا في المحطّة ليشاهدوه نازلاً من القطار يا للغرابة! قطار تحوّل، بمقطوراته التسع، إلى صالونات ومكتب ومائدة للطعام وغرف للنوم؛ وقد وضعه بتصرّفه رئيس جمهوريّة إيطاليّا، ذلك أنّ سلطات الكرسيّ الرسوليّ لم يدُرْ في خلدها أنّ في استطاعة بابا الخروج من الفاتيكان جائباً البلاد. لقد استقبل رئيس البلاد Antonio Segni البابا يوحنّا الثالث والعشرين بكلّ حفاوة لدى وصوله، وكان سبقه بالطائرة. كيف يمكنه أن يتصرّف غير ذلك، وكان أعار قطاره إلى البابا؟ بعد أن ألقى البابا خطابه، وضع على رأس عذراء Lorette السوداء تاجاً مذهّباً (كان نابوليون استولى عليه في ١٧٩٧ واستُرِدَّ عام ١٨٠١). بعد ذلك تناول يوحنّا الثالث والعشرون وجبة بسيطة جدّاً، كانت راهبات دير مجاور أعددنها له. وفي غرفة مجاورة، حلّ رئيس المجلس الايطاليّ Amintore Fanfani ضيفاً عزيزاً على بضعة كرادلة ورؤساء أساقفة

عظام. إنّ قائمة طعامهم هم كانت وافرة. بعد الطعام، انتقل الحبر الأعظم إلى أسّيز. وكان قد غادر الفاتيكان اثنتي عشرة ساعة قبل ذاك. هنا سار على قدميه بضع خطوات في الشوارع الضيّقة ليصل إلى الكاتدرائيّة، قبل أن يخشع أمام قبر القدّيس فرنسيس. وما أن حلّ الظلام حتّى أضيئت آلاف من قناديل الزيت، للتمكّن من رؤية هذا الرجل القديس التعب يصل إلى القطار الذي سيعيده إلى الفاتيكان، بعد هذا النهار المشهود. لقد استقبل رئيس الوزراء يوحنّا الثالث والعشرين من جديد بحفاوة في المحطّة الرومانيّة de Trastevere. ويعود أخيراً إلى الأجنحة البابويّة.

غادر الحبر الأعظم مرّتين قصره الحبريّ: مرّةً استقلّ سيّارة Mercedes 300 سوداء (من الجانبين على الأبواب شعار البابا من البرونز، وهو كناية عن زهرتين من الزنبق يحيق بهما برج من الفضّة وأسد القدّيس مرقس) ليزور ديراً وميتماً في San Vito Romano: قرية صغيرة في Albains تبعد ثلاثين كيلومتراً عن Castel Gandolfo، ثمّ ليصلي في معبد Gennazzano المريميّ. ومرّةً ثانية ذهب إلى مقرّ مدرسة Roccantica الاكليريكيّة الرومانيّة الصيفيّ في الجبال، والذي يبعد سبعين كيلومتراً عن روما. كانت هذه التنقّلات المتواضعة تبدو ثوريّة في ذاك الوقت. عملاً بالاتفاقات التي أُبرمت في ١٩٢٩ مع الحكومة الايطاليّة، كان البابا بيّوس الحادي عشر والبابا بيّوس الثاني عشر يغادران أحياناً الفاتيكان فقط ليذهبا إلى روما، أو إلى Castel Gandolfo مقرّ البابويّة الصيفيّ. إنّا لنتضايق في أيّامنا أن نتصوّر أنّ هذا كان يحدث منذ نصف قرن تقريباً.

من يموّل هذه الأسفار التي هي ولا شكّ، ذات تكاليف باهظة؟ في الفاتيكان، لا يُقْرَبُ من مسائل المال بارتياح. ومن الصعب أنْ تعرف كيف تقدّر هذه المصاريف. على ما يبدو، إنّ أسفار يوحنّا بولس الثاني، وإن كانت موضوع احتفال بروتوكوليّ كامل، هي منظّمة بطريقة أقلّ بساطة من أسفار رئيس جمهوريّة فرنسا السابق ووزرائه، الذين كانوا يصطحبون معهم حاشية حقّة في كلّ من تنقّلاتهم. ففي يوم ربيعيّ من سنة ١٩٨٩، كان يوحنّا بولس الثاني قد أتّى إلى Saint Denis de la Reunion ليحتفل بتطويب الأخ Scubilion، وهو مرسل أصله من Morvan. وأتى، في الوقت عينه، على متن طائرة الكونكورد ليستقبله رئيسُ وزراء فرنسا برفقة موكب فخم من الوزراء والمساعدين المختلفين (بعد أن أفاد من رحلة صيد سريعة في Kenya)، ما بدت معه سفرة البابا

وحاشيته متواضعة جداً. وقتئذٍ أعار رئيس الوزراء طائرته الكونكورد، بكلّ محبّة، إلى البابا ليذهب إلى Zambie التي تبعد ثلاثة آلاف كيلومتر من Morvan (وهي الطائرة التي تحطّمت في Roissy إحدى عشرة سنة بعد ذلك).

لقد بلغت كلفة سفر الأب الأقدس إلى الولايات المتحدة في سنة ١٩٨٧ عشرين مليون دولار، غطّاها بعض الصناعيين والأبرشيّات وشركة Silicon Valley للحاسبات الالكترونيّة.

وحسب وسائل الاعلام، بلغت كلفة سفر البابا مرّة ثانية إلى نيويورك، في تشرين الأوّل من سنة ١٩٧٩، ثلاثةَ ملايين دولار، غطّتها الحكومة والكنيسة المحليّة الغنيّة؛ وهذا ما ألمح إليه أحد الصحافيين ذاكراً أمام البابا ما تكلّف هذه الرحلات. ومرّة من المرّات طار صواب يوحنّا بولس الثاني، فقال: "أظنّ أنّه لا ينبغي أن نعمل حسابات، إذا ما علمنا نحن البشر بأنّا قد افتدينا بثمن لا يقدّر. ليس هناك مصاريف تقدّر في هذا السبيل. إنّها الغباوة. يُلمَّح إلى المصاريف في محاولة لإيقاف البابا. يقال إنّه يكلّف أكثر بكثير من ملكة إنكلترا، يا للغبطة! إنّه يحمل رسالة ذات قيمة سامية".

لقد أعلن الحبر الأعظم أنّ على تنقّلاته ألاّ تقيم وزناً لأيّة محاولة. ثمّ إنّ سفير الله هو بعيد عن كلّ المشاكل الاقتصاديّة والماديّة والواقعيّة التي تحرّك حاشيته. إنّ له الفلسفة نفسَها التي كانت لديغول، والذي كان يقول بلهجة رصينة: "القيّم يتبع".

أمّا قصّة Papamobile فشرح لي عنها الأب Tucci بعد الرجوع من كوبا، حيث دعاني ذات يوم إلى الدرجة السياحيّة، "إنّ الامر لا يتعلّق في الحقيقة بحاجة إضافيّة إلى حمّام جماهيريّ كما يظن بعضهم، بل تلبية رغبة شعبيّة بملامسة مادّية مع الحبر الأعظم. والـPapamobile، النوع من الترجمة المعاصرة لمحمل البابا، ليست اكتشافاً فاتيكانيّاً، بل سيّارة مصفّحة تطلّبتها السلطات المحليّة". من ناحية ثانية، وفضلاً عن منظرها كآليّة غريبة، فإنّ هذه 4X4 التي رُكّب عليها قفص من الزجاج المضادّ للرصاص ليس فيها شيء من الفخفخة ولا العظمة. والحماية التي توفرّها ليست مطلقة، لأنّ البابا هو مضطرّ أن يتخلّى عنها عندما يحتفل بقدّاساته في الهواء الطلق. إنّ هذه الآليّة، التي تشبه سيّارة الاطفائيين، مدهونة بالأبيض، وهي أبعد ما تكون عن العربة الشاعريّة المزهّرة التي تجرّها أحصنة مرشّحة لهذا الدور منذ أيّام البابوات في Avignon. أين هي

الغرابة بأن يجول يوحنّا بولس الثاني بسيّارة مصفّحة، وهو الانسان الأشهر على سطح الأرض، والذي اتّخذت له صور أكثر من أيّ شخص آخر وذلك منذ اثنتين وعشرين سنة، ونجح في أن يجمع، في كانون الثاني ١٩٩٥ في الفيليبين، أربعة ملايين شخص في قدّاس واحد على أرض Rizal Park de Manille. إنّها قسمة كلّ رجل دولة. وأيّة صورة تعسة يعطيها البابا في ساعة العولمة هذه، لو أنّه، على مثال بولس السادس، في جزر Samoa، الأرخبيل الضائع في الباسيفيك، كان يتجوّل في شاحنة قديمة مدهونة بسرعة ومزيّنة بالشرائط. على كلّ حال، وأثناء تنقّلات الأب الأقدس، لم يتردّد ولا رئيس دولة أن يركب Papamobile، عندما يُدعى ليصعد إليها ويجلس بقرب البابا، فيكتفي بأن ينعم بشعبيّة الحبر الأعظم عرضاً. في كل الأحوال، إنّها حسابات خاطئة، لأنّه، مهما كان شهيراً، فإنّما سيكسفه الأب الأقدس.

قبل كلّ رحلة يأتي سائقان من البلد المقصود إلى روما، ليتمرّنا على قيادة العربة الثقيلة جدّاً والصعبة القياد. عندما وصلت الـpapamobile من روما إلى باريس (هديّة من الرئيس شيراك)، أجريت عليها عدّة تجارب ليلاً في قصر الإليزيه للتثبّت من إمكانيّة قيادتها.

لقد كان في إمكان البولنديين أن يوفّروا عليهم كثيراً، لو انّهم تحاشوا إرسال papamobile إلى الكسر، وكانوا قد قدّموها له أثناء زيارته الأولى سنة ١٩٧٩. إنّهم لم يفكّروا بأنّه سيرجع ستّ مرّات إلى وطنه الأمّ، فأُجبروا على أن يصنعوا له أخرى، ما كلّفهم ثمانين ألف دولار.

في النهاية، انّ رحلات يوحنّا بولس الثاني لا تكلّف الكرسيّ الرسوليّ الشيء الكثير، وهذا ما تؤكّده حاشيته. إنّ شركة Alitalia تأتي في المقدَّمة. ومن ثمّ ما من شركة طيران تجاسرت على أن تطلب منه ثمن تذكرة سفره، مع أنّها تصدر دوماً باسمه. وغالباً ما يفيد معاونوه المباشرون من سخاء الشركات، التي تشعر بالشهرة التي توفّرها الرحلات البابويّة. تقتضي القاعدة بأن يسافر الحبر الأعظم دوماً على متن طائرة من طائرات Alitalia، وأن يؤوب إلى روما على متن طائرة شركة آخر بلد يكون قد زاره. إنّ رأس الكنيسة وحاشيته ينزلون في مقرّ السفارة البابويّة، وفي المراكز الأسقفيّة، وفي

مقرّات تملكها الكنيسة المحلّيّة أو عند راهبات. عندما أتى، في أيلول ١٩٩٦ إلى Tours، نزل في دير راهبات دومينيكان المحبّة. لقد كان في الأمر مجال اعتزاز لهنّ.

إنّ تنقّلات الحرس ومعاوني رأس الكنيسة، الكنسيين والعلمانيين، ومعاوني ممثّلي راديو الفاتيكان والـOsservatore Romano ليست باهظة التكاليف، لأنّهم نادراً ما يتعدّون الثلاثين شخصاً. بالمقابل، يدفع الصحافيّون تذكرة رحلاتهم التي تساوي عادة قيمة تذكرة درجة أعمال. إنّها لا تشكّل شيئاً، إذا ما قورنت ب١٢٠٠٠ دولار، كحدٍّ أوسط، والتي يطلبها البيت الأبيض من الصحافيين الذين يرافقون كلينتون في رحلاته إلى الخارج.

إنّ المصاريف الباهظة هي على عاتق البلدان التي يزورها البابا، وهو ضيفها الرسميّ. فالبابا أمير الرسل ورأس الدولة (إنّه يحمل الاسمين)، هو مدعوّ من سلطات البلد الذي يزوره الدينيّة أو العلمانيّة. وقد أظهر استطلاع حديث أنّ أكبر الأوقات سعادة بالنسبة إلى الناس في بعض الدول ذات الغالبيّة الكاثوليكيّة كالبرازيل مثلاً، إنّما هو الذهاب إلى القدّاس وأخذ الفرص. لهذا تعلن هذه الدول يوم مجيء البابا "يوم فرصة بابويّة مميّز". وتهتمّ الكنيسة المحليّة من جهتها بتنظيم الاحتفالات والمهرجانات الدينيّة، طارحة الصوت على المتطوّعين وعلى القادرين مادّياً. توجّه الطلبات إلى المؤمنين بإلحاح أثناء القدّاسات أو بالبريد الالكترونيّ أو بواسطة وسائل الاعلام. مبدئيّاً، ليس البابا بحاجة إلى أن يمسّ حسابه المخصّص للأعمال الدينيّة (مصرفه)، ليصرفه في رحلاته الراعويّة. إنّما عندما يذهب إلى بلدان فقيرة جدّاً، هو يوزّع مبالغ كبيرة للفقراء والأطفال والشيوخ والمرضى. لا أحد يعلم أبداً قيمة هذا المبلغ. علاوةً على ذلك، فإنّ غالبيّة الهدايا العديدة التي يقدّمها للكنائس المحليّة وللأعمال لا تضطرّه أن يفتح صرّته. إنّه يأخذها في غالب الأحيان من مخزونات أهرائه التي لا تنضب، حيث تتكدّس الهدايا التي يتقبّلها من العالم أجمع، أو من الهدايا التي تُقدّم إليه بمناسبة رحلات أخرى. أتذكّرُ أنّه في أيلول ١٩٩٦، ونحن عائدون من Reims إلى روما في الطائرة البابويّة Air France، إنّما كنّا محشورين جدّاً، لأنّ مقاعد عديدة كانت قد نزعت من أماكنها لتوضع محلّها صناديق من الشامبانيا قُدّمت هدايا للبابا. لقد كانت هناك مباراة غريبة بين أصحاب مؤسّسات الشامبانيا. تزاد عليها كلّ الهدايا (لوحات من

الصفد– وأشياء أخرى دينيّة) أغرقوه بها لمدّة أربعة أيّام من Saint-Anne d'Auray إلى Reims.

عندما تُحضَر لآخرين هدايا من التي قُدّمت له، يوصي الأب الأقدس كلّ مرّة Angelo أن ينتزع بطاقة المُهدي، (حتّى يتفادى ما حصل لكلّ واحد منّا، أقلّه مرّة، أن نعطي هديّة عيد وقد أهملنا أن ننتزع بطاقة المهدي). في كلّ زمان قبلت الكنيسة هدايا قيّمة. في الماضي، قُدّمت لها قصور وجواهر نادرة وتيجان (منها تاج قدّمه نابوليون)، ودبابيس زينة من ذهب وزمرّد قدّمتها البيرو للبابا لاوون الثالث عشر، وتمثّل الأرض يحملها ملائكة، وكاسات مرصّعة بالجواهر... لقد ألغى بولس السادس لبس التاج الذي اعتبر بأنّه ثقيل جدّاً وعادة قديمة. ومنذئذٍ، هذه التيجان المثلّثة الطوابق وغيرها من التحف الثمينة، هي معروضة في خزانات سكرستية الكابيلاّ السيكستينيّة، ما عدا تاجه الخاصّ به والذي هو كناية عن قذيفة مزيّنة بالنقوش كان قد قدّمها له Les Milanais، والذي كان يراه قبيح المنظر. لقد عرضه للبيع لصالح فقراء الهند. يقبل الكرسيّ الرسوليّ اليوم سيّارات وهدايا أخرى قيّمة. إنّ هذا التقليد يعود إلى الملوك المجوس. أثناء مكوث البابا في الخارج يتزاحم صناعيّون أغنياء ليموّلوا هذا القسم أو ذاك من الرحلة، كما حدث إبّان الأيّام العالميّة للشبيبة في آب ١٩٩٧ في باريس، حيث لعب دور السامريّ الصالح ستّون مؤسّسة. لقد شكّلت هذه المساهمات ما يوازي بضع عشرات من ملايين الفرنكات الفرنسيّة. في طليعة الواهبين تأتي كوكا كولا وجماعة Axa بواسطة فرعها المشهور والمدعو Mutuelle Saint Christophe، وNestlé، وAuchan، وAir France، وApple، وFrance Galop التي قدّمت ميدان سباق الخيل في Longchamp بفضل الملكيّة المشتركة شارع Barbet-de-terry بين الكاردينال Lustiger وJean-Luc Lagardère، وRenault... التي قدّم رئيسها البروتستانتيّ Louis Schweitzer عدّة سيّارات Safrane للأساقفة. ولمّا كانت هذه هي الرحلة الثانية إلى فرنسا في أقلّ من اثني عشر شهراً، نقصت الأموال العامّة. لقد استقبله جاك شيراك على دفعات عديدة بصفته عمدة باريس ورئيس وزراء ورئيس جمهوريّة، وما كان باستطاعته أن يعمل أكثر في وقت التعايش هذا مع اليسار والعلمنة المناضلة، سوى أن يستقبله كرئيس دولة في قصر الاليزة حين وصوله. إنّ الهدايا الأكثر غزارة نسبيّاً هي في البلدان الفقيرة، لا في أوروبا؟ من حلى محليّة وتقدمات بسيطة كمحاصيل الأرض مثلاً. كلّ واحد يساهم قدر استطاعته.

بعد وضع سيّارتي Papamobile قيد السير، لأنّه يجب أن يكون هناك دوماً سيّارة ثانية احتياطيّة (يوجد في العالم عشرات من السيّارات صُنِعَت إبّان زيارته، وتحتفظ بها الأسقفيّات المحليّة كذكر وبكلّ تقوى)، يجب أن يُجرى عليهما الكشف. كما يجب التثبّت بأنّ أغراض البابا أضحت كلّها في الطائرة: الحقائب الخمسون المخصّصة للسفر والتي تحتوي على هدايا وأيقونات ومسابح وصور تقويّة، ومئات من نسخ خطابات البابا بلغات متعدّدة، وثيابه التي منها أقلّه دزينة من الغنابيز البيضاء، والحقيبة — الكابيلا التي فيها الأشياء الليتورجيّة، وطاولة تُطوى (لكي يتسنّى لاثنين من زملائنا الفاتيكانيين: الأب de l'Osservatore Romano Gianfranco Grieco والأب جوزف Vandrisse من جمعيّة الآباء البيض المرسلين، وهو مراسل دائم للـFigaro لدى الكرسيّ الرسوليّ، أن يحتفلا بالقدّاس في الفندق لمن يشاء من الصحافيين).

وأيضاً، يجب التنبّه ألاّ يترك على الأرض كلّ العتاد التقنيّ لبثّ راديو الفاتيكان، وآلات التسجيل، وسائر طاولات إعداد المناظر أو عتاد الCTV وتلفزيون الفاتيكان. إنّ هذين يبثّان برامجهما على موجات قصيرة، أو بواسطة قمر صناعيّ إلى أربعة أقطار العالم (إنّ أجهزة الكرسيّ الرسوليّ الثلاثة: CTV وراديو الفاتيكان والـOsservatore Roman تنقل وتشرح كلّ عمل من أعمال البابا وكلّ حركة من حركاته للخير العام). وإنّه لقيّم أيضاً العتاد الموضوع في تصرّف الصحافيين: فاكس، برنامج مفصّل، كتيّبات تحوي معلومات تطبيقيّة، خطابات البابا، والميكروات لمداخلات محتملة للأب الأقدس وأعضاء الكوريا.

بطبيعة الحال، إنّ الجوهريّ هو فيما يتعلّق بصحّة يوحنّا بولس الثاني، لأنّه لا يقبل أبداً أن يتناول طعام الغداء أو العشاء رسميّاً، مفضّلاً أن يبقى مع خاصّته ليأخذ قسطاً من الراحة ويرتاح من أتعاب النهار. لهذا، تشحن له صناديق من المياه المعدنيّة الطبيعيّة من Toscane Uliveto والشاي المفضّل عنده — في روما يشرب البابا de la San Paolo — . والجليلة الفائدة هي قوارير الأوكسيجين وجيوب الدم من فئة (أ) سلبيّة، وهي فئة نادرة. طوال إقامة الأب الأقدس في الخارج، يؤمّن هوائي طبّي على عجل اتّصالاً دائماً مع أرفع مستشفيين في المكان الذي يتواجد فيه، واللتان ترسل إليهما عنه قبل وصوله ملفّان طبّيان سرّيان. وحيثما يكون يلازمه كظلّه طبيباه العاديّان الدكتور Buzzonetti

وطبيب القلب المنعش الدكتور Polista، وتلاحقه سيّارتا إسعاف. وعلى رصيف مطارات كلّ بلد هناك طائرة طبيّة متأهّبة دوماً لتقلع في بضع دقائق.

إنّ الأب Tucci، ابن السابعة والسبعين سنة، منظّم رحلات البابا، هو يسوعيّ لاهوتيّ، نصفه إنكليزيّ ونصفه الآخر إيطاليّ، وهو الوحيد تقريباً الذي يرتدي في الفاتيكان الـClergymen مع طوق رومانيّ. إنّه دوماً على مقربة من يوحنّا بولس الثاني (هل الصدفة هي التي تلعب دوراً، أم إنّ الأمر يتعمّده الممثّل المسرحيّ القديم، وقد تلقّى دروساً في هذا الفن؟ على ما يظهر، فإنّ الأب الأقدس يتمتّع بحسٍّ مسرحيّ فطريّ، ويحيط ذاته دائماً بجمهرة من المساعدين الوقورين). في كلّ تنقّلاته ينظر Roberto Tucci خلسة إلى ساعته، لأنّه سبق وبرمج كلّ شيء دقيقة بدقيقة.

إنّ سمّاعته هي على اتصال دائم بمدير الأمن العام المحليّ. وهكذا، يمكنه، في كلّ برهة، أن يغيّر وجهة سير البابا في حال وجود ظروف مباغتة. يتمتّع هذا الانسان المثقّف النابه جدّاً، والذي كان مديراً للمجلة اليسوعيّة المشهورة النصف شهريّة Civilata Cattolica بصفات مدير سيرك. لا شيء يخيفه. ولا يتردّد أمام أيّ قرار. في سنة ١٩٨٨، أعطى موافقته لقبطان طائرة البابا المتّجهة نحو Botswana وقد داهمته عاصفة، أن يحطّ حالاً في جوهانسبورغ المطار الأقرب، مع أنّ البابا كان قد قرّر أن يتحاشى أفريقيا الجنوبيّة بسبب التمييز العنصريّ. هو Tucci الذي يتحقّق من أنّ المضادات للانزلاق، قد وُضِعت بطريقة جيّدة في الأماكن المناسبة، وأنّ السلّم البسيط والثمين في آن، الذي يسمح للبابا بأن يصعد بسهولة إلى Papamobile لم يُنسَ، وأيضاً لم يُنسَ الترس الضخم الذي يحمل شعار الفاتيكان، الذي يوضع على يمين المذبح أثناء القدّاسات الكبيرة الاحتفاليّة، أو السهم الأبيض والأصفر الذي يجب أن يركّب في أسفار الحبر الأعظم كلّها. وهكذا، أثناء الطيران، إذا ما تبدّلَتِ التفاصيل تبقى الخطّة والتنظيم بشكل ظاهر هي هي.

من المؤكّد، أنّ إخفاقات يمكن أن تحدث، بنوع خاصّ بسبب بطء في التنقّلات وخلل في التوقيت يعود عامّة إلى تداخل شرطة النظام بعضها ببعض. وما لاحظته، ولعدّة مرّات، أنّ في مثل هذه الحالات، يخرج البابا سبحته ويصلّيها كصوفيّ يعيش خارج الاضطراب المحيط به.

عندما تنتهي الرحلة يمكننا أن نشعر أيّ ارتياح يبدو عند حاشية البابا؛ هو ارتياح يضاهي القلق الذي عاشوه منذ أيّام حول صحة الأب الأقدس وسلامته.

إنّ هذه التنقّلات التي تنظّم بدقّة منذ اثنتين وعشرين سنة، تبدو، بالنظر إليها من الخارج، أنّها ليست أكثر تعقيداً من سفرات Club Méditérranée. إنّها لخدعة كبيرة ففي الحقيقة، إنّ كلّ شيء يبدأ بالتحرّك قبل نهاية السفرة القادمة بزمان. إنّ كلّ رسالة تشكّل موضوع ملفّ ضخم، يمكن أن تقتضي تهيئته أحياناً سنة ونصف السنة من العمل.

بادئ ذي بدء، إنّ الدعوات الوحيدة التي يحجزها أسقف روما والتي هي شرط لا مفرّ من تلبيتها، إنّما هي دعوات السلطات الحكوميّة. فالمهمّة الأولى لأسفاره ليست التفتيش عن الحوار والاستماع لمشاكل الكنائس المحليّة. هذا إنّما هو يقوم به في مناسبات أخرى، وفي أوّل الأمر في روما أثناء الزيارات الدوريّة Ad limina Apostolorum (التي معناها "زيارة إلى قبر الرسل" وبكلام آخر زيارة إلى روما) التي يقوم بها أساقفة بلدان العالم المختلفة: كلّ خمس سنوات للأوروبيين، وكلّ عشر سنوات للآخرين، مقدّمين له الاحترام ومطلعينه على أوضاع كنائسهم. عندما يذهب إلى الخارج، إنّما لكي يقدّم "خطّه". أينما كان يشدّد على ضرورة الحفاظ على النظام والخضوع لروما. إنّه يريد أن يجدّد تعبئة العالم الكاثوليكيّ الذي هو فريسة أزمة عميقة حيث الكنائس قد هجّرت، والدّعوات قلّت. ويريد أن يطلق مسكونيّةً جديدة، حيث من شأن الكنيسة أن تلعب دوراً ريادياً. إذاً يجب رصّ الصفوف. إنّه غالباً ما يذكّر بهذا: "إن الحاجة لبشارة جديدة تقتضي في بادئ الأمر ضرورة الوحدة". إنّ هذه الأهداف الواضحة وضوح الشمس، وهذه المقتضيات، تستدعي توضيحات دقيقة صالحة لتحاشي التفسيرات السياسيّة ومراعاة الحساسيّات.

يبدأ البابا بتنظيم غداء عمل ليستكمل برنامج زيارته المقبلة. دوماً يتناول البابا وجبة الطعام هذه إلى مائدته الخاصّة، في الطابق الثالث من القصر الرسوليّ. يحيط بالبابا الكاردينال Sodano رئيس حكومته، والمونسينور Toran وزير خارجيّته، والمونسينيور Sandri أمين سرّه، والمونسينيور Dziwisz المسؤول عن القطاع اللغويّ في البلد المقصود، والأساقفة والأحبار المعنيّون بهذه الزيارة، وأخيراً الأب Tucci الذي لا يُستغنى عنه، والذي بدونه لا يتمّ الاتّفاق على شيء هو الذي يذهب ككشّاف إلى

البلدان المعنيّة، ليقابل الشخصيّات الدينيّة والمدنيّة ويحدّد البرنامج نهائيّاً. إنّها المهمّة التحضيريّة. إنّ تطابق الساعات هو صعب في غالب الأحيان، ولو أنّ الأب Tucci ينفّذ بدقّة توجيهات الأب الأقدس الذي يضع قائمة بالأماكن التي يتمسّك بزيارتها والاحتفالات التي سيقيمها. هذا يشكّل موضوع تخطيط مكتوب ودقيق لأدقّ تفاصيل كلّ مرحلة. لقد حصل الأب Tucci لرحلتي البابا إلى فرنسا في أيلول سنة ١٩٩٦ وفي آب ١٩٩٧، على كلّ التسهيلات من جمهوريّة علمانيّة، بفضل تدخّل المدير Landrieu رئيس غرفة شيراك. ما يجمع بينهما هو أنّهما يلفّان سيكاراتهما بالورق البيبليّ نفسه. فاليسوعيّ يذهب مرّة ثانية إلى الأماكن المختارة: مهمّته هي مهمّة "السابق". وهذه المرّة ضمن الشروط التي يضعها الحبر الأعظم، بمعنى أنّه يقيم توقيتاً تامّاً يبلغ حدّ التحقّق من قواعد التشريفات في مطار Léonardo de Vinci في روما. عادةً ودوماً في الساعة الثامنة عينها، إذ يخرج البابا من الباب C16 على سجّادة حمراء، يفصله حاجز معدنيّ عاديّ عن سائر المسافرين. يرافقه دوماً بعض الأحبار السامين، أمثال: الكاردينال Eduardo Martinez Somalo، وعميد مجمع الكرادلة الكاردينال Bernardin Gantin، ونائب أبرشيّة روما الكاردينال Camillo Ruini. هؤلاء الأشخاص يقون على أرض المطار، ومعهم أيضاً مرشد المطار الأب Pierre Riches. لقد تغيّرت الحالة عمّا كانت قبلاً، فلا وجود لرئيس الجمهوريّة الايطاليّة ولا لرئيس الوزارة وشخصيّات أخرى من السلطة التنفيذيّة الايطاليّة، ذلك أنّ البابا يتحرّك كثيراً.

بعد عودته من رحلته الثانية المخصّصة للدرس والتنظيم، يقدّم الأب Tucci أيضاً، وهو يسوعيّ صالح، مذكّرة دقيقة حول أفكار الأحزاب السياسيّة والدينيّة في البلد الذي سيزوره، وحول أفكار رجال الدين فيه (يسكن الأب Tucci في روما في دير للآباء اليسوعيين). قبل أن يغادر يتلقّن البابا مبادئ اللّغة المحلّيّة وعلم الأصوات الذي لها. إنّه يتلقّنها بسرعة، لأنّ من يتحدّث عدداً من اللّغات الصعبة تسهل عليه هذه الأشياء. فالبابا يهتمّ بالجانب الليتورجيّ وبمضمون مداخلاته، ويستفهم بانتظام عن ترتيب الرحلة المقبلة. انّه يؤلف بذاته القسم الأكبر من نصوص خطاباته، سيّما عندما يريد أن يوضح فكرته حول موضوع جوهريّ. إنّه يكرّس له الوقت اللازم. إنّ هذا التحدّي الثقافيّ يهمّه أكثر من أيّ شيء آخر. فيما يخصّ النصوص الأقلّ أهميّة، فإنّه يستعين باختصاصيين. إنّه لا يجعل من هذا سرّاً من أسرار الدولة، وإنْ يكن هذا النوعُ من الاقرار

يثير حفيظة مسؤولي L'Osservatore Romano الملقّب بطريقة خداعيّة "صديق الحقيقة"، وقد غدا معلّماً في فنّ التسميم منذ أزمنة قديمة.

في هذه السنين الأخيرة، يؤلّف الأب الأقدس خطاباته وعظاته ويمليها باللّغة البولنديّة، ومن ثمّ تتمّ ترجمتها إلى الايطاليّة وإلى لغات أخرى، وأحياناً إلى الفرنسيّة التي ما زالت مبدئيّاً اللغة الدبلوماسيّة. حتّى اليوم حافظ يوحنّا بولس الثاني وبيده المرتجفة على خطّه العريض الواضح والثابت من دون تشطيب ولا تردّد. إنّ كلّ صفحة مكتوبة من عشرين أو اثنين وعشرين سطراً تسبقها هذه الرموز "AMGD" لمجد الله الأعظم". عندما يتعلّق الأمر بنصوص كتبها آخرون، يقرأها يوحنّا بولس الثاني ويعيد قراءتها بانتباه. إنّه، حسب المقرّبين منه، لَمتساهل عندما لا يتوصّل إلى متابعة فكرة المؤلّف. إنّه يكتفي عندها بعلامات استفهام في الهامش بقلم حبر أزرق. وبينما كان بولس السادس يكثر من التعليقات والتساؤلات، فإنّ يوحنّا بولس الثاني جازمٌ أبداً. عندما يكون هناك جملة لا توافقه، يكتفي بأن يعلّق بخطّه الثابت والمنتظم متسائلاً: "هل أنت متأكّد أنّ هذه الجملة تفرض ذاتها؟". أحياناً يعيد النصوص لتؤلَّف من جديد أو إنّه يصحّحها عدّة مرّات قبل أن يقبل النصّ النهائيّ ويدفعه للترجمة. بمناسبة سفره إلى سلوفانيا في أيّار ١٩٩٦، أُرسل نصّ البابا إلى Ljubljana مباشرة وقبل تصحيحه إلى أمانة سرّ أساقفة سلوفانيا. في غضون ذلك، لاحظ الكاردينال Angelo Sodano أنّ الخطاب المذكور يشتمل على نصّ يعلن الدعوة القادمة إلى انعقاد مجمع جديد لأوروبا، بينما الأساقفة الرئيسيّون المعنيّون لم ينبّهوا بعد. لقد فات الأوان والحادث لا يمكن استدراكه... إنّ هذا النوع من الخطأ هو نادر في هذا العالم الذي يغلّفه الصمتُ ودقائقُ الأمور.

إنّ الخطابات التي تسلّم عامّة للصحافة قبل أن يلقيها البابا، الأمر الذي يسمح بمتابعتها وتحليلها والتعليق عليها ومن ثمّ تسجيل ما يكون قد ارتجله (لا يتعد الآن واقعيّاً عن النص الذي بين يديه) يكتب عليها "يرفع الحظر عنها الساعة...". لا يخطر على بال أيّ صحافّي أن يخالف هذه القاعدة الذهبيّة، وإلاّ يمنع منعاً باتاً من الصعود إلى طائرة البابا.

عندما يسافر صحافيّ مع البابا، عليه أن يعطي قبل عدّة أسابيع لائحة بما يحمل في حقائبه، ولائحة بثيابه أيضاً. يأخذون منك جواز سفرك، ولا يعاد إليك إلاّ عند هبوط الطائرة لدى العودة إلى روما. فلا يمكن مثلاً الالتحاق بسفرٍ في الطريق. على الصحافيّ أن يذهب مع البابا ويعود معه. إبّان هذه الأوقات المميّزة، تصادر منك أوراقك الثبوتيّة، وتزيّن صدرك شارات الكرسيّ الرسوليّ. إنّك رهينة الفاتيكان برضاك!

يسافر مصوّر يوحنّا بولس الثانيّ دوماً معه. إنّه موظّف في L'Osservatore Romano منذ ١٩٥٥. لقد عمل مع خمسة بابوات. إنّه يقبض أجره من الفاتيكان مثل الآخرين. يقول: "ليست المسألة مسألة مال، أشتغل لأنّي أؤمن بالبابا وبما يعمله". يقول أيضاً: "أشكر الله على عملي". بفضله أُخذ ما يقارب المليوني صورة للأب الأقدس، وهي تشكّل رأس مال ضخماً من الأرشيف التصويريّ، بعضه لا يزال سرّياً، وعلى سبيل المثال صور اللقاء مع Lech Walesa في حزيران ١٩٨٣ في Les Carpates والتي قدّمت له وكالة بدلاً لها نصف مليون من الدولارات. إنّه يستنفد في كلّ حجّ بين ستمئة وسبعمئة فيلم. هذه الصور الملوّنة تباعُ بثلاثين فرنكاً ٢٤ – ٣٦ في قسم التصوير التابع لL'Osservatore Romano، باب Santa Anna، والذي يزوِّد أيضاً الاشخاصَ كما الصحفَ والمجلاتِ (طبعاً مع تعرفة مغايرة)، ما يقطع الطريق على كبرى الوكالات التصويريّة العالميّة. يُقال إنّ اتفاقاً قائماً مع السماء بأنّ قسماً مِن مَنٍّ سماويّ يذهب إلى بولونيا كي يتسنّى لعدد من سلافٍ أتقياء فقراء، أن يأتوا أقلّه مرّة في حياتهم إلى روما ليروا Karol Wojtyla فالبولنديّون مغرمون بهذا الحجّ إلى روما. وفي تمّوز الماضي من السنة اليوبيليّة قام بهذا السفر ٣٥٠٠٠، إمّا بالباص وإمّا على درّاجة وحتّى سيراً على الأقدام. لقد شوهد في ساحة القدّيس بطرس رئيس مجلس الشيوخ ورئيس الجمعيّة السياسيّة، ورئيس الوزراء ورئيس الجمهوريّة، يحيط بهم كرادلتهم يصفّقون ليوحنّا بولس الثاني.

وإنْ يكنْ راعي الكنيسة الجامعة ينظر نحو المستقبل، وإنْ لم يكن إنساناً يقلّب ألبومَ صور أو يُمْسِكُ مفكّرات أسفار، فهو يخضع دوماً لعدسة المصوّر بمهارة حقّة، تعطي انطباعاً بأنّ في الامر تواطؤاً حقيقيّاً أو علاقة شخصيّة.

"أريد أن ألتقيَهُمْ جميعَهُمْ. إنّي أريد أن ألتقي الذين يصلّون وحيث يصلّون. أريد أن ألتقي البدويّ في الصحراء، والراهبة الكرمليّة والراهب الـCistercien في ديرهما،

والمريض على فراش آلامه، والانسان النشيط في حياته اليوميّة. إنّي أبغي أن أتخطّى عتبة كلّ بيت"، هذا ما بيّنه رئيس أساقفة Cracovie أيّاماً قلائل بعد انتخابه. إنّه لَتصرُّفٌ وإنّها لروحٌ رسوليّة وحماسٌ في الحركة لم يتخلّ يوحنّا بولس عنها، بالرّغم من العمر والمرض.

قبل أن تحطّ الطائرة، يعلن رئيس قيادة طائرة الشركة الوطنيّة للبلد الذي زاره، على مكبّر الصوت، وبكلّ احترام، أنّه يتمنّى للبابا ولنا عودة ميمونة على طائرته. وبعد أن يكون عبّر له باسمه وباسم جميع أفراد الطاقم عن الشرف الذي يشعرون به، بأن يكون معهم على الطائرة، يُنهي عامّةً قائلاً: "لأوّل مرّة أضعُ هذه الرحلة بين يديّ الربّ بواسطة سفيره الأقرب على الأرض". الجميع يصفّقون بحماس وبنوع خاصّ الأساقفة والدبلوماسيّون المحلّيّون الذين حصلوا للمرّة الوحيدة في حياتهم على هذا الإنعام، بأن يسافروا في الطائرة البابويّة وأن يروا البابا عن قرب. ثمّ يصرخون "يعيش البابا". أمّا أنا القلقة والعصبيّة، فعيناي نحو أسقف روما ناسية تقريباً بأنّي لا أحبّ الطائرة البتّة. ولكنْ، أنّى لي أن أشعر بأقلّ خوف سيّما وأنّي تحت أسمى الحمايات. حمايته.

الفصل الخامس

عجائب في اسرائيل على خطى المسيح

إنّها الساعة الحادية عشرة من نهار الجمعة ٢٥ آذار ٢٠٠٠، في كوزريم، أحد الأماكن السامية عند المسيحيين، التلّة المقدّسة حيث ألقى يسوعُ عظة الجبل يرافقه الاثنا عشر رسولاً. كان المطر قد توقّف. وعلى طريق موحِلَةٍ، وسط عشرات الآلاف من المؤمنين الذين تتعالى تراتيلُهُم نحو جبل التطويبات، تتقدّم Papamobile، المرسلة خصّيصاً من روما، ببطء كمركب ينسابُ على المياه. على متنها، يقف يوحنّا بولس الثاني منتصباً. كتفاه الضخمتان هما بالكاد محدودبتان. يحاول أن يبتسم، بالرّغم من تصلّب وجهه، لهذا المدّ والجزر البشريّ الذي يزحمه. كلّما كان يقترب من المذبح الفسيح المنصوب في هذا الموقع البيبليّ، كان وجهه يضيء. كما في كلّ مرّة، إنّ حماس الجمهور يبعث فيه النشاط. تلطّفَ الجوّ. البابا يشعّ وسط مئات من الكهنة. أسمعُ ورائي الناسَ يتكلّمون كلّ اللغات، لأنّ عدداً محترماً من الحجّاج أتوا من القارّاتِ الخمس بعد أيّامٍ طويلة من السفر. هناك أساقفةٌ وكرادلةٌ، في عدادهم المواهبيّ رئيسُ أساقفة فيِنيا، Christoph Schönborn، النمساويّ المجريّ الأرستقراطيّ، المتعدّدُ اللغات، القريبُ جدّاً من البابا، ومن منذ بضع سنوات ألقى عليه مواعظَ الصوم، الذي يمارسُ خدمته في النمسا. في قلب المجمع المقدّس، يسرّ بعضهم لبعض أنّه ربّما يكون خليفة يوحنّا بولس الثاني. ولقد رأيتُ أيضاً مجموعاتٍ من الكهنة الشيوخ الآتين من قلب الأمازون يرقصون فرحاً في أماكنهم. كان هناك أيضاً لبنانيّون وفلسطنيّون وشباب أكثريّتُهم نصبوا خيامهم في بساتين الزيتون المجاورة. وكان هناك خمسة وأربعون ألفاً من "الطريق الجديد"، بينهم تسعمئة متحمّس فرنسيّ اكتشف بعضهم طريق الكنيسة من

جديد. كلّهم أنشدوا "تُعظّم نفسي"، مُتبعينها بـJohn Paul II we love you. الموقع مزدان بالأعلامِ الاسرائيليّة، وبأعلام الفاتيكان الصفراء والبيضاء، وبرايات بلدان مختلفة يطلق أبناؤها صرخاتِ الحفاوة. ويوحنّا بولس الثاني، الذي يبدو مُنشّطاً بهذه الجماهير الغفيرة، قد توصّل، وهو يلقي عظته، أن يعبّر بهدوءٍ طبعاً، ولكنْ بصوت واضح يقطعه صدىً له وقعُه ويتردّد حتّى بحيرة طبريّه. لقد قوطع خطابُه بالتصفيق، وأخيراً بصرخاتٍ مدوّية.

يبدو لي وكأنّ الوقت قد توقّف منذ ألفي سنة، واسم طبريّة يطنّ في رأسي بقدْرِ ما هو مرتبطٌ بصورِ التعليم المسيحيّ الذي أُعطيتُه في صغري. أنا في الجليل، حيثُ في الماضي القديم اجترح يسوع أعجوبة تكثير السّمك والخبز. أنا هنا على بعد بضعة أمتار من نائب المسيح. أنا هنا مغمورة بجوٍّ من التّقوى. عيناي مغرورقتان بالدموع. بصعوبة سجلّتُ بعض الأشياء. إنّ هذا القدّاس على جبل التطوبيات لَهو الوقتُ الأشدّ إيثاراً من هذا الاسبوع. كي أحضره، اضطررتُ أن أغادر اورشليم في نصفِ الليل من اليوم الذي سبق، نظراً للترتيبات الأمنيّة التي كانت تحاصر المدينة في هذه الساعة المتأخّرة. لقد أسَرَّ إليّ أحد المسؤولين عنه Mathan Rotenberg حالاً، بعد أن تأكّد من أنّ أمن القدّاس الكبير مستتبٌّ: "إنّ هذا البابا لهو انسان غريب. إنّ الطريقةَ التي ينتقلُ بها من لغة إلى أخرى، واطلاقَ رسالةِ سلامٍ وتعاضدٍ إنّما هو بالنّسبة إلينا شيء مهمّ جدّاً... إنّي أعيش خبرةً فريدةً". إنّ المهمّة التي أوكلت إلى Rotenberg لهي شاسعةٌ إذا ما حكمنا على ذلك من خلال مهمّة النظام المدهش، والكيلومترات من الحواجز، والتوقيفات المتعدّدة، والحواجز والتصفيات التي مررت بها.

في هذه المنطقةِ الموسومةِ بالعناية الالهيّة، أنجز يوحنّا بولس الثاني شيئاً كأنّه الأعجوبة. فبينما كانت تُمطر في تل أبيب، وعلى هضبة الجولان وبحيرة طبريّة، نَعِمَ موقعُ كورزيم، وهذه علامةٌ الهيّة، بانفراجٍ، وحتّى بشعاعٍ من الشمس مدّة ساعتين ونصف الساعة، الزمنِ اللازمِ للاحتفال. وهناك علامةٌ ثانية، وهي الحزمُ الذي نجح الأب الأقدس في أن يُظهِرَهُ، مستمدّاً إيّاه من الوسائل السرّية التي يعملُ المتصوّفون الكبار على أن يجدوها في ذواتهم. هذا من دون أن ننسى البروتوكول الجديد من العناية، التي أعطته القوّة الطبيعيّة كي يجبهَ هذا البرنامج الطموح. نادراً ما رأينا البابا

يركع وينحني بتواتر مثلما رأيناه يفعل أثناء هذه الرحلة إلى اسرائيل، حيثُ بالرّغم من الصعوبات التي تعوقه دون أن يستقيم، رأينا طيفه الأبيض يقبّل أرضَ مغارة البشارة. لكي يبلغَ إليها، اضطرّ أن ينزلَ مشياً، مستنداً على عصاه وممسكاً بالدرابزون بيده اليمنى. وكما دائماً معه، فمن الصعب أن تراعيَ القوّة التي يستمدّها من وسائِله البشريّة وسموٍّ ايمانه. في برنامجه: زيارة مخيّم الدهيشة للّاجئين الفلسطينيين؛ القدّاس على القبر المقدّس حيث يدخل القبّة التي تحمي قبر المسيح، فيقبّل الحجرَ ويغوصُ في الصلاةِ وحيداً وجهاً لوجه مع ذكرى موت المسيح، حالماً بأورشليم من السلام؛ المسيرة المؤلمة إلى Yad Vachem ؛ النصب التذكاريّ Shoah حيث على مقربة منه الشعلة المتّقدة دوماً، وبقربه صديق طفولته اليهوديّ Jerzy Kluger. لقد تذكّر وأهدى التحيّة لستّة يهود أحياء من معسكرات الـShoah من بينهم Edith Terzier ابنة السبع والتسعين سنة، التي اضطربت إذ تذكّرت أنّ كاهناً شابّاً قد قدّم لها خبزاً وشاياً عند خروجها من معسكر Skarzysko Kamienna، وحملها على ظهره مسافة ثلاثة كيلومترات ليوصلها إلى المحطة. كان يدعى Karol Wojtyla. أخيراً هناك صورة ستبقى ماثلة في الذاكرات كلّها، وبعيداً جدّاً عن حدود اسرائيل، ألا وهي هذه الحركةُ الرمزيّةُ التي قام بها البابا أمام حائط المبكى، عندما تقدّم وأدخل بين الحجارة المَغُرَةِ والتي تعود إلى آلاف السنين، حجارةِ الحائط الاشهر في العالم، رسالةَ توبةٍ عن كلّ الآلام التي تكبّدها الشعب اليهوديّ. الرسالة معنونةٌ بعنوانِ الفاتيكان، وممهورة باللاتينيّة بخاتم الأب الأقدس. قبل أن يُدخِلَها في الحجر المقدّس ويباركها، تمتم على مهل مضمونَها بصمت خاشع يسمح بسماع فرقعة ومضات آلة تصوير Arturo Mari على عشرة أمتار منه. إنّها لَصورٌ يتفطّر لها القلب ومدهشة، مرّت أمام ناظريّ كفيلم يُعرضُ لي شخصيّاً.

بفضل تواطئي الحديث مع رؤساء البوليس الاسرائيليّ، الذين التقيتهم عشيّة البارحة في فندق الملك داود، راح الحظُّ يحالفني دوماً بأن أجدَني في المحور الأحمر للبابا، أي مع المقرّبين جدّاً منه وعلى بضع خطوات من محيط الاحتفالات الاستراتيجيّ. وهكذا تمكّنت من أن أتتبّع، مدّة أسبوع كامل، يوحنّا بولس الثاني، وهو يجوب هذه الأرض، في جوٍّ معتدلٍ يناسب تماماً حالته الصحيّة، ويحيق به عشرون ألف بوليس وألف جنديّ. يصوّب الجنود رشّاشاتهم الأوتوماتيكيّة نحو أهدافها، وتحلّق طائرات الهليكوبتر فوق المدينة على مستوى منخفض، وتزعق صفّارات سيّارات الاسعاف

تتبعهم عربة كاشفة للألغام غريبة، تثير الفضول، وتخشى أن تنفجر في وجهك. هذا ما أقلق السوّاح، وهم غير معتادين على هذا النوع من القمع البوليسيّ، وأغاظ أبناء المدينة شديد الغيظ، الذين كما لو أنّ النعمة قد مستّهم، تحمّلوا كلّ شيء بتسامح وعدم اكتراث بما فيه الزحمات الخانقة في الشوارع الضيّقة. وحدهم سائقو التاكسي، عندما يصطادون زبوناً، لا بل صحافيّةً ساذجةً مثلي – كان في المدينة ثلاثة آلاف من الصحافيين– كانوا يتدبّرون أمرهم في أن يتجاوزوا، ثمّ يضاعفون الأجرة على العدّاد بحجّةٍ غامضة يعبّرون عنها بالعبريّة. لقد أبدى البابا أسفه بحزن، كما أسرّ بذلك للأب Tucci في سكرستيّة Korazine الآنيّة بعد القدّاس مباشرة، "بأن يحاطَ بحزام أمنيّ"، ما حرمه أن يختلط بالجماهير التي تُحيي حماسه، الأمر الذي يحبّه شديد الحبّ.

على هامش الاحتفالات الرسميّة التي يحضرها، محليّاً ومباشرةً، الآلافُ من الحجّاج، وصل الكثيرون منهم بطائراتهم الخاصّة، فكان على المنظّمين الفاتيكانيين والاسرائيليين الذين يرأسهم محليّاً قائد البوليس القديم، أن يجدوا حلولاً للعديدِ من المشاكلِ وفي آخرِ دقيقة. لم تكن مهمّتهم سهلة البتّة، لأنّهم في الوقت نفسه قلقون على صحّةِ رجلٍ لم يعرفوه حتّى الآن إلاّ عبر الصورِ المؤلمة التي يبثّها التلفزيون، ورجل لا يقدّرون صموده المذهل كما يجب. لهذا قد جنّبوه المشيَ والوقوف بقدر الامكان، واضعين دوماً، وبطريقة خفيّة، تحت قدميه، اسكملة صغيرة، سواء وهو ينزل من الهيليكوبتر أو من الـPapamobile أو من الـ٤X٤ المصفّحة. لقد فضّلوا أن يقودَ سيّارته سائقُه الايطاليّ Orlando Santinelli المعتاد على قيادة موقّعة، والذي وصل قبل بضعة أيّام ليكتشف الطريق ويجنّبه، قدْرَ الامكان، الخضّاتِ، ولا سيّما على طرقات غير معبّدة. لقد ظهرت مهارتهم عندما كان عليهم أن يجبهوا العديد من المفاجآت: بعضها بسيط كأن يحاولوا بشكل ما أن يعود ليصلّي على القبر المقدّس في يوم مغادرته، وبعضها الآخر معقّد... وفي الواقع، إنّ أصغر صعوبة تتعلّق بيوحنّا بولس الثاني تغدو سريعاً لا تُذَلّل، لأنّ المنظّمين ينفعلون ويغدون شبه معاقين أمام عظمة الرجل، ويخافون أن يأخذوا مبادرات. ومع هذا، فإنّهم حسناً فعلوا بأن قدّموا ساعة زيارته إلى مخيّم اللاّجئين في القدس الشرقية المملوء بآلات التصوير الخفيّة. إنّه لالهام رائع أوعَزَتْ به دائرة الاستخبارات الاسرائيليّة، لأنّه كان في الإمكان أن يكون هذا النقل مروِّعاً للبابا، إذ ما كاد يترك المخيّم حتّى بدأ الفلسطينيّون برمي الحجارة. فقد اختبر رئيس الوزراء

الفرنسيّ Lionel Jospin ذلك حديثاً. يا للسعادة بأن يرافق البابا دوماً طبيبُه الخاصّ الدكتور Renato Buzzonetti، الذي يحرص دوماً بان يجلبَ معه بين عدّته الكبيرة للحالات الطارئة جيوب الدم الثمينة وكلّ الأدوية الضروريّة لمريضه العظيم. لقد قدّم الاسرائيليّون للبابا، احترازيّاً، سترة ضدّ الرصاص خفيفة جدّاً ومرنة جدّاً. ولكنْ، إيماناً منه بالقضاء والقدر أكثر منه غنجاً، امتنع عن لبسها وبعناد. لقد ضخّمت تلفزيوناتُ الخليج الفارسيّ، متحيّنةً الفرص، رميَ الحجارة هذا في زمن الحجّ إلى مكّة. لقد توقّفت أقنيتها عن بثّ برامجها لتنشرَ بأنّه كان هناك محاولة اعتداء على حياة رأس الكنيسة الكاثوليكيّة الأعلى. في الساعة الحادية عشرة والخمسين دقيقة، وقت قدّاس البابا في ساحةِ كنيسةِ المهدِ في بيت لحم، ظننتني أسمع المؤذّن يدعو المسلمين من مئذنه الجامع القريب للقيام بصلاة من صلوات النهار الخمس التي يأمر بها القرآن. ولمّا كنت لا أفهم العربيّة فكّرت طبعاً أنّي على خطأ. ولكنّ الأمر كان صحيحاً، حتّى أنّ الأب الأقدس، وبكثير من الهدوء، اضطرّ أن يوقف قدّاسه ولبضع دقائق. إنّه لحادث صغير بين أخرى أُفلت من نقابة المصوّرين ولم تصوّره الـCTV قناة الكرسيّ الرسوليّ. ولكنْ، كانت هناك اوقاتٌ مضحكة، كما في الناصرة، عندما أتى رجل إلى البابا بكلّ فخر وقدّم قرميدةً على أنّها من بيت ابراهيم، فكان أن أجابه البابا على التوّ مبتسماً: "وأنا كنت أؤمن أنّ ابراهيم كان يعيش تحت الخيمة!". وأيضاً عندما خيّم الخوف والاضطراب في الساعة الأخيرة التي تسبق يوم السبت، إذ اضطرّ البوليس أن يبدّل وبسرعة لون الهيليكوبتر Sirkeski Black Hawk من لون زيتونيّ أخضر – لون الجيش، إلى لون أزرق بحريّ – لون البوليس. في الواقع إنّه ممنوع شكليّاً على طيران الجيش أن يطير طوال يوم السبت.

أثناء هذه النهارات الطويلة والمنهكة، كان المونسينيور Dziwisz والكاردينال Angelo Sodano والمونسينور Marini، الحبر المسؤول عن الاحتفالات الليتورجيّة، الذي إذا ما نظرت إليه ألفيته كممثّل أميركيّ، وخادمه اللطيف Angelo Gugel و Camillo cibin المفتّش العام في بوليس الفاتيكان، وطبيباه ودركيّوه الثلاثة، كلّهم، أي حاشية Karol Wojtyla المباشرة، كانوا جميعهم أنظارهم مسمّرة عليه. لقد زار عشرة مواقع، وأقام خمسة قدّاسات، وألقى ما يوازيها من عظات وخطابات باللاتينيّة والانكليزيّة، وتلفّظ ببعض جمل بالعبريّة والعربيّة، وقام بمقابلات رسميّة مع عبدالله الثاني عاهل المملكة

الأردنيّة، وياسر عرفات، والرئيس الاسرائيليّ Ezer Weizman ورئيس الوزراء Ehud Barak. وفي كلّ هذا لم يدّخر راعي الكنيسة الجامعة قواه. إنّ كلّ خطوة من خطواته هي ألمٌ جسديّ واضحٌ، تجعل من تنقّلاته مراحل درب الصليب. أقلّه، إنّ صعوبة التعبير أحياناً بصوت ثابت، وطريقة تحرّكه بخطى وئيدة متردّدة هي التي أعطت لرسالته، رسالة السلام، قوّة أكثر حيويّة. إنّ معاونيه الأقرب الذين يرافقونه منذ إحدى وعشرين سنة في كلّ زمن سفراته، رتّبوا حياته اليوميّة من دون معرفة منه، بمعنى ألّا يزيدوا من شدّة عناء هذا العدّاء التعب. وعند المساء، يرجع يوحنّا بولس الثاني إلى السفارة البابويّة في القدس الشرقيّة، التي هي كناية عن بناء أحمر قاتم ظريف وغارق في الخضرة. وفي الصالون الصغير الذي يتّصل بغرفته سيراميكٌ على الحائط يعود إلى زمن بولس السادس. إنّه يذكّر بالعناق التاريخيّ بين هذا البابا وأتيناغوراس بطريرك القسطنطينيّة. هنا يستطيع البابا أخيراً أن يرتاح مستسلماً للصلاة، وأن يتناول طعاماً بسيطاً وقرويّاً أعدّته له راهبات الرحمة الايطاليّات. بتحفّظ، صعدت الأخت Germana إلى الطائرة البابويّة بعيداً عن أضواء الكاميرات. إنّها ترتدي ثوباً ناصع البياض، وتسهر بسلطَتِها اللطيفة على ألاّ يُقدّمَ للبابا مقليّات، ولا شيءٌ مجلّد، وأن تعرض عليه أطباق أقلّ صلصة واقلّ دسماً من المطبخ التقليديّ الذي لا يوافق معدته الضعيفة بعد محاولة قتله. وهذا ماحدث له في بعض الوقعات التي تناولها في الخارج. لم يتجاسر على أن يرفض ما طبخه له أعضاء الجماعة اليهوديّة البولونيّة المحليّة. وكما الأمرُ في روما، فإنّ الأخت Germana هي هنا في السفر لتهتمّ بخزانة ثيابه، فتبقي زنانيره السميكة البيضاء مرتّبة، وغمابيزه العديدة وسترات أكتافه نظيفة مكويّة يوميّاً وباعتناء. بين مدرسة تلموديّة والمستشفيين Hadassah et Augusta Victoria المتطوّرين جدّاً والمستنفرين دوماً، يمكن للبابا، قبالة جبل الزيتون، أن يختلي قليلاً فيتأمّل ويصلّي.

إنّ هذا الانسان الثمانينيّ ذا الطيف الضعيف والمحدود، والمحاطَ بهالة سريّة من الايمان، ببعضِ حركاتٍ وببسمةٍ منه ساخرة على وجه انسان يتألّم، وبنظرةٍ تنمّ عن قوّة إرادة وانسان يتنقّل بصعوبة، حمل شعباً، كان منذ بضعة أيّام غير مكترثٍ له، على الاعجابِ به. إنّ التأثّر كبر رويداً رويداً. وحول شخص يوحنّا بولس الثاني، انتشر لا تيّارٌ من الودّ وحسب، بل أيضاً من الولاء في بلد لا يهزّه شيء. وهذه الرحلة التي، في المكنون من قلبه، كان يريد القيامَ بها أكثر من كلّ الآخرين، وشُغِفَ بها حقّاً السلطات

العليا وعامّة الشعب، حتّى أنّها أسَرَتْ جمهورَ غير المكترثين لها. وكم كانت دهشتي عظيمةً أنّ بعض المثقّفين الشهيرين النافذين في بلدهم، قد شغفوا فجأة بهذه الزيارة، هم الذين ما كان البابا ليستهويهم من قبل. إنّها إحدى المفارقات التي لا يعرف سرّها إلاّ يوحنّا بولس الثاني. انّ كاتبي افتتاحيات الصحف، والمؤلّفين النافذين David Grossmann وAmos Oz والآخرين... والصحف اليوميّة الكبيرة Maariev, Ha'retz, Jerusalem Post (تتميّز الأخيرة بشعار أخّاذ)، كلّها كرّست له خمسة أعمدة في صفحاتها الأولى وطوال ستّة أيّام، ما يشكّل الأساسيّ من طبعاتها، بينما كانت، قبل وقت، متحفّظة جدّاً ولاسيّما منشغلة خصوصاً بقضيّة وزير دفاعهم الجنسيّة. كان من غير الممكن أن أفتح التلفزيون في غرفتي في الفندق، من دون أن أرى يوحنّا بولس الثاني على الأقنية المحليّة الاسرائيليّة والعربيّة. ولقد ذهبت إحدى الأقنية الاسرائيليّة بعيداً، فبثّت في زاوية الشاشة الشماليّة رمزاً أخّاذاً بشكل صليب، ما أثار حفيظة اليهود المتعصّبين والحاخامات المتسربلين بثياب الصلاة. في كلّ مخزن من مخازن شارعي King David et Agro كان تجّار هذين الشريانيين الأساسيّين في القدس، التاجر الصغير منهم والتاجر الشهير يضع تلفازاً على مكتبه، ويتتبّع التحقيقات المتلفزة بالاهتمام نفسه الذي يتتبّعون به مباراة في كرة القدم. لقد انتزع يوحنّا بولس الثاني احترام المتواضعين والأعزّاء معاً. حتّى الأولادُ الصغار كانوا يصرخون "البابا البابا". وقد جعلوا منه، يوم وصوله إلى اسرائيل، بطلاً من أبطال Pourim: الكرنفال عندهم. لقد شعر كلّ انسان بالنعمة، بل بالشعاع الذي كان يصدر عن شخصه، الذي هو أيضاً رمز الضعف البشريّ.

فالذين كانوا يتخيّلون أنّ هذا الوسيط العبقريّ سيقع في الفخ، وسيدخل في مسار السلام الدقيق، أربكهم حسّه السياسيّ. فالبابا، بصفته رجل دولة وديبلوماسيّاً محنّكاً، لم ينتظر رحلته الاحدى والثمانين إلى الخارج ليبرهن عن قدرته وتصميمه. وكما يشرح Avi Pazner، سفير قديم في روما، ووقتئذٍ أحد صانعي اعتراف الفاتيكان بدولة اسرائيل، والذي هو اليوم رئيس "الدعوة اليهوديّة الموحّدة"، والمولود في بولندا، ما أوجد بينه وبين الأب الأقدس عاملاً مشتركاً واضحاً: في هذه الزيارة التاريخيّة، لا فائدة لأحد على حساب الآخر. كلّ واحد كان يريد الأكثر، ولكنّ الأب الأقدس لا يسمح أن يسيطر أحد عليه أو يؤثّر. إنّه على درجة عالية من الفطنة، ومتنبّه لهذا. عندما تجاسرت في نيسان ١٩٩٢ على أن ألفت انتباهه، بأنّ الفاتيكان إحدى آخر الدول في العالم التي

لم تُقم بعد علاقات مع اسرائيل، أجابني بصوت وقور تلوّنه الفكاهة: "تريدين أن تلمّحي بأنّنا الأسوأ؟ ألا تعلمين أنّنا نقول في ديانتنا: الآخِرون يصيرون الأوّلين؟". في هذا الوقت فهمت أنّ القضية قد ربحت. بالرغم من العمر والمرض، لا أظنّ أنّ في امكان أحد، اليوم أكثر من البارحة، أن يحمله على عمل شيء غير الذي قرّر. يتذكّرون في الفاتيكان بأنّ يوحنّا بولس الثاني يحبُّ أن يردّد بأنّ اليهود والمسيحيين هم كلّهم أبناء ابراهيم.

"عاش بين اليهود وكان له أصدقاء منهم، لهذا هو يفهم كيف نتصرّف" هذا ما قاله حاخام القدس الكبير Ismael Mesi Lau، الذي كان، قبل وصول يوحنّا بولس الثاني، إحدى الشخصيّات المشكّكة بما يختصّ بالمنفعة الحقّة للزيارة. فوالد Karol Wojtyla، ملازم أوّل متقاعد، استأجر، في شارع Wadowice في Ryrek، بيتاً من غرفتين ومطبخاً من التاجر اليهوديّ Chaim Balamuth، الذي كان يشغل دكاناً في الطابق الأرضيّ.

لقد أخبر البابا ذات يوم: "كنت، وأنا ولد صغير، أمارس كرة القدم في نادي الجمباز في Wadowice، وكان للكاثوليك فريق ولليهود فريق، نلعب الواحد ضدّ الآخر، ولكن من دون أيّ معنى ضمنيّ للساميّة". بالاضافة إلى ذلك، لقد تكلّم طويلاً في مؤلَّفِهِ "أدخلوا في الرجاء"، عن هذا الانغماس، منذ نعومة أظفاره، في الوسط اليهوديّ: "منذ سني شبابي، في المدينة مسقط رأسي، كنت اعاشر العديد من اليهود. في بادئ الأمر أتذكّر مدرسة Wadowice الابتدائيّة حيث كان الرُبْعُ من تلامذتها يهوداً. أريد أن أذكّر بنوع خاصّ بصداقتي مع أحدهم Jerzy Kluger. هذه صداقةٌ دامت منذ مقاعد المدرسة حتّى الآن. وإنّها لا تزال ماثلة أمام ناظريّ صورةٌ حيّةٌ لليهود، الذين كانوا كلّ سبت يذهبون إلى الكنيس الذي كان يقع وراء مدرستنا. على ما أظنّ، إنّ الفريقين الدينيّين من الكاثوليك واليهود كانا متّحدين في باطنهم، لأنّهم يصلّون للإله الواحد، وإنْ كانا لا يستعملان اللغة عينها؛ فالصلوات، في الكنيسة وفي الكنيس، كانت ترتكز، في القسم الأكبر، على النصوص" إيّاها. من دون أيّ شكّ، هذا شكّل مفتاحاً ساهم في نجاح هذه الرحلة التذكاريّة إلى اسرائيل، التي تجنّب فيها Karol Wojtyla العثرات السياسيّة الأساسيّة. وفي الواقع، إنّ كلاًّ من الكاردينال Angelo Sodano والمونسينيور Toran، الشخصين الحكيمين، اللذين في آخر الأمر يهتمّان بأن يخدما خطّ الفاتيكان

التقليديّ الأكثر قرباً إلى الفلسطينيين منه إلى الصهاينة، إذاً الأقرب إلى عرفات منه إلى Ehud Barak، وحاولا حتّى الدقيقة الأخيرة وبحذاقة أن يضغطا لصالح ياسر عرفات، ولكنْ من دون جدوى؛ فيوحنّا بولس الثاني، الذي يتمتّع بخبرة سنين طويلة من الدبلوماسيّة، قاومهما كما قاوم الفلسطينيين أنفسهم، الذين كان بودّهم أن يعطوا لوناً سياسياً لهذه السفرة.

أمّا وقد سحره مكان اللقاء هذا بين الله والتاريخ، فقد كان البابا يرغب في أن يحتفل، في جوّ مسكونيّ، بهذين الألفين من السنين لذكرى ولادة السيّد المسيح، بأن يقابل أيضاً إخوانه الكاثوليك الملكيين والأرمن والسريان والموارنة والأقباط والكلدان الذين يقلّ عددهم في الشرق الأدنى من سنة إلى سنة، والذين هم ضحايا التعايش الصعب مع الاسلام، والنزف الذي تسبّبه الهجرة. خاطب المسيحيين الشرقيين قائلاً لهم: "تشبّثوا بهذه الأرض"، لكي يمدّهم بالشجاعة.

إنّ هذا الحجّ الذي متّن الحوار اليهوديّ – المسيحيّ هو رائعة شخصيّات أربع من عمر البابا من بينهم ثلاثة أحبار كبار، وأيضاً طبعاً الأب Roberto Tucci، والكاردينال الاستراليّ Edward Cassidy، الشخص الذي ينضح فكاهة، ورئيس المجلس الحبريّ المسؤول عن تنشيط وحدة المسيحيين، وRoger Etchegaray كاردينال المهمّات الصعبة ورئيس لجنة اليوبيل الكبير لسنة الألفين. فهو الذي ساعد البابا في الصياغة الدقيقة لطلب الغفران من الشعب العبريّ. وعلى هامش هذه المقامات الكنسيّة الرفيعة، يجب التنويه بالدور الخفيّ الذي لعبه المهندس Kluger، صديق روما البولونيّ اليهوديّ الذي معه تعلّم Karol Wojtyla، بعمر الستّ سنوات، أن يلعب الـPing pong، وأن يتزحلق على ألواح خشبيّة مصنوعة آنذاك باليد. معه ذهب إلى المدرسة الابتدائيّة وإلى الليسيه في Wadowice، المدينة ذات العشرة آلاف نسمة، سكّان سلسلة جبال Carpates، الذين منهم ثمانية آلاف من الكاثوليك وألفان من اليهود. ومنذ ١٩٧٨، عمل Jerzy Kluger كثيراً في سبيل التقارب بين اليهود والكاثوليك.

في نيسان ١٩٩٩، كان أريل شارون، رأس اليمين الاسرائيليّ آنذاك، يقوم بزيارة للأب الأقدس في روما، فقدّم له خريطة العالم في القرن السابع عشر، حيث أُدرجت باللاتينيّة مناطقُ اليهوديّة والسامرة القديمة التي تؤول إلى أسباط العبرانيين الاثني عشر.

وقد بدا السرور على وجه البابا، أخذ الوثيقة بين يديه الطويلتين وراح يتأمّلها بانتباه، كما أخبرني أحد أصدقاء شارون Uri Dan، وكان حاضراً هو أيضاً في ذلك اليوم. وراح البابا يردّد عدّة مرّات وبحماس "أخيراً سأذهب إلى أرض الميعاد". فلقد استولى السحر على شارون وحاشيته، إذ رأوا أنّ البابا يذكر بكلّ طبعيّة "أرض الميعاد لليهود، لا الأراضي المقدّسة للمسيحيين". لقد شدّد يوحنّا بولس الثاني، وهو يتحدّث آنذاك عن سفره إلى إسرائيل قائلاً: "لأنّ الأسماء لم تتغيّر منذ عشرين قرناً، سأحمل معي الكتاب المقدّس دليلاً". ومن ثمّ، وهو مطبق العينين وبصوت متهدّج، راح، تحت نظر زوّاره المتعجّبين، يعدّد أسماء كلّ من الأماكن المقدّسة بالعبريّة.

عندما غادر البابا اسرائيل على متن طائرة العال، كان الطاقم مسكونيّاً إكراماً له؛ وبنوع خاصّ، كان في عداده أربع مضيفات يهتممن به، وهنّ Annabella Gonen ملكة جمال العالم، وهي سمراء ابنة أربعة وعشرين عاماً، وكاثوليكيّة سوداء من أصل أثيوبيّ، واسرائيليّة من أصل بولونيّ ومن Wadowice مدينة المسافر الشهير، وعربيّة مسلمة، ومضيف مسيحيّ عربيّ مارونيّ كان قديماً يغنّي الأوبرا وهو مختصّ بـVerdi ويغنّي له بالايطاليّة. إنّه لَطاقم رائع جمعه رئيس الشركة الحاضر هو شخصيّاً في الطائرة. هذه المرّة لم يتمكّن البابا من التفلّتِ من وقعة Casher، عادةٌ لا تحيد عنها الشركة الوطنيّة الاسرائيليّة. إنّ البابا سيتذكّر حتماً هذه الرحلة، هو الذي يعيش في المدينة الخالدة، حيث عدد الجالية اليهوديّة لا يتعدّى المئة والخمسين ألف شخص، (وحيث اكتشف أنّ أربع عائلات منها تعود في أصولها إلى يسوع المسيح).

قالت لي الأخت Valérie Galizie، الراهبة الايطاليّة التابعة لرهبنة مار منصور دي بول، والمسؤولة منذ أربعين سنة عن ميتم الأطفال العرب في القدس الغربيّة: "صلوات لا تحصى صعّدَها الأطفال نحو السماء لأجل السلام في مدينة السلام أورشليم. ولكن الصلاة التي يصعّدُها هنا يوحنّا بولس الثاني، في غسق حياته وفي قلب الصراع، هذه صلاة مغايرة، لها وقعها الأقوى، لأنّها فتحت قلب البشر. إنّ هذه الزيارة لا تخضع لحساب الله فقط، بل لحساب التاريخ أيضاً".

"لقد حدث هناك شيء غريب وسرّيّ". هذا ما أسرّ به البابا إلى الكاردينال Poupard، وزير الثقافة في الفاتيكان، وهذا ما نقله هو بدوره إليّ. وهذا ما شرحه البابا للكاردينال

Deskur في الغداء التقليديّ، الأحد الذي تلا، إذ قال: "لقد كنت سعيداً جدّاً، إذ نقل التلفزيون الاسرائيليّ كلّ عظاتي إلى العبريّة".

لقد أراد أسقف روما أن يتقاسم هذا الفرح الشديد مع آلاف الحجّاج الآتين ليهتفوا له، وليحصلوا على بركته، وليسمعوه في ساحة مار بطرس في المقابلة العامّة في ٢٩ آذار في روما. "إنّ عرفان الجميل، الذي يملأ نفسي من عطيّة الربّ التي تشوّقتُها، لا يوصف". بهذه الكلمات القليلة دوّى تواضع الراعي أمام خرافه، وسرت رعشة رسالة يسوع المستقاة من على ضفاف الأردن. مع هذه الزيارة للأماكن المقدّسة، حقّق يوحنّا بولس الثاني توقاً باطنيّاً، هو في الوقت عينه مهمّة جوهريّة ومسيرة شخصيّة إلى ينابيع الايمان. انّه شوق قويّ جدّاً يتملّكه، ويحرّك صلواته منذ بداية حبريّته. لقد كان في غاية المرح والنشاط...

في ٢٤ كانون الأوّل ١٩٧٨، إبّان قدّاسه الأوّل، منتصف الليل، في الكاتدرائيّة الأكبر في العالم، كاتدرائيّة مار بطرس، عند قاعدة قبّة Bernin البرونزيّة الضخمة التي ترنّم لمجد الله، كانت الكوريا الرومانيّة بكاملها مجتمعة أمامه، وكان هناك أيضاً السفراء المعتمدون لدى الكرسيذ الرسوليّ بلباسهم الرسميّ تزيّن الأوسمة صدورهم، والسلطاتُ المحلّيّة، وبعضُ الشخصيّات، وعددٌ من المؤمنين المحظيين. قبالة كلّ الأنظار المتّجهة إلى حبر أعظم جديد غير إيطاليّ وآتٍ من بعيد، وبصراحته البولنديّة، أقرّ من دون مواربة، وبصوت قويّ آنذاك، وأمام هذا الحضور المرموق الذي كان يراه للمرّة الأولى عن قرب، بأنّ أمنيته كانت أن يحتفل بقدّاس الميلاد هذا في مغارة الميلاد في بيت لحم: "منذ أيّام قليلة عبّرت عن رغبتي العميقة بأن أراني في مغارة الميلاد في بيت لحم لأحتفل فيها ببداية حبريّتي. ولأنّ الظروف لا تسمح لي بذلك، ولأنّي أجدني معكم في هذه الليلة، أحاول أكثر وأكثر أن أكون روحيّاً إلى جانبكم لأحتفل بهذا القدّاس بعمق وحرارة وصدق شعور قويّ وداخليّ".

كان يلزم عقدان من الزمن حتّى يحقّق هذا الانسان الشجاع في فجر سنيّه الثمانين، هذا الحلم القديم جدّاً. وطريقه التي قادته إلى أربعة أقطار العالم ليبشّرها، ها هي تلتقي بأقدام السيّد المسيح حيث وعظ مع تلاميذه منذ ألفي سنة.

الفصل السادس

"أنا بابا طاعن في السّن"

ذات صباح، ها أنذا في أجنحة يوحنّا بولس الثاني الخاصّة. كان المونسينيور Dziwisz قد رتّب باعتناء على الطاولة الكبيرة، في الصالون–المكتبة، الصور التي التقطها له Jean-Claude Deutsch وقد أحضرتها إكراماً للأب الأقدس. فانحنى وراح يراقب كلّ تظهير بانتباه، وهو ينظر إلّي من زاوية عينيه ممازحاً. بعدئذٍ قال لي:

"أنا بابا ختيار". إنّه ينتظر ردّة فعلي برباطة جأش. كنت متضايقة جدّاً، وقلت متلعثمة بالايطاليّة: "لا، أبداً أيّها الأب الأقدس، لا دخل للوضع الشخصيّ هنا. إنّ ما تتمتّعون به يا صاحب القداسة من نشاط ليبهرنا منذ بضعة أيّام فقط..." قاطعني بغتة وهو يضحك:

"فلنقلْ إنّ معك محترفاً رائعاً كي يصوّر بابا طاعناً في السّن. أشار إليّ Angel Gugel إشارة تواطؤ، وكان يقف وراءه تماماً. وكان هو والمونسينيور Dziwisz مسرورين، لأنّي تجاسرت، فعارضت البابا بلطف.

في الحقيقة، إنّ الأب الأقدس يثيرني بقوّته وشجاعته. ولكنْ، شأنَ كلّ الذين يرونه ذات يوم، لا يمكنني أن أمتنع عن أن أقلق أمام تدهور صحّته الواضح. أيّ فرق مع هذا البابا النشيط جدّاً وقت انتخابه، الذي كنّا نراه يمشي بمرح في مماشي الفاتيكان، يتبعه من بعيد الأحبار الشيوخ والمونسينيوريّة وهم يلهثون. إنّه يعرف ذلك، ويحاول أن يحمل الآخرين على أن يقاسموه الثقة التي يضعها في العناية الالهيّة. لقد اجتهد في ذلك منذ وقت قليل أمام الجسم الدبلوماسيّ.

في الطابق الثاني من القصر الرسوليّ، في قاعة Clémentine، في هذه الغرفة التي يغمرها نورٌ ناعم والمزيّنة بعظمة من عهد Clement VIII، يستقبل يوحنّا بولس الثاني، بطريقة بروتوكوليّة، سفراء مئة وسبعين بلداً، المعتمدين لدى الكرسيّ الرسوليّ، وقد وردت أسماؤها حسب الترتيب الأبجديّ (تأتي طبعاً على رأس اللائحة جمهوريّة Andorre). إنّ الأب الأقدس يعرف بأنّهم يتمعّنون في مشيته وحركاته ويتفحّصون وجهه، ليقيّموا حالته الصحيّة قبل أن يرسلوا تقاريرهم الديبلوماسيّة إلى كلٍّ من بلدانهم. لقد ارتأى أنّه من الضرورة، في صباح العاشر من كانون الثاني ٢٠٠٠، أن يعلن باختصار عن الثقة التي له في صحّته أمام هؤلاء الدبلوماسيين الجافّين نوعاً ما، بلباسهم وبأوسمتهم الكبيرة: "انّ الله لا يطلب منّا أبداً ما هو فوق قدراتنا. إنّه يعطينا القوّة لنعمل ما ينتظره منّا".

وهكذا، ببعض كلمات، إبّان الاحتفال التقليديّ لتقديم التهاني، طمأن الحبر الأعظم العالم المسيحيّ إلى مشاكله الصحيّة العديدة. ولفت الانتباه عرضاً، على أنّه، وقد عضدته العناية الالهيّة الجوّادة والصلاة، قد استطاع، بالرّغم من المعوّقات الثقيلة، أن يتوّج حلمه بأن يقود الكنيسة الكاثوليكيّة نحو الألف الثالث. ولقد توصّل أيضاً، وفيما بعد، إلى أن يحتفل بعيد ميلاده الثمانين بصفاء ذهن وشجاعة قلب بعد عشرين سنة ونيّف من الحبريّة. لا يجد أيّة صعوبة في الإقرار بحدوده الجسديّة. وإذا كان هذا الانسان البطل فيما قبل، هو أسير جسده شيئاً فشيئاً، الأمر الذي لا يخفى على أحد، فهو انّما يحافظ على قوّة روحيّة ومقدرة عقليّة وذاكرة غير عاديّة. ومع أنّه ابتُليَ بأعراض البركنسون ماحمل يده اليسرى على الرجفان وما أعاقه في الالقاء، زدْ على ذلك الآلام الناتجة عن محاولة قتله وعن عمليّات جراحيّة عديدة، فهو إنّما يجبه، أسبوعاً بعد أسبوع، التزاماته العديدة.

لا أحد ينكر أنّ نسق عمله قد غدا أقلّ نشاطاً عمّا كان قبلاً. فإذا كان لا يزال يزور بانتظام يوم الأحد رعايا العاصمة الايطاليّة، فهو لا يطيل التحدّث مع المؤمنين. إنّه يجيب الآن بجملة واحدة، وغالباً بصوت متهدّج، على مجمل سؤالاتهم. في المقابلة العامّة، يوم الأربعاء، لا ينزل أبداً ليصافح الحجّاج. إنّهم هم الذين يأتون إليه، أقلّه الذين هم في الصف الأماميّ. وعند الزيارات التي تقوم بها السلطات الدينيّة والمدنيّة له، فهو

الكاردينال Sodano، أمين سرّ الدولة، من يسلّم، بطريقة احتفاليّة، لكلّ منهم، الخطاب الذي لا يقوى الأب الأقدس على تلاوته. أخيراً، إنّه لا يقوى أيضاً على الركوع وتقبيل الأرض عندما ينزل من الطائرة في بلد غريب يصله للمرّة الأولى، كما كان يفعل فيما مضى. الآن يحملون إليه إناءً يحتوي على تراب محليّ ويرفعونه نحو وجهه. بالرغم من هذه التغييرات، فإنّ الذي يقرُبه بطريقة منتظمة، إنّه لمن الغرابة، أن يلحظ توقه إلى العيش، كما في آب الماضي، في أيّام الشبيبة العالميّة الخامسة عشرة، حيث قام بالرقص أمام مليونيّ شاب تحت حرارة من ٣٥ درجة. أحياناً ينظر نظرة غضب عندما يحاول أحد المقرّبين إليه أن يساعده على المشي مادّاً إليه يده، قبل أن يكون هو طلب ذلك بحركة خفيّة. يسمع للأطباء مجاملةً أكثر منه تواضعاً. وبعد، لا يعمل إلاّ ما يحلو له. فما أن يشعر بتحسّن بعد تعب مضنٍ، حتّى يريد أن يغادر سريره حالاً.

في مستشفى Gemelli يتذكّرون جملته: "إذا كان البابا مريضاً يلزم فراشه، إذا لم يكن بعد مريضاً يغادره". "بكلام آخر يريد يوحنّا بولس الثاني أن يتجاهل زمن النقاهة" هذا ما أسرّ لي به أحد الأطباء، وهو يتحسّر.

هذا التصرّف هو معدٍ. بمعنى أنّ عدّة أشخاص من أتباعه ومتأثّرون به، من بينهم طبيبه الخاصّ الدكتور Buzzonetti ابن الاثنتين والسبعين سنة، وهو كان يمارس الطبّ في مستشفى San Camillo، والقائدُ الأمنيّ Camillo Cibin ابن السّت والسبعين سنة، كلّهم متأثّرون بقدرته على تخطّي الصعوبات ومشدودون إلى بطريرك الغرب الشيخ، فلا يخطر ببالهم لحظة أن يحالوا على التقاعد، وهل من الممكن أن يفعلوا؟ فمع أنّ البابا يبدو متعباً في بعض الأيّام، فهو له مشاريع جديدة حتّى صيف ٢٠٠٢ وقت أيّام الشبيبة العالميّة المقبلة في Toronto. إنّ المقرّبين منه لمذهولون. إنّه شخص يبدو نحيلاً، ولكنّه يتمتّع بصلابة جسديّة متينة. والبرهان على ذلك الطاقة التي يظهرها منذ بداية أعياد السنة المقدسّة، بمعدّل حدث غير عاديّ كلّ ثلاثة أيّام. يبقى أنّ وتيرة العمل عند يوحنّا بولس الثاني هي تحدّ لمحدوديّة طبيعيّة في جسمٍ واهٍ. هذا إلاّ إذا كانت هذه هي طريقته السريّة بأن يُتِمَّ بانتظام مراحل درب الصليب الأربع عشرة، وأن يقدّم آلامه للربّ. عليه أن يتحمّل أعراض البركنسون الملازمة؛ مرضٌ أُصيب به قبله أشخاص

تاريخيّون آخرون: هتلر، ماوتسونغ، الجنرال فرنكو، ليونيد برجنيف، والآن ياسر عرفات...

إنّ أعراض البركنسون تصيب واحداً بالمئة من الناس الذين يتعدّى عمرهم الخمس والستّين سنة، ولكن لا يمنع أنّ المصابين الذين يعالجون على وجه صحيح، يعيشون عيشة عاديّة تقريباً، كما يشرح ذلك البروفسور Bruno Dubois، طبيب الأعصاب في مستشفى لـPitié - Salpêtrière والاختصاصيّ الكبير في المادّة: "يخضع الدماغ لنقص في الهرمون الدماغيّة، الذي يُنقِصُ بدوره حركة الأعضاء. ينتج عن هذا النقص رجفان مميّز جدّاً من ناحية، لأنّه يختفي أثناء الحركات الاراديّة، ومن ناحية أخرى تصلّب غير عاديّ للأعضاء ونزوع إلى اختفاء التجاعيد. وتطوّر هذا المرض يمكن أن يبلغ إلى عجز في الأعضاء. ولكنْ، في تسعين بالمئة من الحالات يحافظ المريض على وظائفه العقليّة. لتخفيف هذا المعوّق، يستعاض عن الهرمون الدماغيّة بـLa Dopa، مع العلم بأنّ هذا الوسيط الهرمونيّ الذي يعمل وقتاً قصيراً – من ثلاث إلى أربع ساعات – يحتاج إلى شحنات كهربائيّة متقاربة، وإلاّ ظهر الرجفان من جديد ولأجَلٍ قصير".

أخيراً، إنّ الأب الأقدس يتألّم غالباً من معدته منذ محاولة قتله في ١٩٨١.

لهذا، أرى يوحنّا بولس الثاني يخضع لعلاجات دائمة، ولفحوصات طبيّة منتظمة يقتضيها عمره وعوارض البركنسون عنده وماضيه المثقل بالعمليّات الجراحيّة. بانتظام كلّي، يعطى نتيجة فحص دم كامل وتنظّر باطن وIRM. لقد خضع لا لأقلّ من سبع عمليّات جراحيّة مع بنج عام، منذ أوائل عهده. إنّ المقرّبين إليه جدّاً يقولون إنّه يعارض كلّ عناد علاجيّ، عكس بعض رجال دولة، مثل فرنكو وDeng Xiaoping، الذين أُطيلت حياتهم اصطناعيّاً ولبضعة أسابيع بدل أن يتركوا يموتون بهدوء.

إنّه أوّل بابا في هذا القرن انتخب وعمره دون الستين، ويرفض بعناد أن يقرّ بقوانين الزمن، وقبل هذا أن يستمع لجسده الهرم المنهك. عندما ينصحه أطبّاؤه بأن يضنّ بقواه ينتفض. بالنسبة إليه، العمر ليس عمر الشرايين، بل عمر القلب؛ ولا يتردّد بأن يشرح ذلك لأبناء جيله، في رسالته إلى المسنين في الأوّل من تشرين الأوّل ١٩٩٩: "بالرّغم من التحديدات التي تأتي مع العمر، إنّي أحافظ على طعم الحياة بفضل الربّ. إنّه لجميل أن أستطيع تكريس حياتي حتّى النهاية في سبيل ملكوت الله".

يتبع الأب الأقدس، ودائماً، اختصاصيّون من المستشفى الكاثوليكيّ Gemelli في روما. إنّه لمستشفى فسيح جدّاً، يشتمل على ألف وسبعمئة سرير، وهو على خمسة كيلومترات من الفاتيكان. إنّه يخصّ الأساقفة الايطاليّين، ويوظّف ستمئة وستّين طبيباً وألفاً وستمئة ممرّضة، ويمتلك مطاراً لطائرات عموديّة. إنّ هذا يتمّ بالتنسيق مع طبيبيه. وأهمّ طبيب إنّما هو الدكتور Renato Buzzonetti الذي هو نوعاً ما طبيب عائلته، ومدير الخدمات الطبيّة في الفاتيكان، والذي رافقه منذ بدايات عهده. فعلاً، إنّه يدير مستوصفاً يقع وراء جدران المدينة البابويّة العالية، حيث يزاول خمسون طبيباً أغلبيّة الاختصاصات الطبيّة ماعدا التوليد، وقد أبرموا اتفاقيّات مع أرقى المستشفيات الرومانيّة. الطبيب الثاني هو الدكتور Patrizio Polista، عمره اثنتان وأربعون سنة، طبيب قلب ومنعش اختصاصيّ بالـHémodynamique بمراقبة الدّم قبل عمليّة جراحيّة في القلب. يشارك رسميّاً، ومنذ وقت فريق فرنسيّ ذو شهرة كبيرة في مجال أعراض البركنسون وبطريقة خفيّة، لئلاّ يثير هذا حفيظة الايطاليّين (Padoue هي مركز أقدم كليّة طبّ في العالم).

مع كلّ هذا، هل يلقى يوحنّا بولس الثاني العناية اللازمة؟ الملاحظة الخداعيّة أتت من حبر مهمّ صديق للبابا إذ قال لي: "عامّةً، إنّ الشخصيّات العظيمة هم محاطون بما يمكن تسميته "بندوة طبيّة"، أعني نواة من الأطباء لا يختارون دوماً لأغراض صرف طبيّة... والذين يخافون غالباً أن يحاطوا بآراء إضافيّة أو باختصاصيّين آخرين، يُتيحون أن تُنظَرَ نظرةٌ جديدة وموضوعيّة على المريض". تقاسم علميّ غير منسجم مع سريّة متوخّاة.

لمّا كانت روما غير مجهّزة بمستشفى عسكريّ على مستوى مستشفى كلّ من باريس وواشنطن، لتفادي كلّ حادث محتمل وابقائه سريّاً قدر المستطاع، جُهِّز جناح سريّ – رسميّاً لكرادلة مرضى– في مستشفى Saint Charles de Nancy على بضعة أمتار من الفاتيكان. إنّه كناية عن بناء استشفائيّ خاصّ عصريّ جدّاً –شارع Aurelia– أسّسته راهبات فرنسيّات من Saint Charles de Nancy، وهو اليوم ملك لرهبنة الحبل بلا دنس. فالجناح المختصّ بالبابا قد أعدّ في الطابق الثالث، ويشتمل على غرفة متوسّطة، جدرانها بيضاء، أرضيّتها مشمّعة ذات لون أبيض يميل إلى الصفرة، فيها سرير مستشفى

نقّال يمكّن من إجراء عمليّة جراحيّة صغيرة في المكان نفسه، وعلى بيت خلاء من الرخام ومغطس وحمّام. شبّاك الغرفة يطلّ على قبّة مار بطرس، التي تبعد بضع مئات من الأمتار على خطّ مستقيم. إلى جانبها، غرفة أشدّ بساطة لأمين سرّ البابا. في الممرّ عينه غرفتان تحسّباً للسلامة المقرّبة. الجناح مفصول عن مستشفى صغير من أربعين سريراً، تسهيلاً للعناية. في حالة الاستعجال، يتمكّن يوحنّا بولس الثاني من الوصول إلى Saint Charles de Nancy في بضع دقائق عبر موقف يؤدّي مباشرة إلى مصعد. هذا المركز الطبّي المعدّ حديثاً هو مشهور أيضاً بمصلحة تقويم الأعضاء وطبّ العيون وطبّ النساء.

خلف هذا المظهر الطبّي، الذي يضايق يوحنّا بولس الثاني – هذا من ناحية أخرى سبب من الأسباب التي يصعب معها العناية– تبقى هناك بنظره مسألة جوهريّة: قبل كلّ شيء إنّه متشرّب تعاليم الإنجيل. منذ زمن طويل ودوماً وضع أمره بين يدي الله، ويمنح الألم، الذي لا يرهبه وخلافاً للآخرين، قيمة صوفيّة. إنّها طريقته ليقتدي بالمسيح. بالنسبة إليه، المسيحيّ المثالي هو الشهيد. تكفي مراقبته عن قرب، الحظوةُ التي حظيتُ بها ولعدّة مرّات، وهو يركع على مركع في صمت مطبِق، عيناه مغمضتان ووجهه يشعّ صفاءً، حتّى يفهم المرء إلى أيّ حدّ توجّه قوّة إيمانه حياته.

في الحقيقة، إنّ الحياة القاسية، التي عرفها ولداً يتيماً، والمملوءة آلاماً جسديّة ونفسيّة مرّسته بالجراحات والمشاكسات. لقد شهد موتَ عائلته كلّها قبل بلوغه سنّ الرشد. في عمر الأربع والعشرين، في ٢٨ شباط ١٩٤٤، كان عرضة في Cracovie لحادث خطير، بينما كان خارجاً من معمل Solvay للصودا حيث كان يعمل ليلاً ونهاراً. فبعد أن أتمّ دورتين متتاليّتين من العمل، طرحته شاحنة عسكريّة ألمانيّة أرضاً، وكان في طريق العودة. جرح في رأسه، وغاب عن وعيه. إنّه يحتفظ بجرح صغير في أذنه اليسرى، دلّ عليه بعد ثمان وثلاثين سنة، وهو يقوم بزيارة لمعمل Solvay في Toscane. (إنّ معمل Cracovie زال من الوجود وبُنِيَ مكانه مخزن Carrefour) إنّه لامتحان مرعب لشاب أصبح وحيداً ويتألّم من وحدته، ولو أنّه صنع لنفسه فلسفة ستقوده إلى مصيره.

في القرن السادس عشر هتف Joachim du Bellay في أنشودة إلى روما قائلاً: "إذا شئتِ أخبريني عن البابا وعن ضجّة المدينة". اليوم، يلزمنا كتّابٌ من تلك العصور

السحيقة، إذ لم يكن من وجود للتلفزيون ولا للعدسة الشبحيّة المقرِّبة لتأطير أوجاع الحبر الأعظم من دون شفقة وبتصميم كبير، وللتمعّن بابتسامته وشرح بطء مشيته الثقيلة؛ فصحة البابا كانت آنئذ موضوع اهتمام حيّ ودائم. أربعة عصور فيما بعد، لم تتغيّر العاصمة الايطاليّة البتّة. ففي ظلّ Borgo Pio حيّ الفاتيكان، كما بين أعضاء مجمع الكرادلة المشهورين وفي سيّارات التاكسي الرومانيّة وفي حيّ Trastavere الشعبيّ، تبقى كلّ حركة من خليفة بطرس موضوعَ اهتمام دائم، على المستوى عينه كما حيال مباراة لكرة القدم. في مطعم L'Eau Vive، الواقع في شارع Montarone، والذي تديره راهبات، والمعروف بين الرومانيين "باستراحة الأسقف"، والذي يتردّد إليه كبار موظّفي الفاتيكان والسوّاح الأتقياء، يفسّر اللوبيّون البابويّون، بخبث واستهتار، زلاّت الحبر الأعظم الذي احتفل بعيد ميلاده الثمانين في ١٨ أيّار ٢٠٠٠. لا بدّ من الاقرار بأن جوّ هذا المطعم الخافت المميّز ذي القناطر والجداريّات التي تعود إلى عصر النهضة، والذي تقوم بالخدمة فيه عاملات مرسلات من الحبل بلا دنس اللواتي يرتّلن السلام الملائكيّ وهنّ يحملن إليك "السباغتي"، إنّما هو مؤاتٍ للبوح بالأسرار. عندما تتدهور صحّة البابا، تغدو موضوعاً لكلّ المحادثات والمباحثات التي لا يمكن اجتنابها حول استقالته أو خلافته. يسمّي المدعوّون فيما بينهم هذه الثرثرات "المناورات المقدّسة". وهذا ما استنتجه Sthendal في ١٨٢٩، فكتب في "نزهاته في روما" "غدا موت البابا وتسمية خليفته موضوع تسلية للرومانيين وشيئاً يأخذ منهم كلّ مأخذ، وهذا واضح". بعد قرن ونيّف، عندما يتعلّق الأمر بـKarol Wojtyla، فإنّ الشاغل أكثر من أيّ إنسان آخر في وسائل الإعلام، هو خليفةُ بطرس الرابع والستّون بعد مئتين، الذي فرض نظاماً معاكساً تماماً لنظام أسلافه الايطاليين، هذا البابا الذي أذهل دوماً في مجال الصحّة كما في غيره من المجالات، وهو يسبح عكس التيّار قاطعاً قانون الصمت. هو الذي تحمّل طويلاً الرقابة، غدا لا يتحمّل أيّة رقابة، فأخذ على ذاته أن يتكلّم بطريقة مغايرة، وأن يقطع سياق الحديث الرسميّ المتّفق عليه بالنّسبة إلى منصبه، رافعاً منذ الأيّام الأولى لحبريّته الحجاب الحيّي عن صحّته، وأكثر منذ محاولة قتله التي كان ضحيّتها، والتي ذكّرت العالم بأنّه ليس صورة خرافيّة بل كائن سريع العطب من لحم ودم. منذ حين كان شخصاً لا يمسّ، خفيّاً بقدر ما هو موقّر.

محدودب الظهر، منقبض الوجه بسبب الألم، خافت الصوت غير واضح أحياناً، يجهد يوحنّا بولس الثاني بأن يظهر بمظهر انسان منهك يصارع خطوة خطوة ضدّ السنّ والمرض. سواء أكان على مرجة Longchamp أو في كوبا، أو في الناصرة، لا يهمّه أن يظهر على أنّه ابن ثمانين سنة وأكثر. إنّه يظهر أمام شعب الله، كما هو جسديّاً ونفسيّاً، مع هذا الايمان الذي لا يتزعزع؛ إيمانٌ صاعقٌ مجبولٌ بالحنان، وأحياناً بالقسوة عندما يشجب الأذى الذي يلحق بالأخلاقيّة المسيحيّة. ففي حزيران ١٩٩٩ (أثناء زيارته الأخيرة لبولونيا، وقع أرضاً في السفارة، وخضع لثلاث قطب درز لجرحه. لم يمانع من أخذ صور له طوال إقامته، وعلى صدغه لصوق سمج. لمّا انتخب في سنة ١٩٧٨ بابا بعمر الثماني والخمسين سنة اختار الشفافية، هو الذي وصفه، في أربعة اقطار العالم، معلّقو الاعلام المكتوب والمرئي حتّى اللاذعون، بأوصاف حماسيّة منها: "رياضيّ الله" "Wojtyla" النجم السينمائي" "ورجل السنة" لـ"Time Magazine" ومع ذلك، أن نراه متمسّكاً بعصاه الحبريّة الفضيّة، أو أن نخاله أحياناً يغفو أثناء بعض الاحتفالات، فهذا لا يؤثّر البتّة على شعبيّته. الناس يحبّونه ويعجبون به دوماً، وإنْ يكن لم يعد له نظر النسر وهذا العنق السلافيّ الجميل. على كلّ، ففي روما، أكان شاباً أم شيخاً، بكلّ لياقته أم تعباً، فالبابا هو البابا.

عندما تألّم البابا شديد التألّم من جنبه الأيمن نتيجة كسر في عنق عظم الفخذ – كان يزعجه الجهاز البديل – لم يتردّد يوحنّا بولس الثاني، غير مبالٍ البتّة بالضجّة التي ستثار، من استخدام عربة متحرّكة ليجتاز بازيليك القدّيس بطرس. هذه المنصّة الصغيرة ذات الدواليب التي يصعد إليها بدرجات ثلاث، ومزوّدة بدرابزينين من المخمل السميك، والتي يدفعها موظّفون نبلاء من موظّفي القصر البابويّ، مكّنت البابا منذ سنة من أن يشاهده الحجّاج عامّة، وسهّلت له التحرّك داخل هذا البناء الدينيّ. لقد ذهب أبعد بكثير. فلأنّه مراقب سياسيّ ثاقب الفكر آت من الشرق، ولأنّه ممّا لا شكّ فيه أثار سخط عدد كبير من القادة السياسين ورؤساء الحكومات وفضولهم وهم أحياناً في حالة النزع، اختار بتصميم لغَةَ الحقيقة لا لغَةَ الخطاب المطهّر والبلاغات الرسميّة الطنّانة. إنّ مقاربةً بين حياته الخاصّة وحياة أسلافه الخجولين، تُظهر كم الفرق هو كبير بينه وبينهم. بالأمس، أعدّ بيّوس الثاني عشر بفطنة غرفة عمليّات في الفاتيكان. ويوحنّا الثالث والعشرون، بالرّغم من وجهه الذي ينمّ عن قلقٍ، حاول أن يخبّئ مرض السرطان

في معدته أطول مدّة ممكنة. أمّا بولس السادس فقد خضع لعمليّة استئصال البروستات في سرّيّة تامّة وضبابيّة كبيرة، خلف جدران الكرسيّ الرسوليّ السميكة. أمّا يوحنّا بولس الأوّل، البابا لمدّة ثلاثة وثلاثين يوماً، فقد عاجله الموت قبل أن يستطيع التفكير بصحّته. ولكن موت خليفة بطرس المئتين والثّالث والستين السريع، الانسان المنهك سرّياً، حامت حوله الشائعات المروّعة، وأُثيرت حوله أسوأ الافتراضات. أمّا خليفته فقد أراد بردّة فعل أن يقيم تعايشاً في كلّ لحظة مع المؤمنين في موضوع صحّته. هذا لم يمنع الشائعات من أن تحوم حول حالته الصحيّة، موفّرة للأعلام فصول قصّة لا تنتهي، حيث الخيال يتخطّى غالباً الواقع.

يقدّر يوحنّا بولس الثاني الحضور الجسديّ للبابا حقّ قدره، وأنّه جوهريّ رمزيّاً بالنسبة إلى الكنيسة الكاثوليكيّة. فخلافاً للديانات الأخرى، إنّه يمثّل ببعده الجسديّ شموليّة الكنيسة. "حيث البابا هناك الكنيسة". وهو يعي أيضاً أنّه نظراً لجنسيّته وماضيه، ولأنّه مارس خدمته في الشرق، فإنّ كلّ حركة من حركاته تحلّل وتفسّر أكثر بكثير من حركات أسلافه، وتقريباً إنّها تُفسَّر بقسوة داخل الفاتيكان كما خارجه. لهذا، ولمّا كان Karol Wojtyla حذراً لطبعه، رغب في روما ومنذ أيّام حبريّته الأولى، أن يكشف عن حياته، وكراعٍ للكنيسة الجامعة أن يقيم حواراً دائماً مع المؤمنين خاصّته، وأن يلتقيهم على دروب القلب.وهذا يسمح له أيضاً أن يكِلَ عمليّاته الجراحيّة وآلامه إلى صلوات مليار من كاثوليك العالم. بعد أربعة أيّامٍ من المحاولة في ساحة مار بطرس، وجّه من المستشفى هذه الرسالة إلى شعب الله: "أعرف أنّكم معي. إنّي أقدّم أوجاعي عن الكنيسة والعالم". إنّه عنصر قوّيّ يخلق تماسّاً متواصلاً وحسيّاً نوعاً ما مع الناس، وخاصّة مع الذين استقبلوه على طرقات العالم كلّها، هؤلاء المؤمنين البعيدين الذين يعتبرونه قريباً جدّاً منهم.

إنّ البولنديين الذين يعيشون في بلد مسيحيّ، حيث الايمان وممارسته هما فطريّان، لم يكفّوا أبداً منذ اثنتين وعشرين سنة، عن إضاءة الشموع وصلاة المسابح، وهم راكعون، عن نيّة البابا. كلّ مرّة يخضع فيها البابا لعمليّة جراحيّة، يُقبل الايطاليّون كما الحجّاج عابرو السبيل على وضع رسائل يتمنّون فيها الشفاء العاجل للبابا، ويقدّمون أزهاراً وحلويات لمستشفى Gemelli في روما، ويصلّون ويرتّلون تحت شبابيكه. إنّ

رئيس نقابة الكمء يقدّم له كمآتٍ كبيرة بيضاء، الأغنى ثمناً في العالم. وقدّمت له جماعة ايطاليي جنيف سريراً طبّياً "ذات تعديل للحركة". وما من سائق تاكسي ولا إيطالّي واحد يجهل من الآن وصاعداً عنوان المستشفى الشهير.

إنّ يوحنّا بولس الثاني يذهب إلى Gemelli في سيّارته المرسيدس الفسيحة السوداء المدموغة على بابيها الجانبيين بالشعارات البابويّة، لا في سيّارة إسعاف. إنّ هذه المبادرة تنمّ ليس فقط عن إرادته طمأنة العالم المسيحيّ، بل أيضاً وفي هذه الهنيهات، ألاّ تبقى حالته الصحيّة طيّ الكتمان. وحيث أنّ العديد من البابوات قد أكثروا من الحيَل كي يبقى مرورهم إلى المستشفى في السرّية التامّة، فضّل يوحنّا بولس الثاني الوضوح، بمعنى أنّه، بعد مرور بضعة أسابيع على محاولة ١٩٨١، عرض راديو الفاتيكان للبيع تسجيل فيلم الحدث. لقد فهم، أنّه بالرّغم من تحفّظاتِ مدير مكتب الصحافة البابويّة الحاذق، يبقى هو الأفضل عبر شخصه كي يقْرُبَ موضوع حالته الصحيّة الشائك، وكي يحكم إلى أيّ حدّ يمكنه الكشف عن حميميّته. أخذني العجب في بدء تحقيقاتي الصحفيّة في الفاتيكان، إذ تبدّى لي كيف كان المكتب الصحفيّ يقصّ علينا النشرة لكلٍّ من عمليّاته موقّعةً من مختلف الأطباء، وبأيّ اهتمام بالتفاصيل هذه النشرة هي معزّزة، موضحة لنا وبدقّة وحسب الحالات عودة معدته إلى عملها الطبيعيّ، وعدد القطب الجراحيّة، وما تمكّن من بلعه ومعدّل الحقن في الأوردة، ونظام حركات تنفسّه ونبضات قلبه... غير أنّ الكتمان كان يلفّ امرأة Tony Blair وقد ظننا، أثناء حملها الرابع المؤخر، بأنّنا حضرنا مباشرة كلّ تخطيط "Echographie" خضعت له وعايشنا الوضع في غرفة انتظار دار التوليد. ولكنّي سريعاً ما فهمت بأنّ إظهار صورة للبابا، حتّى وإن كانت أسارير وجهه منقبضة، وزنداه مضغوطتان بالرباطات، وآثارها ظاهرة على يديه، ممدّداً وهو لابس البيجاما على سرير مسوّر بقضبان في مستشفى بسيط، هو أشدّ وقعاً بكثير من كلّ البيانات الطبيّة، وهو أبلغ بكثير من كلّ النشرات الصحيّة. والشيء عينه هو عندما كان يطلّ من شبّاك المستشفى على آلاف المؤمنين الساجدين، وهم يصلّون.

إنّ هذه التقنيّة الصحافيّة التي هي صدى علامات رجاء، والخالية من كلّ تصنّع، لهي بالنسبة إلى الرأي العامّ أقوى من كلّ النجاوى الخاطئة لادارة صحيّة لا محالة حذرة ومتوترة. إنّ البابا مقتنع بهذا عميق الاقتناع. على كلّ حال، في مناسبات مماثلة،

إنّ سفير الايمان هذا، وقد أصمّ أذنيه دون كلّ الشائعات، يحبّ أحياناً، بفكاهة جليّة، أن يطمئن بعض كرادلة متودّدين، يستفسرون بغيرة شديدة عن تطوّر حركات البركنسون عنده. يؤكّد لهم قائلاً وهو يحدّق في عيونهم: "لا تقلقوا سأموت وقد شفيت". إنّ رجفانه لثقيل جدّاً، لأنّه موضوع مراقبة من كلّ وسائل نشر الأرض الاجتماعيّة، وهو موضوع تحليل دقيق للعديد من الدوائر الرسوليّة.

في ما مضى، كان هناك في هذا المجال أكثر من إشاعة كاذبة. على سبيل المثال عندما، في ١٩ آب ١٩١٤، نشرت الصحيفة Giornale d'Italia اليوميّة المقروءة آنذاك جدّاً، مقالة حول بيّوس العاشر مفادها أنّ هذا الأخير، وقد تلوّى وجهه من الألم، لم يستطع الوقوف في نهاية اجتماع؛ كذّبتها وبقوّة في اليوم الذي تلا إفتتاحيّة الـOsservatore Romano، قائلةً إنّ الأمر في الحقيقة ما كان سوى رشح قويّ. بعد أربع وعشرين ساعة، أسلم الحبر الأعظم روحه. إنّ هذه الصورة القديمة، المتصنّعة تقريباً عن فاتيكان سريّ وغامض، هو بالضبط الفاتيكان الذي جهد يوحنّا بولس الثاني أن يقاومه منذ بدايات حبريّته. في أيّام صباي تعلّمت ألاّ آتي على ذكر مواضيع المال والسياسة والمرض أمام الناس. إذا كان يوحنّا بولس الثاني لم يتناول أمام الناس إلاّ ما ندر المسائل الماليّة، كما يؤكّد ذلك صديقه الكاردينال Deskur، كما أنّه لم يهتمّ أكثر بالمسائل التي تتعلّق بمركزه، فهو ومن دون حالات نفسيّة وبطريقة واضحة جدّاً، تحدّث عن صحّته بذات الصراحة التي تتناول فيها العائلة صحّة أحد أفرادها.

اليوم، في هذا الجوّ المضطرب من نهاية عهد، مع حنكة من المكر والدهاء يعيها يوحنّا بولس الثاني، ينصرف، في الكواليس، المرشّحون العديدون لخلافته إلى مناورات عظيمة، حتّى أنّهم يُدلون بمقابلات لشبكات التلفزة على ألاّ يبثّوها إلاّ بعد موته وحيث يتحدّثون عن يوحنّا بولس الثاني في الماضي.

هذا ما يُسمّى في لغتنا الصحفيّة المحرّفة وبدون مراعاة "لحوم باردة". إنّ يوحنّا بولس الثاني يتجاهل هذا، وبعنفوان. وهذا يثير ميله الذي لا يرحم إلى التحدّي. أكثر من أيّ وقت آخر، إنّ طبيعته المستفزّة تملي على هذا الرجل المتصوّف الذي قاوم أبداً، أن يداوم القيام برسالته. بعد هذا كلّه، إنّه في اثنتين وعشرين سنة ألغى ثلاثة أسفار فقط لأسباب صحيّة. هذا البابا الشجاع الذي قام بزيارة مئة وثلاثة وعشرين بلداً، اثنا عشر

منها في هذه السنوات الثلاث الأخيرة، والذي طالما أنّه يتمتّع بقوّته الجسديّة وقواه العقليّة الفكريّة الضروريّة، لماذا إذاً يصمّم على ألاّ يغادر المدينة الخالدة. مع هذا، كان الجسم الطبّيّ مجبراً نوعاً ما على موافقة طبيعة معالجته على طبيعته هو، لا العكس.

بصعوبة حقيقيّة ومن دون استشارة أحد، توصّل المونسنيور Dziwisz الذي يحبّ البابا ويحميه، أن يلغي له الاختلاط بالجمهور، التضحية الحقّة. لقد أرغمه أن يحدّ من أسفاره ومقابلاته، وأن يقصّر مداها، وبطبيعة الحال خطاباته التي لا يرتجل عليها. ومع هذا فإنّ الركض المتعب في الأراضي المقدسّة دام ما يقارب الأسبوع.

في الحقيقة، إنّ وجهه ينمّ عن تعب ظاهر تماماً. خدّاه العاليتان تتجمّدان، ونظره يتسمّر، وأحياناً لا يعبّر عن شيء تقريباً. يجهد تعباً في المشي، ويميل إلى السقوط نحو الأمام بسبب الجهاز المزروع في وركه والذي لم يكن مؤاتياً. إنّ منظره يؤلم، تتوجّع له ما إن تراه، ولكن لا شيء يوقفه. ومن المؤكّد أنّ آثار المحاولة الثقيلة التي بسببها خسر ثلاثة ليترات من الدم، وأيضاً آثار البنج العموميّ سبع مرّات، وإنْ يكن قد تحمّلها جيّداً، لا يمكن إلاّ أن تقلق أطبّاءه وكلّ يوم. ولكنّ يوحنّا بولس الثاني هو عصيّ على الألم كما على الانتقادات حول شخصه، حتى الوشوشات حول تطوّر رجفان البركنسون عنده. ترافق كلّ ذلك غالباً أقوال قاعة الحرس. على كلّ حال، إنّ الألم الذي لا يؤتى على ذكره لأنّه لا يسبر، هو الحنين إلى الوطن الذي يخالجه أحياناً. تلك هي حال كلّ إنسان، وإن يكن بابا، ترك مسقط رأسه. حتى لا يكون هناك إشاعات كاذبة حول متابعته العلاج في أيّار ١٩٨١، حرص الأب الأقدس أن يعلن حالاً على أنّه طلب، علاوة على الأطباء الايطاليّين، أن يؤخذ رأي لجنة من أعظم أطبّاء العالم الاختصاصيّين بالمجاري الهضميّة والجراحة الأحشائيّة، مثل البروفسور Welch من Harvard Medical School، وطبيب أميركيّ آخر، وألمانيّ، واسبانيّ، وبولونيّ طبعاً، وفرنسيّ Jean Loygue، البروفسور في الجراحة الهضميّة في مستشفى Saint Antoine في باريس الذي أجرى فيما مضى عمليّة لوالدة رئيس جمهوريّتنا الحاليّ. في كلّ مرّة، كان يوحنّا بولس الثاني يدخل المستشفى كانت تستلمه الألسنة وترافقه التفسيرات الخطيرة، لا بل الشائعات الكاذبة. منذ سنة ١٩٨٠، تماماً قبل الزيارة التي قام بها لفرنسا، أُعلِنَ في صحيفة إيطاليّة أنّه مصاب بسرطان في الدم.

في كانون الأوّل ١٩٩٣، أثناء اليوم العالميّ ضدّ السيدا، وفي أحد البرامج الايطاليّة الأكثر شعبيّة على القناة الخامسة، أعلن مقدّم الأخبار ببرودة أنّ البابا قد أصيب على أثر محاولة قتله بمرض قريب من السيدا بأحكام انتقاله. إنّه لخبر غريب، ولكن ليس فيه شيء من السرّية. فبعد المحاولة، كان البابا ضحيّة هذا المرض الذي أحدث عنده نوبات حمّى. بادئ ذي بدء، إنّ هذا المزج مع السيدا كان مجرّد خيال، ومن ثمّ، لم تكن هذه العدوى سرّية، وقد شفي منها منذ زمن طويل. من المحتمل أنّ هذا الفيروس قد كان موجوداً في دم أحد المتبرّعين بدمهم أكثر الذين لبّوا نداء الأطباء. في الواقع قد خسر البابا ثلاثة ليترات ونصف الليتر من الدم.

بعد ذلك ببضعة أيّام، في أيلول ١٩٩٤، أوقظ عدد من كرادلة الكوريا من نومهم في قلب الليل. لقد أعلمتهم أحداث حزينة أنّ يوحنّا بولس الثاني أسلم الروح. وأطلَعَ Jean-louis Lucet، سفير فرنسا Le Quai d'Orsay. ها الفاتيكان في اضطراب. وفي صباح اليوم التالي، باكراً جدّاً، أعطيت الأوامر إلى سكرستيّة بازيليك القدّيس بطرس كي تقام القدّاسات لراحة نفس البابا طوال النهار. كلّ ذلك قبل أن يظهر أنّ الأمر يتعلّق بمزحة سمجة. هذا من دون أن نحصي، طبعاً، شائعات السرطان العديدة في كلّ مرّة كان يخضع فيها البابا لعمليّة جراحيّة. هذا أيضاً يجبرنا على الرجوع إلى الوراء، لنتذكّر مع ذلك مناسبات دخول البابا إلى المستشفى. ففي ١٣ أيّار ١٩٨١، الساعة الخامسة، وفي بدء المقابلة العامّة، كان يوحنّا بولس الثاني يقوم بدورة ثانية في سيّارته 4X4 في ساحة مار بطرس. أطلق النار عليه التركيّ محمّد علي Agca، ابن الثلاث والعشرين سنة، وأصابه برصاصتين: واحدة أحدثت جرحاً بالغاً في معدته وأصابته الأخرى في كوعه الأيمن وفي سبابة يده اليسرى، ممّا تسبّب في قطع رباطات يده. فنقل بسرعة جنونيّة عبر شوارع روما، إلى مستشفى Gemelli. وفي الساعة السادسة أُخضع لعمليّة جراحيّة دامت خمس ساعات. "رأيت دماً أينما كان" هذا ما شرحه بعدئذ البروفسور Crucetti، الذي بينما كان يزور مرضاه في المدينة سمع الخبر من راديو سيّارته، فأسرع تلقائيّاً إلى المستشفى ليجري له العمليّة.

فيما بعد أُخضع البابا لعمليّة جراحيّة من جديد في ٥ آب ١٩٨١، ثمّ في ١٩٨٢ استئصل له ورم في القولون. بعد عشر سنوات، في ١٥ تمّوز ١٩٩٢ أخضع لعلميّة

جراحيّة بسبب ورم في الأمعاء بحجم ليمونة صغيرة، أظهرت الفحوصات المختصّة بالأنسجة بأنّها لم تكن ورماً خبيثاً. ومن ثمّ في ١١ تشرين الثاني ١٩٩٣، أخضع لعمليّة جراحيّة بسبب كسر في الكتف الأيمن. في هذا اليوم، وبعد مقابلة مع مديري الـFAO، زلّت به القدم، إذ عَلِقَتْ رجله بثوبه الأبيض، فوقع أرضاً على الرخام. وبقي إلى وقت بلا حراك. وعندما عاد إليه وعيه، ومع أنّه كان يتألم كثيراً، أراد أن يقف لوحده وأصرّ على أن يكبس بيديه. إنّ هذا النوع من الشجاعة الجسديّة لهو رائع. عندما أخبرت لهذا الحادث من التجلّد، تذكّرت تلك الأمسيّة في آذار ١٩٨٣، التي فيها كنت أرافق Valéry Giscard d'Estaing في انحدار تزلّج بالمشاعل، وحيث وقع الرئيس السابق وكسر رجله وقرّر أن يكمّل حتّى الأسفل. بعد وصوله أخضع لعمليّة تجبير.

في ٢٤ نيسان ١٩٩٤ أخضع الأب الأقدس لعمليّة جديدة. كان في الحمّام يغتسل، فزلّت به القدم وكُسر عنق عظم فخذه، ووُضع له جهاز بديل قصير جدّاً لايزال يعرج منه حتّى الآن (رفض كلّ تدريب على المشي). أخيراً، في ١٠ آب ١٩٩٦، استئصِلت منه الزائدة. كلّ هذا نتج عنه عمليّات ثقيلة، وأسباب تعصيب عديدة وتعب مضن، وإن يكن عولج في المستشفى عينه. في غرفته سرير وكرسيّ وطاولة عمل وكنبة ومقعدان من الخيزران، وعلى الحائط صليب في غاية البساطة وصورة لعذراء Czestochowa البولنديّة. على منضدة بقرب سريره جهاز راديو. في الغرفة المجاورة نُصب له مذبح كي يستطيع إقامة القدّاس ما أن يتمكّن من ذلك. هناك بين هاتين الغرفتين ثالثة للنجدة، ويقيم فيها أمين سرّه الخاصّ. قال يوحنّا بولس الثاني وهو متّجه ذات يوم إلى المستشفى: "غدوت أعرف Gemelli". من الآن وصاعداً وفي حالة الاستعجال يُنقَل إلى مستشفى Saint Charles de Nancy في الفاتيكان. في أجنحته الخاصّة يوجد دوماً طبيب بقربه؛ فالأخت Tobiana الراهبة من راهبات Servantes du Sacré Coeur de Jésus، وإن اشتهرت بأنّها ممرّضة فهي قبل كلّ شيء طبيبة. ولكنْ، لمّا كانت قد تابعت دروسها في بولونيا، لا تستطيع الممارسة في روما بشهادتها البولنديّة، لأنّ شهادتها الجامعيّة غير معترف بها في إيطاليا. لهذا، هي تحمل رسميّاً لقب ممرضة، لا لقب طبيب. إنّ لفي الأمر أكثر بساطة. هذا مثل من أمثلة كثيرة يوضح، بسهولة، العلاقات المتوتّرة دوماً بين الايطاليين والبولنديين في الكرسيّ الرسوليّ.

وإنْ كان خليفة مار بطرس المئتين والرابع والستين يتحمّل أمراضه، هل يفكّر بالاستقالة إذا ما ساءت صحّته جدّاً؟ كان على وشك بلوغ التاسعة والسبعين من عمره، عندما صرّح قائلاً: "أجدّد أمام المسيح ذبيحة استعدادي كي أخدم الكنيسة حسب إرادته مستسلماً لارادته القدّوسة هذه. له هو أن يقرّر وفق إرادته كيف ومتى يعفيني من هذه الخدمة". بعد بلوغه الثمانين، هناك مشاريع عديدة غالية على قلب يوحنّا بولس الثاني، الذي عكس ما يخبر بانتظام بعض الفاتيكانيين ذوي المخيّلة المجنّحة، ليس مستعدّاً أن يعتزل في دير يقع على قمّة من قمم بولونيا يخيّم عليها السكون. الشيء الذي لا يقرّه أبداً المسؤولون السياسيّون العظام في العالم. هذا الإنسان الآتي من وراء الستار الحديديّ يبقى في نظرهم البطل الجبّار في مربّعات الشطرنج السياسيّة العالميّة، تشهد على ذلك البرقيّات العديدة التي تحمل له أمانيهم بمناسبة عيد ميلاده الثمانين. إنّها براهين على مشاعر ودّية تسلّمها من رئيس الجمهوريّة الايطاليّة Carlo Azeglio Ciampi طبعاً، ولكنْ وأيضاً من ياسر عرفات، من Bill Clinton، من Gerhard Schröder، من ملك المغرب محمّد السادس، من Michael Gorbatchev، من Ehud Barak،من José Maria Aznar، من عبد العزيز بوتفليقة، من حاخام أورشليم الأعظم، من بطريرك موسكو وغيرهم آخرين. لم ينسه ولا كبير من كبار هذا العالم.

عدد كبير منهم، أرسلوا له هدايا، كما فعل ذلك عدد لا يحصى من المؤمنين العاديين. ومن الممكن أيضاً بواسطة محطّة الانترنت: www.Vatican.va إيصال هدايا لصالح أعمال الرحمة العديدة التي تديرها Cor Unum المجلس البابويّ لأعمال المحبّة. على هذه المحطّة التي تديرها الراهبة الأميركيّة Judith Zoebeleine المشهورة في الفاتيكان باسم "الأخت Internet" يمكن الحصول على كلّ أنواع الاستعلامات العمليّة حول الفاتيكان.

وأنا أنظر، إلى صورة يوحنّا بولس الثاني التي سلّمني إيّاها المونسينيور Dziwisz في نهاية حديثنا، لا يمكنني أن أمتنع عن التفكير بأنّه إذا كان أحد أكبر فاعلي التاريخ العظام لهذا العصر قد تغيّر ولا شكّ شديد التغيير، فإنّه مع هذا قد كان رفيق درب أشخاص عظام من أجيال متعدّدة لم يبقَ منهم على قيد الحياة سواه وFidel Castro.

الفصل السابع

علبة من السردين في قصر من المرمر

بالنسبة إلى البابا، العطلة الصيفيّة مهمّة، بل مقدّسة تقريباً. وكان عليّ أن أختبر ذلك على حسابي نهار الأربعاء ١٤ آب ١٩٩٦. فقد نجحت في الحصول على مقابلة يوحنّا بولس الثاني في مقرّه الصيفيّ في Castel Gondolfo حيث كان يقضي عطلته الصيفيّة، تماماً قبل زيارته لفرنسا. كنت أرجو إقناعه بأن يمنحني حديثاً، كي تتمكّن صحيفتي من طبعه في صفحتها الأولى يوم وصوله، الذي يقع بأعجوبة يوم البيع في الكشك. ما إن انحنيت باحترام أمامه وقبّلت خاتمه الحبريّ حتّى عاجلني قائلاً: "قصارى القول أنّك تريدين أن تفيدي من مجيء البابا إلى وطنكم الجميل، فتكتبين تقريراً حوله. ولكنّ البابا في العطلة الصيفيّة هو صامت، والفرنسيّون ستكون لهم الفرصة وبوفرة لكي يروه الشهر القادم. عليك أن تنتظري". لم أضبط نفسي تماماً أمام هذه الخيبة، لأنّي ما تخيّلت ثانية بأنّ البابا أجابني هذا الجواب، وقد حصلت على هذه المقابلة، فرحت أزمّ شفتيّ.

بلباقة لا تقارن وظرف معهود، وتحت نظر البابا الفرح وغير المتأثّر أبداً، ربّت المونسينيور Dziwisz على يديّ ليعزّيني، وقال لي بصوت خافت كما لو أنّه يحمّلني سرّاً: "ليس للوقت المعنى عينه هنا. أنا أعرف أنّك بانشائك تفكّرين وفقاً للأيّام، ولكن لي الثقة بأنّك تعرفين أن تشرحي للآخرين بأنّنا نعمل هكذا منذ ألفي سنة".

عندئذ فهمت بأنّ العطلة بالنسبة إلى البابا تشكّل نوعاً من الواجب. عليه أن يستعيد قواه ليتمكّن من القيام بخدمته ومن متابعة أسفاره عبر العالم. من المؤكّد أنّه

يؤمن بأنّ العذراء تحفظه منذ محاولة قتله في ١٩٨١. ولكنّه يعلم أنّه لا يمكنه أن يعمل فوق طاقته. إنّ إيمانه بالعذراء لا يعني أنّه يرجو منها أن تتكرّم عليه بعجائبَ دائمة.

لا يريد يوحنّا بولس الثاني أن يجرّب الربّ كما شرح لي أحد المقرّبين إليه. إنّه يعرف أنّ جسده الهرم هو بحاجة إلى عناية، وإنْ يكنْ رأس الكنيسة، فلا يمكنه أن يعتمد على إنعام الهيّ. لهذا، إنّه يصرّ أن يكون له عطلة حقّة، ويطالب بأن تُحْتَرَمَ. إنّه يتحمّل كلّ آلام صحّته المتداعية، ولكنّه يعتبر أنّها خيانة لعمله ألاّ يأخذ ذلك بعين الاعتبار، وألاّ يعيش بطريقة معقولة.

يحظى الجبل بانعامات الأب الأقدس. إنّه أفضل مورد بالنسبة إليه ومنذ زمن طويل، وبوجه عام في شهر تمّوز.

فليعش البابا! فليعش البابا! يهتف الشعب المتحمّس. إنّها الظهيرة والطقس حارّ في Lorenzago di Cadore. إنّهم مئات من البشر: أولاد يرتدون للمناسبة ثياباً باللونين الأصفر والأبيض، كشّافة، شيوخ وعائلات بأكملها محتشدة في ساحة القرية ليقتربوا من يوحنّا بولس الثاني وليلمسوه ويصفّقوا له ويحيطوا به. "فالانسان ذو الثياب البيضاء"، الذي يرونه طوال السنة على التلفزيون وفي الصحف وضمن إطار الفاتيكان الرائع، محاطاً برؤساء الدول والشخصيّات الكبيرة أو بالأحبار العظام، ها هو فجأة أمامهم ووجهاً لوجه.

فالقرويّون وعاشقو الجبل الذين اختاروا ألاّ يلتزقوا تحت الشماسي على الشواطئ الايطاليّة في بحر الـAdriatique والـLigurie، قد حصلوا على المكافأة هذه المرّة، لأنّهم لا يلتقون كلّ يوم بالحبر الأعظم في العطلة وهو يقوم بنزهة. إكراماً له يلوّح جمع المؤمنين بطريقة عفويّة بمناديلهم ومحارمهم وأعلامهم مادّين إليه أيديهم. فيقبّل الأطفال ويضع إشارة الصليب على جباه النساء ويأخذ أيدي آخرين...

لمّا كان الحبر الأعظم يحبّ المساحات الرحبة، ها هو يذهب للمرّة السادسة إلى قرية des Dolomites، الواقعة بين Venise والحدود النمساويّة، حيث أمضى في تمّوز ١٩٩٩ خمسة عشر يوماً من الراحة بعيداً عن القصور الرومانيّة. وقليلاً ما يهمّ عاشقي هذا المنظر الساحر والذين يقضون العطلة فيه، أرثوذكسيّة أسقف روما المتشدّدة

والمتجادل فيها وعظاته الأخلاقيّة. ما يريدونه هو أن يقوّوا قلبه. حذّاه ملوّنتان أكثر من العادة، يده اليسرى ترتجف، إنّه محدودب، يسير بخطى وئيدة وغير ثابتة متّكئاً على عصاه الخيزرانيّة، فهو ها هنا بحذائه الكبير كالذي كان ينتعله في جبال Carpates! غادر المدينة الخالدة ليذهب ككلّ إنسان إلى الجبال وليملأ رئتيه الهرمتين من هواء جبال الألب النقيّ. ها هو على ألف متر فوق سطح البحر. لا ينقصه هنا سوى النباتات العشبيّة ذات الأنابيب الزهريّة وأغاني Heidi وعائلة Vontrapp بالبناطلين الجلديّة البتروليّة، والقبّعات المخطّطة بريش العصافير، والكنزات الرماديّة والخضراء ذات الأزرار الفضيّة. فالذين يقضون العطلة هنا يحلمون كلّهم أن يصافحوه وبقوّة، ويضطربون إذ يقع نظرهم على نظره. ولمّا كانوا قد قرأوا في الصحف بأنّ البابا يتقبّل طوال السنة الهدايا من كبار هذا العالم، يحملون إليه هدايا على قدر مستطاعهم: باقاتٍ من الزهر، خبزاً، عسلاً، لحوماً مجفّفة، سلاّتٍ من كبوش التوت، جبن ماعز، عناقيد عنب وقناني عرق... إنّهم رأوا أنّ ابتسامة البابا التي كانت منذ حين مضيئة، هي في بعض الأحيان منقبضة بسبب الألم. إنّ جوّاً من السعادة الألبيّة يسود في ما بينهم. ورمز الراعي مع عصاه كحاجّ أيخذ هنا كلّ قوّته. فالبابا مرتاح جدّاً، وهو ليس بحاجة إلى أن يشدّد بلهجة إيطاليّة، عندما يشرح "بأنّ الجبال تصقل الأخلاق بزهد شجاع، وتحمل الطمأنينة إلى الروح بفضل الاتصال بالطبيعة". إنّ Karol Wojtyla ليتذكّر بدون شكّ الأغنية البولنديّة التي يعبّر فيها قرويّ عن حنينه إلى وطنه، وقد ترك الجبال ليكسب رزقه في المدينة. حتّى، وإنْ يكن لم يبقَ له الصوت الجهوريّ الذي كان له في بدايات عهده، فإنّما تبقى لهذا الصوت حرارته. إنّه قابل للتأثّر بهذا الجوّ الفرح جدّاً، بمعنى أنّه اندفع بسخاء ليدعو جنرالاً المدير المسؤول عن البوليس الايطاليّ، الذي توجّه شخصيّاً إلى Lorenzago ليقدّم له تحيّاته. إنّ هذا الموظّف الرفيع بلباسه الأزرق المثير للزهو يتحمّل مسؤوليّة ثقيلة، بعلاقة وثيقة مع بوليس الفاتيكان، ألا وهي أن يضمن منذ سنوات الأمن عن قريب للحبر الأعظم.

في الواقع، إنّ لدى الجمهوريّة الايطاليّة كلّ المجاملات بالنسبة إلى يوحنّا بولس الثاني. فهي، بتنسيق مع السماء، تقوم بحراسته في العطلة بواسطة موظّفين إيطاليّين. وهذا ما لا نتصوّره نحن. تصوّروا أيّة ضجّة تحدث، إذا ما قدّم الرئيس شيراك أو وزير الداخليّة، الذي هو في الوقت نفسه وزير الأديان، للكاردينال Lustiger طائرة الجناح

الجويّ الوزاريّ لنقله بلطف أثناء عطلته من مكان إلى آخر، والقيام بحراسته في الصيف بواسطة الأمن العام. فالايطاليّون يحبّون هذا الانسان القدّيس الذي يرخص كلّ شيء بالنسبة إليه. أليس أنّه وجههم الرمزيّ في ما وراء الأربعة والأربعين هكتاراً التي تشكّل مساحة الفاتيكان؟ كلّ يوم وفي كلّ صحيفة من الصحف الايطاليّة حتى اليساريّة منها، هناك عنوان يتعلّق بالبابا، ولدى كلّ مجلّة أسبوعيّة محرّر مختصّ بالبابا. تنقل R.A.I. (شبكة التلفزة الحكوميّة) البركة البابويّة كلّ أحد ظهراً ومباشرةً. علاوة على الحرس السويسريّ، فإنّ البابا هو تحت حماية قوى خارجيّة، إذ إنّ الحرس السويسريّ المهيب لا يعتبر أفراده غرباء، لأنّهم طوال التزامهم هم مواطنون موقّتون في الكرسيّ الرسوليّ. بالمقابل إنّ أفراد البوليس الايطاليّ هم إيطاليّون، وعليهم ألاّ يتدخّلوا إلاّ لمراقبة ساحة القدّيس بطرس المفتوحة للجمهور، بموجب اتفاقيّات De Latran بين إيطاليا والفاتيكان. كما أنّ الحكومة تضع، تهذيباً، طيّارة بتصرّف البابا بمناسبة العطلة لتنقّلاته داخل الـBotte. ويقدّم له رئيس الجمهوريّة طائرته الهيليكوبتر لينتقل من روما إلى Castel Gondolfo، ولكي يرجع إلى روما للمقابلة العامّة يوم الأربعاء. هكذا، ولا أحد يفكّر بأن يعترض.

في إطار هذه النشرة الصباحيّة دعا أيضاً يوحنّا بولس الثاني قائداً عاماً رئيس الـVigilanza الضخم Camillo Cibin إبن الأربع والستين سنة الذي يركض إلى جانب سيّارته منذ أكثر من اثنتين وعشرين سنة، والذي خطّط له طريقه دائماً في الأوضاع الأشدّ خطورة. وأخيراً عيّن رسميّاً مونسيوري الأب Adelardo da Prà خوري رعيّة Lorenzago di Cadore. إنّه امتياز مرفق هذه المرّة برسالة تحمل الامضاء الرسوليّ وممهورة بختم الكرسيّ الرسوليّ المشهور. لقد استحقّ Adelardo da Prà هذه المكافأة، إذ إنّه بوسائل صغيرة جعل الكنيسة الرعائيّة تتلألأ كلّ مرّة كان يأتي البابا إليها، وتوفّق أيضاً بأن يرسم بطريقة ناجحة شعار يوحنّا بولس الثاني على برج الجرس. بالشبه الكاذب الذي له مع Don Camillo، إنّ Don Adelardo da Prà هو في الحقيقة خوري جبليّ. وKarol Wojtyla يحبّ هذا الكاهن الشيخ الذي يكبره بعشر سنوات، والذي يحمل بين ذراعيه منذ نصف قرن هذه الرعيّة الرائعة. إنّه يذكّره، بحنينٍ، برجال كنيسة بولندا الشجعان في الزمان الغابر، الذين كانوا ينهكون أنفسهم في الخدمة حتى النَفَسِ الأخير.

من جهة أخرى، قبل أن يرقّي البابا Don Adelardo da Prà إلى رتبة مونسينيور، دعاه ليأخذ معه فنجان قهوة وقال له: "إنّي أفتّش دوماً وأبداً عن واعظ يبشّر بالانجيل، له ذات القناعة التي لك". ولشدّة تأثره راح هذا الخوري الطيّب يذرف الدموع أمام يوحنّا بولس الثاني، وكإيطاليّ طيّب راح يقوم بحركات كبيرة بيديه ليسيطر على انفعالاته. أليس أنّ هذا النهار هو الأجمل في حياة هذا الانسان البسيط ابن الستّين سنة، الذي كرّس حياته الطويلة للربّ؟ وها هو ممثّل الله على الأرض يكرّم مَنْ أَسَرَهُ بلطفه (خادم بضع مئات من النفوس في غير أوانها، بضعة آلاف في أشهر التزلّج وفي الصيف). وكم اضطّرب وسها لمّا سلّمه المونسينيور Stanislaw غنباز المونسنيور الأسود ذي الشريط الزهريّ والأزرار الزهريّة.

وتبدو الغبطة على وجه يوحنّا بولس الثاني، وهو يحمل عصاه بيده اليسرى وسبحته باليمنى. إنّ مرتفعات الـDolomites تحمله بالخيال إلى جبال بولندا، بلده الأصليّ. فمن صيف إلى آخر، البرنامج هو نفسه. إنّما بعد أن كسر عنق عظم جنبه، استبدل جولاته الطويلة في الجبل بجولات في عربة تسير على أرض مألوفة. فالبابا الذي يقضي حياته، وهو يصعد نحو الأبديّة، يسير من وقت إلى آخر بضع خطوات على درب في الغابة، ليبرهن لنفسه بنفسه أنّه يقدر بعد على ذلك. فبضعة أمتار تبدو له كيلومترات. كم كانت دهشةُ جبليٍّ أُحيل على التقاعد، ذات صباح، وكان ينظّف ثمرات فطرٍ على عتبة خيمته، أن يرى فجأة بالقرب منه وجهاً يعرفه، ويلبس غمبازاً أبيض تحته بنطلون رماديّ، وكنزةً ومعطفاً رماديين. تردّد برهة قبل أن يقفز عن كرسيّه الخشبيّ الصغير.

"إنّما أنت البابا!".

– نعم أنا البابا. إنّي أعتذر لأنّي أحدث جلبة حيث أمرّ. هذا ما أجاب به يوحنّا بولس الثاني الجبليّ المنذهل. "وعرض عليه هذا الجبليّ قائلاً: إنّه لشرف كبير لي أن تقبل منّي هذه الثمرات من الفطر، وأن تشرب كأساً من عصير البرتقال. مع الأسف، لقد نزلت امرأتي إلى الوادي حتى تؤمّن لها محلاًّ في القدّاس الذي ستحتفل به يوم الأحد لنواطير الغابة. وها أنت تصعد إلى خيمتي في هذا الوقت".

علامة رضى منه، أخرج البابا من جيبه مسبحة من عرق اللؤلؤ هديّة لامرأة الجبليّ، وهي مسبحة من المسابح المسكوك عليها من جهة أيقونة العذراء ومن جهة ثانية شعار

البابا. بعدئذ، بارك القرويّ القويّ وغادر وهو يبتسم يرافقه Dziwisz الأمين وعضوان متخفيّان من الأمن المقرّب. بعد القدّاس صباحاً في الشاليه، يصعد البابا كلّ يوم في الـLand Rover ليقوم بنزهة، وليتناول الطعام على ضفّة ساقية أو في ظلّ الأشجار يرافقه أمين سرّه الخاصّ ومصوّره، وأحياناً يصحبهم ضيف طارئ. إنّ ظلال أشجار الصنوبر والأرز لهي مفيدة لرأس الكنيسة الكاثوليكيّة الروحيّ أثناء أخذه قسطاً من الراحة في الجبل. طعام الغداء ليس فيه إخراج مصطنع، إنّما يتناوله البابا على الطريقة الانكليزيّة، إذ على شرشف مشمّع مفروش على العشب المجتز، بشكل خالٍ من كلّ عيب، ترتّب لوازم المائدة من الفضّة، وآنية صينيّة Royal Crown تستعمل ليُقدّم عليها كلّ أنواع السندويش الصغير المحشوّة بالسومون وبالمدخَّنات اللذيذة الناعمة... بالنسبة إلى يوحنّا بولس الثاني كما يقول: "الحريّة إنّما هي علبة من السردين، وبعض البيض المسلوق، وأجبان نتناولها بواسطة سكّين تستخدم في المخيّم مع كأس نبيذ أبيض محلّيّ مقطوع بماء الجبال". إنّه معتاد على السردين الكبير المستورد من روسيّا، والموجود في كلّ البلدان القديمة الشيوعيّة. إنّه يتناول منه حتى في الفاتيكان في قصره الرخاميّ. باختصار، إنّه يتمتّع بلذّة، وحقّاً بهذه العطلة الصيفيّة البعيدة عن الرسميّات، ترافقه فيها بطريقة خفيّة دوريّة من عناصر الأمن على طرف المكان الذي يكون قد اختاره لقضاء نهاره.

إنّ ما يشغل البابا إنّما هي حياة الشاليه في بيت جميلٍ من الخشب والكلس، تزيّن شبابيكه نباتات من الـGéranium. إنّه كناية عن بطاقة بريديّة. يوجد الشاليه وسط حديقة Mirabello المسوّرة، والأمن يقتضي ذلك، بأشجار غضّة وسياجات عالية. إنّها قطعة أرض مشجّرة خاصّة، بعيدةَ عن القرية. تصعد ست درجات، وبعدها تجد المطبخ على شمالك، وقاعة الجلوس على يمينك. إنّه مؤلّف من طابق واحد، إحدى غرفه هي لنوم الأب الأقدس، والأخرى تصلح بأن تكون مكتبه وغرفة للاستقبال. إنّها غرفة في غاية البساطة. إنّها لشبيهة بتلك التي كان يشغلها Karol Wojtyla عندما كان رئيس أساقفة Cracovie، والتي ما كانت تحتوي سوى على سرير صغير من الخشب الداكن وعلى بعض لوحات دينيّة وصورة جبل، وطاولة قرب السرير وقنديل مع عاكس للنور من القشّ. لقد اتّصف الأب الأقدس دوماً بحبّ التجرّد. إنّ قاعة الطعام في الشاليه مزوّدة بجهاز تلفاز يفتحه من وقت إلى آخر. وتحوّلت غرفةٌ أخرى إلى كابيلا. وبالقرب هناك

غرفة حمّام مع مغسل جهّز بمسكات قويّة وببلاط مضادّ للإنزلاق، بعد أن تعرّض البابا لحوادث عدّة. إنّ هذا الملك الصغير المتواضع، الواقع على طرف غابة ذات روائح نسغيّة، تملكه مطرانيّة Belluno. فالراهبة Tobiana التي لا تترك الأب الأقدس أبداً، تستعين هنا بثلاث راهبات من جمعيّة محلّية. إنهنّ يتفرّغن للأعمال البيتيّة، ويهيّئن له طعاماً بسيطاً وبلديّاً: من الشوربا، والمعكرونة القصيرة، والفطر، واليخنة، والخنزير، وأجبان الجبال القاسية، والألبان، وفريز الغابات، وكبُوش العلّيق وكعكات كبُوش التوت.

يتباهى الايطاليّون باستقبالهم هذا المصطاف التقيّ الذي، كي لا يغيظ أحداً، هو مجبر أن يمضي عطلته بالتناوب من سنة إلى سنة بين جبال الألب الشرقيّة وجبال الألب الغربيّة. وهكذا، إنّه يتنقّل بين Dolomites وVal d'Aoste في Combes، التي تقع تماماً على خمسة عشر كيلومتراً من Aoste. إنّه يذهب إلى هناك في تمّوز ٢٠٠٠ للمرّة الثامنة. إنّها قرية صغيرة يقطنها خمسون جبليّاً في الشتاء، وبضعة آلاف في الصيف (خاصّة بعد أن صار يمضي عطلته فيها). وهي تعلو ألفاً وأربعمئة متر عن سطح البحر، وتبعد عشرات الكيلومترات عن الحدود الفرنسيّة. إنّه، يوم عيدنا الوطنيّ يسرّ بأن يتأمّل الأسهم والمفرقعات الناريّة التي تطلق من الوادي المقابل، وإنْ يكن لا يمكن مقارنتها بالأسهم الناريّة الباهرة التي تقدّم على شرفه إبّان السهرات المسرحيّة كسهرات أيّام الشبيبة العالمّية. يشغل البابا شليهاً جديداً بناه الآباء الساليسيّون من Turin ليصلح مكاناً لتمضية العطلة في فصل الشتاء. إنّه يشتمل على مصعد، شيء مهمّ بالنسبة إلى البابا. فالشاليه الذي وُضع بتصرّفه في السنين السابقة، كان يشتمل على درج قاسٍ يصعد درجاته بصعوبة. تقطنه الآن الراهبتان Tobiana et Germana. لقد خفّضت حاشية البابا إلى أقلّ ما يمكن، وأصبحت مؤلّفة من الأشخاص الذين يصحبونه عندما يذهب إلى Lorenzago، أي من المونسينيور Stanistaw Dziwisz وAngelo Gugel ومن الطبيب Buzzonetti وأحياناً من مدير قاعة الصحافة Joaquin Navarro-Valls. إنّهم يسكنون على مقربة منه، في مدرسة الحطّابين ونواطير الغابات الصيفيّة (تستأجرها المطرانيّة المحليّة أيضاً). للمناسبة أُعيد تشغيل فرن حجريّ قديم، والبستان يغزر بالخضار من البطاطا والكرّات، والشمندر الأحمر والفريز، والريباس والكشمش... تقع القرية عند أقدام صخرة الصليب، وعلى طرف الحديقة الوطنيّة Du Grand Paradis.

إذا كان سكّان القرية يحترمون الحبر الرومانيّ ويتحاشون مضايقته، فالبلديّة وهي أكثر ماديّة، قد عرفت بشطارة أن تجني بعض الفوائد الجوهريّة من حضوره. لقد أعدّت في قاعة من المركز البلديّ متحفاً صغيراً، تعرض فيه ذكريات أجنبيّة قدّمها لها البابا. إنّها مرتّبة بين صور وقطع نقديّة بابويّة.

إنّ إقامة الأب الأقدس في Combes كما في Lorenzago هي إقامة خاصّة تماماً. إنّما، حتّى لا يخيّب آمال بعض المصطافين الأتقياء، فهو يتلو معهم مرّة التبشير الملائكيّ يوم الأحد. في هذه السنة توافد المؤمنون منذ الساعة السابعة والنصف ليحضروا هذه الصلاة. عند الظهر، ساعة تلاوة التبشير الملائكيّ، بلغ عددهم ما يقارب الخمسة آلاف أقلّتهم سيّارات بلغ عددها ألفاً وثلاثمئة وخمسين سيّارة. لقد استخدمت الحقول كلّها كمواقف. جلس البابا على منصّة من خشب. واستقبلته جوقة أولاد الـGrand Paradis. ألقى كلمة صغيرة ليشكر السلطات المحليّة، وممّا جاء فيها: "Les Combes هي مكان هادئ حيث يستعيد الانسان قواه الجسديّة، وحيث الروح يمكنه أن يتكرّس للتفكير والتأمّل... ولكنّني أفكّر بنوع خاصّ بأولئك الذين ليس لهم من الوسائل ما يمكّنهم من أخذ عطلة وهم باقون حيث هم. إنّي أبارك المرضى والشيوخ والمساجين والناس الذين يعيشون وحدهم...".

ليس هناك اتصال عام آخر محدّد مع الشعب، اللهم لقاءات طارئة. ففي الأوّل من شهر تمّوز من كلّ سنة، يقول البابا من شبّاكه الذي يطلّ على ساحة مار بطرس: "أتمنّى للجميع راحة جيّدة وعطلة طيّبة". لقد منعه محيطه وتعبه أن يرأس هذه السنة أيّة حفلة دينيّة في Combes. فيما مضى، كان يذهب بطريقة منتظمة إلى الجوار، إلى Quart، حيث راهبات الكرمل فيصلّي معهن. هذه المرّة هنّ أتين للصلاة معه.

عندما يقيم البابا في الألب يسهر على شخصه تنظيم فعّال من نواطير الغابات، وعربات مبتذلة، ورجال بوليس مع الكلاب، وشُرُط من الفاتيكان يرتدون ألبسة مدنيّة، يعرفون لا محالة من هواتفهم اللاسلكيّة، وعربة إسعاف للانقاذ على عجل. كلّ هؤلاء هم على مقربة منه، وقبل كلّ شيء هناك طائرة هيليكوبتر.

هذه الاقامات الألبيّة يعشقها يوحنّا بولس الثاني كثيراً، ذلك أنّها تزوّده بالشعور بأنّه طليق، وتمكّنه من أن يستريح من أتعابه اليوميّة بقية السنة. فاليوبيل الكبير والمئة من

المشاريع المبرمجة له، لم تسنح له في الفاتيكان بالوقت الضروريّ كي يتأمّل بهدوء. في Combes أثناء هذا الصيف لم يتنزّه كما في الماضي بسيّارة المرسيدس الضخمة ولا بالرانج روفر، بل أعطى نفسه نزهات قصيرة على القمم التي بلغ إليها بطائرة الهيليكوبتر. رافقه صديقه اللاهوتيّ Tadeusz Styczen الذي أتى ليمضي معه بضعة أيّام.

يحتفل البابا بقدّاسه في السابعة والنصف ويصلّي ويتأمّل. يصلّي شحيمته ويأخذ قيلولة على كرسيّ ويسمع، على مثال القدّيس فرنسيس، غناء الطبيعة. ويقرأ أيضاً كتباً في التاريخ والفلسفة واللاهوت. لقد حمل معه هذه السنة حقيبة ضخمة من الكتب. يكتب على أوراقٍ الأفكار التي ستغذّي أحاديثه القادمة. ويسجّل أيضاً أفكاره حول المواضيع التي سيعالجها في المستقبل وحول المشاريع العزيزة على قلبه: رسالته الراعويّة الجديدة أو مجمع الأساقفة المقبل. فالبابوات لا يُعطون إلاّ ما ندر أحاديث إذاعيّة أو مقابلات صحفيّة. في الواقع، إنّها محادثات بسيطة. إنّهم يتحدّثون عامّة إلى جميع المؤمنين تحت شكل رسالات عامّة: رسائل بابويّة، براءات، خطابات رسميّة. إنّ جمال القمم لهو مؤاتٍ لهذا النوع من التمرين الدينيّ والثقافيّ. إنّ يوحنّا بولس الثاني يمارسه من زمن طويل. يخبر المونسينور Thadeusz Styczen بكلّ سرور، أنّه عندما كان لا يزال Karol Wojtyla رئيس أساقفة Cracovie، هتف له ذات يوم ليسأله أن يقوم معه بنزهة في جبال Tatras. فبعد أن قضى المونسينيور Styczen ليلة في القطار لينضمّ إليه، سارا معاً ساعاتٍ في صمتٍ مطبِق الشيء الذي أغاظه، هو الذي لم يره منذ زمن بعيد. لقد كان رئيس الأساقفة Wojtyla غارقاً في أفكاره وفي الصلاة، حتى أنّهما اجتازا سيراً على الأقدام الحدود الشيكوسلوفاكيّة من دون أن يتنبّها لذلك. وها فجأة يوقفهما وبعنف حارسان مسلّحان قاسيان ما كانا ليتسلّيا، وبصعوبة صدّقا أنّ هذا الرجل الذي يرتدي بنطلوناً رمادياً كالذي يرتديه الجبليّون هو حبر من أحبار الكنيسة البولنديّة. ذكريات جميلة لهذا البولنديّ القويّ الذي كان يعشق المشي، قبل أن تجبره المناسبات على التخلّي عن هذه المتعة. حتى أثناء العطلة لا يدّخر الحبر الأعظم وقته أبداً، كما يُخبر عن ذلك صديقه منذ المدرسة الاكليريكيّة Franciszek Macharski: "إذا لم يصلِّ ولم يقرأ، يشعر بأنّه أضاع وقته". بهذا المعنى قد أعطى السنة الماضية دروساً حول البيئة المسيحيّة لأبناء المنطقة.

"فكّرت بدور الانسان في الكون. فالكائن البشريّ يتولّى مسؤوليّة نوعيّة تجاه البيئة، ليس فقط للمحافظة اليوميّة عليها، بل بما عليها أن تقدّمه للأجيال الطالعة. إنّ أساسات البيئة الكبيرة إنّما نجدها في الكتاب المقدّس. لهذا، يجب علينا، يوماً بعد يوم، لا احترام القيم الأرضيّة والحفاظ عليها فقط، بل إعطاؤها في القرن العشرين تطوّراً متناغماً. فالجبل ليس فقط منظراً جميلاً نتأمّله، بل إنّه تقريباً مدرسة حياة. فيه نتعلّم أن نتعب لنصل إلى نصف الطريق. وأحياناً نتعاون لنتغلّب على الصعوبات ونقدّر نسبيّة كياننا".

أعيد نشر هذا النصّ، وأعيدت إذاعته بطريقة واسعة.

أيّام كان لا يزال الأب الأقدس يتمتّع بكلّ قواه الجسديّة، غدا حبّه للقمم وجهده للهرب إلى الجبل وإلى محطّات التزلّج في الألب والـApennins مألوفاً لدى الرأي العام. وهكذا، بسبب حضوره المواهبيّ جعل، عبر السنين، من فكرة أنّ للبابا أيضاً حقّاً بعطلة صيفيّة، فكرة مقبولة. والشيء الذي لا يصدّق، أنّه بإمكانه أن يلبس ثياباً أخرى غير الغمباز الناصع البياض، والـCamail البيضاء، والزنّار العريض من اللون نفسه، والجوارب الطويلة، والأحذية "البوردويّة". فمنذ قراره الأوّل في صيف ١٩٨٤، كي يصعد إلى ثلاثة آلاف متر فوق سطح البحر وينزل متزلّجاً منحدراً جليديّاً، اكتسب منذ ذلك الحين حقّه بفسحة من الحريّة. كان من الممكن أن يمرّ هذا القرار خفيّةً. لقد أراد البابا أن يذهب متخفّياً إلى مجلّد جبل Adamello. ولكن وزارة الداخليّة لم تتجاسر أن تأخذ على عاتقها هذه المسؤوليّة الجسيمة، فأخطرت رئيس الدولة Sandro Pertini بهذه الطرافة البابويّة، بالرغم من بلوغه سن الثمانية والثمانين. عندئذ قرّر Pertini الشعبيّ أن يرافق الحبر الأعظم شخصيّاً، وأن يدعوه ليسافر معه على متن طائرته الرئاسيّة، فانتهى الأمر بأن يكون علنيّاً. وحتى لا يتعرّضا للحشريّة في المصعد، فقد بلغا أعلى المدارج بعربات مزنجرة.

مع عزم ذلك الذي هو مستعدّ وبصبرٍ أن ينقل الجبال، وبالارادة نفسها الظاهرة للعيَان منذ اثنتين وعشرين سنة، متخطّية الأمراض والعمر وموكب الانتقادات التي يثيرها، حتى يفرض فكرةً ما كاثوليكيّة، جذّف بطريرك الغرب عكس تيّار أسلافه. لقد نجح بأن يجعل ممّا هو غريب، وممّا احتلّ الصفحة الأولى من الصحافة العالميّة، قبل

عشرين سنة، شيئاً تافهاً. وما لا يمكن تخيّله عندئذ، هو رؤية خادم خدّام الله على زلّاجات أثناء العطلة، كما منذ عهد قريب رؤية Valéry Giscard d'Estaing أو John kennedy.

ما إنْ تمّ انتخاب يوحنّا بولس الثاني، حتّى راح يقوم بزيارة d'Agordo Canale في Vénétie، القرية التي هي مسقط رأس سلفه بطريرك Venise، إكراماً له وكي يلتقيَ عائلته وحيث قدّم له Helmut Schmaltzl مدرّب الفريق الوطنيّ الايطاليّ للتزلّج هديّة جريئة نوعاً وفريدة في ذلك الزمان. هل يمكنك أن تتصوّر هديّة من زوج سكي أبيض رائع، كلّه صنع يد نجّار شهير يدعى Cortina d'Ampezzo. فالاختصاصيّ بالبابوات ومراسل وكالة France presse في روما، قال عندئذ للمدرّب أنّه كان بإمكانه ومن الأفضل أن يقدّم للبابا زهوراً أو لوحة. هل بإمكانك أن تتصوّر أنّ البابا، وإنْ محاطاً بالحرس السويسريّ، يذهب يوماً ليهبط المدرّجات بسرعة؟

وقد يمكن أنّ Bruno Bartoloni كان يأمل في سرّه، أنّ الحبر الأعظم يترك له هذه الهديّة غير المعقولة، فسأله بسلامة النيّة:

"هل تتخيّل أيّها الأب الأقدس، إنّ بإمكانك ذات يوم أن تلبس هذا الزوج من السكي"؟

– أجابه: "إنّي أصلّي كلّ صباح حتّى تجنّبني السماء هذه التجربة".

وإنّا نعرف النهاية.

لقد ربح Karol Wojtyla هذا الرهان الجريء، كي يمنح ذاته وبانتظام هذا الوقت من الاستجمام في الجبل. سأله صحافيّ ذات يوم، إذا ما كان الفاتيكان سجناً ذهبيّاً، فأجابه على الفور: "وجب أن يكون هذا السجن لنقيّم هذه الحريّة وبطريقة أحسن". ممّا أسكت المؤمنين الشديدي التمسّك بالتقاليد البابويّة.

لقد حافظ يوحنّا بولس الثاني، مع تقدّمه بالعمر على تذوّق التزلّج. ففي الرابع من نيسان ٢٠٠٠، ما إن عاد من سفرته إلى الأراضي المقدّسة وبدون أن يُخْطِرَ أحداً حتّى ولا شرطة الأمن، اختفى النهار كلّه. لقد غادر الفاتيكان خفيةً في الخامسة والنصف: استقلّ سيّارة أجرة BMW سوداء وزجاجها أسود، يرافقه المونسينيور Dziwisz والطبيب الدكتور Buzganetti ورئيس خدمِهِ ورئيس الأمن Camillo Cibin. لم يعلم أحد، إلى أين

ذهب. لقد تسلّل بمحاذاة الحائط. "لقد تعلّق الأمر بفسحة من الحريّة الشخصيّة لم نستعلم عنها". هذا ما صرّح به الفاتيكان. إنّ الأب الأقدس لمعتاد على هذا النوع من الهرب الذي يعطيه لساعات قليلة الوهمَ بالعفرتَةِ شأن سائرِ البشر.

إنّه يأخذ راحة أكثر نظاميّة كلّ صيف في Castel Gandolfo في فيلا Barberini الفسيحة، التي تبعد ستة وعشرين كيلومتراً عن روما، والتي هي، منذ عصور، المقرّ الصيفيّ للباباوات. إنّها نصف عطلة، لأنّ الحبر الأعظم عندما يقطنها، عليه أن يرجع إلى روما كلّ نهار أربعاء بالهليكوبتر للمقابلة العامّة. إبّان هذه الاقامة التي تدوم، حسب السنين، بين شهر أو شهرين، ترافقه جماعة تُختصر بالمونسينيور Dziwisz وAngelo Gugel والأخت Germana وبقيّة الأخوات البولنديّات، وبعشرة أنفار من الحرس السويسريّ والجندرمة، وبالعشرين شخصاً المكلّفين دوماً بالاهتمام بالحديقة وبالمزرعة النموذج التي يديرها Giuseppe Bellapadrona، إنّما ليس هناك لا أحبار ولا "موسينيوريّة" من الدوائر الفاتيكانيّة.

في شهر آب، يحبّ يوحنّا بولس الثاني أن يستقبل بضعة رفاق له بولنديين شيوخ، كي يتسنّى له أن يراهم بارتياح وبعيداً عن أيّ بروتوكول. هو لا يستقبل Gerzy Kluger فقط، أقدم صديق له منذ مدرسة الحضانة، بل وأيضاً مثقّفين وفلاسفة، سلافيين في أغلبيّتهم، معهم يُصلِحُ العالم الكاثوليكيّ.

يصل هؤلاء البولونيّون وأيديهم ملأى بالهدايا. من بينها أكياس الملبّس الذي يذوب في الفم بسهولة Krowka Popularna، الملبّس الذي يوزّعه البابا على الشبّان الذين يمرّون به مرور الكرام. مع هؤلاء الأصدقاء يجب أن يضحك وأن يستريح. فيطلب منهم أن يقلّدوا لهجات أوروبا الوسطى الروسيّة والرومانيّة المختلفة، وأن ينقلوا كلّ الكلمات الحلوة التي تروّج في المدينة حول القدّيس بطرس ومفاتيحه الشهيرة. أحياناً إنّه يقلّد Charlot، مُديراً عصاه مثله.

على ما يظهر، إنّه من عادة البولنديين أن يتظارفوا بمزحات كبيرة. إنّه لمن الواضح تماماً بأنّ البابا سعيد بأن يجتمع بأبناء وطنه. أخبرني الكاردينال Poupard أنّه أثناء غدائه الأخير في Castel Gandolfo حيث كان وحده غير بولونيّ، عيّن يوحنّا بولس الثاني أحد

المدعوّين ليترجم له. ولكنّ البابا كان يصنع له إشارة بألاّ يترجم له بعض العبارات التي هي عبارات سلافيّة صرفة.

في Castel Gandolfo هو رسميّاً في عطلة، وأعمال الكوريا تسير ببطء، وإن تكن كيفيّة استعمال الوقت تتطوّر دوماً على وتيرة مستمرّة. في فيلّا Barberini التي تشتمل على ثلاثين غرفة، والتي تقع في بلدة من ثلاثين ألف مواطن في جنوبيّ غربيّ العاصمة، تبدأ الحياة باكراً. فالبابا الذي يحبّ أن يراقب شروق الشمس، يحتفل بالقدّاس كما في الجبل في السابعة والنصف، أي بزيادة نصف ساعة على وقت قدّاساته في روما. يحضر قدّاساته حاشيته وغالباً بعض المقرّبين إليه الذين يمرّون مرور الكرام، إذ لا يتعدّى العدد الثلاثين شخصاً. فالكنيسة –وهذه مصادفة عجائبيّة– هي مكرّسة لعذراء Czestochawa السوداء. تعلو نسخة عن صورتها المذبح المسند إلى الحائط. وعلى الحائط الجنوبيّ جدرانيّات طراز ١٩٣٠ تمثّل انتصار الجيوش البولنديّة على الجيش الأحمر في ١٤ آب ١٩٢٠، إنّها اعجوبة الـVistule. هوالبابا بيّوس الحادي عشر الذي عمل على تزيين الكابيله هكذا، بعد أن كان سفيراً بابويّاً في فرصوفيا السنة التي ولد فيها Karol Wajtyla. بعد القدّاس، وإنْ يكن تعباً أكثر فيما مضى، غالباً ما يستبقي يوحنّا بولس الثاني أُناساً حضروا الحفلة الدينيّة لتناول طعام الفطور معه. وهي وقعة دسمة على الطريقة الانكليزيّة: شاي مع الحليب له، وخبز صغير مدوّر، وبيض مقلي مع أعشاب بريّة، وأجبان ولحم خنزير مقدّد، وزبدة، وفواكه من بينها درّاق Castel Gandolfo المشهور بكبره، وعصير الفواكه... ثمّ يستأذن للانصراف من ضيوفه، لأنّه في هذا الجوّ الضاغط غالباً، عليه أن يراعي صحّته. إنّه يمشي وحيداً على السطح على مهل، مصلّياً أحياناً شحيمته أو متصفّحاً كتب أدب أو تاريخ أو فلسفة في لغَة الأديب عينها. أيّام العطلة يقرأ ساعة ونصف الساعة يوميّاً: إنّه يمسك دوماً السبحة بيده. ومن ثمّ، يذهب إلى مكتبه أو إلى حيث يكتب على ملفات متفحّصاً إيّاها، ويرى أخرى لم يتسنّ له طوال الأحد عشر شهراً الأخرى من السنة من أن ينكبّ عليها. في كلّ صباح يحرّر له المونسينيور Dziwisz مجلّة حول الصحافة. إنّه يطلعه على مجريات الأحداث الكبيرة. إنّه سنة بعد أخرى ولمدّة يومين، يجمع في حلقة دراسيّة لا شكليّة، اختصاصيين في العلوم الاجتماعيّة وفلاسفة ورجال دين من كلّ الآفاق.

ما من محلٍّ أبداً في هذا المُلْك الارستقراطيّ، ذي الخمسين هكتاراً والأكثر اتساعاً من الفاتيكان، إلاّ ونلتقي فيه بيوحنّا بولس الثاني. إنّه يتجوّل في مماشي فيلاّ Barberini المؤلّفة من ستّة عشر جزءاً مختلفاً. من بستان على الطريقة الايطاليّة إلى بستان المرايا أو حديقة الحمضيّات، مروراً بخميلة العذراء مريم المسيّجة بأشجار السرو. يذهب البابا إلى أيّ مكان. من وقت إلى آخر، يذهب إلى المزرعة التي أعدّها بيّوس الحادي عشر فيما مضى. وأحياناً أيضاً، ولكن غالباً ومن قليل إلى أقلّ، إنّه يستقبل في الحديقة كشّافة وحجّاجاً، وطلاّباً كاثوليك واكليريكيّين، وجماعات من الشبّان البولونديّين الذين يكلّمهم بلغتهم الأم (في أوّل عهد حبريّته كان الخدم مدهوشين، إذ يظنّون أنّه يحدّثهم باللاتينيّة). في شهر آب سنة الألفين، بمناسبة الأيّام العالميّة الخامسة عشرة للشبيبة، دعا خمسة عشر شابّاً ليقيموا معه في Castel Gandolfo، واستقبلهم إلى مائدته في قصر فيلاّ Barberini الرسوليّ. وهكذا نَعِم إيطاليّون، وتهيتيّون، وكنديّون، وغينيّون، وسيرلنكيّون بتقاسم طعام غداء نموذجيّ إيطاليّ يترأسه البابا (جومبون، بطّيخ أصفر، معكرونة، لحمة، كاتو، نبيذ أحمر) على طاولة بشكل نضوة حصان حتّى يتمكّن كلّ واحد من مشاهدته بالطريقة الفضلى. هذا ما يمكّنه من أن يبقى على اتصال مع الحياة اليوميّة، وألاّ ينسى أبداً، كما يذكر ذلك بانتظام، أنّ الأهمّ بالنّسبة إليه يبقى دوماً بأنّه كاهن. على كلّ حال، مرّة في السنة في احتفالات الزمن الفصحيّ، يحبس ذاته في منبر من منابر الاعتراف في كاتدرائيّة مار بطرس ليعرّف، شأن أيّ كاهن بسيط، المؤمنين الطارئين. في Castel Gandolfo تتتالى عنده أوقات التأمّل والصلاة والعمل. هناك أيضاً قرارات عليه أن يتّخذها، ورسائل بابويّة أن يكتبها، وأسفار أن يعدّها. حتّى في هذا الجوّ الغريب من نهاية عهد، لا يبقى يوحنّا بولس الثاني جامداً.

مكتبه قد يكون طاولة في زاوية تظلّلها أشجار البستان، أو القاعة الصغيرة المجاورة لغرفة نومه، ما يمكّنه من أن يتمتّع مليّاً بمنظر بحيرة الـAlbano، وحيث الجوّ منعش يؤمّنه مكيّف للهواء. إنّ البابا الآتي من البرد والذي كان معتاداً على البحيرات البولنديّة المجمّدة يخاف الحرّ. لقد تعلّم أن يتّقيه كما يفعل الجبليّون بألاّ يشرب إلاّ ما ندر. عندما يتناول طعام الغداء الذي ما حدث أن تناوله أبداً في ساعة معيّنة، لأنّ هذه الحاجة الماديّة تمرّ بالنسبة إليه بعد الأغذية الروحيّة، هو لا يشرب إلاّ نصف قدح من النبيذ الأبيض، نبيذ القصور الرومانيّة، النبيذ المحلّيّ المرّ المخلوط بالماء. إنّه يتناول الطعام

أقلّ بقليل ممّا في الجبل، لأنّ الطقس حارّ. إنّه يتناول الشورباء والخضار والحبوب والفواكه. ويأخذ بعدئذ قسطاً من القيلولة. وهو يكرّس لذاته أوقاتاً للراحة الحقيقيّة، عندما يتنزّه مُتَدَرْوِشاً في الأماكن المجاورة. بعد أن يأخذه المصعد الذي ينقله مباشرة من الطابق الثالث إلى الكاراج، يصعد في سيّارة المرسيدس أو الـBMW الزرقاء البحريّة، يرافقه الحاضران دوماً Dziwisz وAngelo Gugel ليقوم بنزهة في التلال المجاورة.

عندما يعود الأربعاء إلى روما للمقابلة العامّة، يجتاز أوّلاً بالسيّارة ممشى تحيط به أشجار خضراء من السنديان، ويبلغ إلى بساتين الفيلّا التي ينزل غرسها بانحدار لطيف نحو بحيرة Albano. هناك تنتظره هيليكوبتر تابعة للسلاح الجويّ، وضعها بتصرّفه رئيس البلاد لتحطّ بعد عشرين دقيقة في حديقة الفاتيكان قرب برج القدّيس يوحنّا، من حيث تقلّه سيّارة Fiat أو Toyota بيضاويّان من طراز "جيب" نحو بازيليك القدّيس بطرس. يقوم عامّة "بعرضين رسوليين": أحدهما في البازليك، والثاني في ساحة القدّيس بطرس، حاملاً البهجة إلى جمهور الحجّاج الغفير. نحو الساعة الواحدة تقلع الطائرة، وعلى متنها الأب الأقدس، باتجاه فيلّا Barberini.

إنّ هذا المقرّ الصيفيّ ليشبه قصراً من زمن النهضة أكثر منه فيلّا كبيرة للعطلة الصيفيّة. إنّ شقق الطابق الأوّل تروق بما لا نهاية لـKarol Wajtyla ببساطتها الأنيقة. أمّا الطابق الثاني الشريف، فيتألّف من صالونات كبيرة تزيّنها الرسوم المختلفة: صالة الـConsistoirse، صالة السويسريين، وغيرها ذوات الشبابيك العالية والجدرانيّات وبلاط أرضها الرخاميّ، فتحسب نفسك أنّك في الفاتيكان. بالعكس، إنّ حوض السباحة الذي أشرف يوحنّا بولس الثاني على بنائه لا يذكّر البتّة بالماضي. كيف تجرّأ على حفر هذا الحوض العصريّ في هذه الحديقة الفخمة، حيث يليق المكان، بالحريّ، بحوض حجريّ نبيل وعميق؟ هذا ما أنفكّ يهمهم به الأحبار الايطاليّون الكبار من الكوريا الرومانيّة.

إذا كان البابا قد قرّر، منذ صيف ١٩٧٩، تمشيّاً مع القاعدة القديمة، أن يمضي عطلته الصيفيّة على بعد أميال من الفاتيكان، فما من مقطع في الكتاب المقدّس يمنع خليفة بطرس من القيام بالرياضة البدنيّة. وإن كان Karol Wajtyla جبليّاً أكثر منه بحريّاً، فهو قد ذهب عشيّة انتخابه، وفي عمر الثامنة والخمسين، إلى شاطىء البحر ليسبح في

Falidoro على بعد خمسة عشر كيلومتراً من مطار Fiumicino (مركز استحمام وضعته مؤسّسة الروح القدس منذ أربعين سنة بتصرّف الكرادلة والأساقفة). ما إن خلف البابا Luciani حتّى راح يسأل متولّي إدارة الفاتيكان حول البنى التحتيّة الرياضيّة الموجودة في الحاضرة. أجابوه ولا واحدة، اللهمّ ملعب للتنس في حالة مزرية قرب متحف الفاتيكان. فطلب البابا أن يصلحوه، مع العلم أنّه لم يستعمله أبداً، لنقص في الوقت وعدم توفّر شريك له. لم يجسر أحد أن يجبهه. ففي الفاتيكان، كان الكرادلة الايطاليّون يغتاظون عندما كانوا يفكّرون أنّ بولونياً، من الصعب أن تلفظ اسمه، وأوّل بابا غريب في التاريخ منذ أربعمئة وخمس وخمسين سنة، هو ضعيف الارادة بالنسبة إلى الرياضة. ذلك أنّه كان في الماضي يمارس التزلّج على الثلج في Zakopane، وينظّم رحلات طويلة ونزهات في Kayak كمرشد للطلّاب في Cracovie. هذا سبب شك وعثرة بالنسبة إلى أعضاء الكرسيّ الرسوليّ الطقوسيين اللاتين. إنّما عليهم أن يعتادوا على ذلك. فسلطان Karol Wajtyla هو روحيّ فقط على الكينسة، وهو زمنيّ على الفاتيكان. على كلّ حال، إنّ شعاره وصورته يزيّنان كلّ الأماكن العامّة من حاضرة الفاتيكان، كما يزيّن شعار Jacques Chirac عندنا مراكز العمدة والأبنية الاداريّة. عندها نتساءل لماذا اذاً لا يبدأ رئيس الدولة هذا ذو الخلق المتمايز نمطاً جديداً من الترويح عن النفس، وحتّى بدون دعم من الكوريا. ولحسن الحظ، ما إن علم الأغنياء الكنديّون الكاثوليك بأنّ البابا، الذي يتمتّع بعد بصحّة جيّدة، قد سئم من الانتظار من عدم قدرته على القيام بالرياضة، قرّروا حالاً بأن يقدّموا له الأموال اللازمة لتأهيل حوض للسباحة. ولكن، أين يحفرها: في روما أم في Castel Gandolfo؟ لقد اختار يوحناً بولس الثاني من دون تردّد Castel Gandolfo فالأرض فيها أوسع وأرخص ممّا هي في روما. وفي الريف، يبقى حوض السباحة بعيداً عن أنظار الأحبار الحسودين، وعن عدسات المصوّرين الشبحيّة المقرِّبة. وعبثاً حاول مدير الخدمات العامّة في حاضرة الفاتيكان أن يعاكس المشروع. ولقد أجاب يوحنّا بولس الثاني مستشاريه الذين ينتقدون قراره بكلّ بساطة، بأنّ كلفة حوض سباحة هي أقلّ كلفة من عقد مجمع كرادلة جديد. بفضل ذلك، ولسنين طويلة، تمتّع البابا متعة قويّة بسباحته على البطن في البيسين. في ما ظنّ بعضهم أنّه لنمط غير دارج. وما توقّف إلاّ عندما كسر عمق عظم الفخذ ومن ثمّ التَرْقُوَة، مع أنّ طبيبه الدكتور Buzzonetti قد شدّد على أهمّية السباحة لتقوية عضلاته بعد هذين الحادثين. ومنذ

الوقت الذي توقّف فيه الحبر الأعظم عن الافادة من هذا الحوض الذي يبلغ طوله ستّة عشر متراً، وعرضه ثمانية أمتار، والذي تغطّيه قبّة من البلاستيك تسمح بتخفيف النور، هم الحرس السويسريّ والجندرمة الذين يسبحون فيه. وتمايز يوحنّا بولس الثاني أيضاً عن أسلافه البابوات بديموقراطيّته وبوضعه تحت تصرّفهم تجهيزاً خاصّاً.

يستقبل البابا الحجّاج نهار الأحد ظهراً، ساعة التبشير، في مساحة مقرّه الداخليّة المحميّة من القيظ بشادر من القماش البيج. عندها، غالباً ما يقدّم له شبابٌ حفلةً موسيقيّة. إنّه وقت غبطة بالنسبة إليه. إنّما في هذه الأيّام الأخيرة تبدو على وجهه إمارات التعب والألم والتي لا تخفى على إنسان.عندما دعيت إلى Castel Gandolfo (بدون مصوّر) لاحظت كم أنّ الحرّ يزعجه. كنت أتعذّب لأجله فقط، عندما كنت أروح أحصي عدد الثياب التي كان يلبسها القطعة فوق الأخرى، حتّى وإن تكن من نسيج خفيف.

بعد رؤية البابا، يتمكّن الحجّاج الأكثر حظوة من القيام بنزهة في الحديقة والتمتّع بأبنية فيلّا Barberini المختلفة.

إنّ هذه الملكيّة التي تبلغ مساحتها أقلّ من كيلومتر مربّع، تصلح إطاراً ليمضي البابوات صيفهم فيه منذ القرن السابع عشر. فيما قبل، كانوا يقصدون للراحة قصور كرادلتهم الفخمة على التلال المحيطة بروما. هو الأمير Barberini، أوربانوس الثامن (الذي اعطى اسمه للفيلّا Barberini) الذي بسعيه أعدّ بين سنة ١٦٢٤ وسنة ١٦٢٩ مسكنه العائليّ الارستقراطيّ، الذي تحيط به بحيرة Albano والريف الرومانيّ، والذي بني على أنقاض فيلّا Domitien. لقد دشّن هكذا العطل الصيفيّة في Castel Gandolfo. ومنذئذ سكن فيها، إبّان أشهر الصيف، عشرون من البابوات هرباً من الحرّ الشديد في المدينة الخالدة. هذا الايقاع قطعه بين سنة ١٨٧٨ و١٩٣٤ كلّ من لاوون الثالث عشر، وبيّوس العاشر، وبنوا الخامس عشر، وبيّوس الحادي عشر، الذين كانوا في انتظار حلّ للمسألة الشائكة، في أن يعرفوا إذا ما كانت اتفاقيّة لاتران تعترف بالفيلّا البابويّة الموجودة خارج نطاق الفاتيكان. مع بيّوس الحادي عشر أعيد وصل ما انفصل. لقد ابتدأ يرمّم القصر وملحقاته بتفنّن مفرط، بعدما أهمل منذ ما يقارب النصف قرن، مصمّماً الحدائق، زارعاً فيها نبات البحر المتوسّط المارع. لقد أمضى فيه عطلته

الصيفيّة الأولى سنة ١٩٣٤ وبانتظام حتّى سنة ١٩٣٨. في هذه السنة قدّم زمن ذهابه إلى العطلة، كي لا يتواجد في العاصمة الايطاليّة أثناء زيارة هتلر التاريخيّة لموسّليني. من Castel Gandolfo في ٢٤ آب ١٩٣٩، وجّه بيّوس الثاني عشر الرسالة التي فيها يرغب في تلافي خطر الحرب العالميّة الثانية: "لا نخسر شيئاً مع السلام، ونخسر كلّ شيء مع الحرب". طوال زمن الصراع العالميّ، استخدم القصر ليستقبل اثني عشر ألف لاجئ، ولم يرجع الحبر الأعظم إليه إلاّ في سنة ١٩٤٧. ولقد غدا سرداب الكنيسة المتّسِق جدّاً، والتي بناها Bernini، ملجأ، لأنّ القنابل ما كانت لتتجنّبَ مقرّ البابوات والذي تعرّض لأضرار جسيمة بعد نزول الحلفاء إلى Anzio. هنا في ٩ تشرين الأوّل ١٩٥٨، انطفأ سراج بيّوس الثاني عشر المتوحّد والأرستقراطيّ، ومات في ٦ آب ١٩٧٨ بولس السادس الخجول، أي عشرون سنة فيما بعد. وهنا أيضاً على الأراضي البابويّة، وفي ظلّ مماشي السرو القاتمة، كتب هذان الحبران العظيمان أهمّ رسائلهما البابويّة. بعد هذين الموتين، رُكِّبَ جهاز طبّي سريع في القصر. مع يوحنّا بولس الثاني أصبحت المراقبة الطبيّة حاضرة أبداً. فالمستشفيان الأقربان إلى فيلّا Barberini هما دوماً في حالة إنذار أحمر، عندما ينوجد البابا فيها. ففي ١٤ آب ١٩٩٦ اضطر أن يذهب إلى مستشفى Albano ليخضع على عجل لـScanner. من ناحية أخرى، تربض هيليكوبتر حربيّة طبيّة دوماً في مطار طائرات عموديّة على بعد مئات الأمتار من القصر الصيفيّ، وعلى متنها طيّاران وطبيب وممرّضة. ويدير الدكتور Buzzonetti تخطيط ثمانية أطبّاء، يتشرّفون مداورةً بأن يتّبعوا المريض الأشهر في العالم.

يربط هوائيّ قويّ جدّاً مكاتب البوليس في قصر Castel Gandolfo بوزارة الداخليّة في روما.

ويلاحظ أنّ عطلة هذا البابا النجمة تستهوي العالم أجمع، إذا ما حكمنا على ذلك فقط من خلال الأثمان الباهظة التي بيعت بها في الماضي صور مآثره الرياضيّة. في سنة ١٩٨٠، بيع تعرّج البابا الجديد بمليون من الفرنكات، ودار حول العالم. فمن Newsweek إلى Figaro Magazine، من الصحافة الأشد رصانة إلى الصحف ذات الوقع القويّ، تتزاحم الدعامات الاعلاميّة الكبيرة كلّها على صور انحدار البابا، وهو يمارس التزلّج في منتصف شهر تمّوز يحيط به عدد صغير من المدرّبين على قمم المجمّدات

الأولمبيّة. ولقد دفع Angelo Rizzoli، صاحب سلسلة دور صحافة مهمّة في إيطاليا، مبلغ أربعة ملايين من الفرنكات– والذي كان للفاتيكان عليه كثيراً وأن يغفر له كثيراً لاتيانه بأعمال معتّمة تصله، على ما يقال، في سنة ١٩٨١ بالمحفل الماسونيّ P2– ثمن بعض الصور الفضوليّة المأخوذة على البيسين. ولقد سلّم Angelo Rizzoli سالَب هذه الصور إلى حاشية البابا آملاً في أن يغفر له لقاء هذه البادرة. لقد دفنت هذه الصور السلبيّة نهائيّاً. هذا لم يمنع رؤية Karol wojtyla بالمايوه بعد بضعة أسابيع. ولكنّ الأمر كان يتعلّق بصورة قديمة أخذت ليوحّنا بولس الثاني عشيّة انتخابه على شاطئ Palidoro الشهير.

إنّ كلّ هذه الصور المأخوذة لبابا رياضيّ لهي بعيدة كلّ البعد عن الرسوم الرمزيّة في الماضي، حيث بإمكاننا تأمّل البابوات يتنزّهون تجرّ عربتهم جياد أربعة بيض، أو يجرّ حنطورهم حصانان يحيط بهم جنود على أحصنتهم وأفراد الحاشية. وكانت توضع لهم في أجربة حمراء وفي سلال من الخيزران هدايا مهمّة، شيئاً فشيئاً، كلّما تقدّم الموكب عبر القرى.

إنّ الحبر الأعظم الحاليّ، ومع أنّه يتأثّر جدّاً عندما يرى وجه رسالته الرعويّة الرمزيّ، ما عاد بامكانه، وإن كان يرغب في ذلك، أن تؤخذ له صورة مع حماره الشهير في الخلفيّة. حمار كان قد قدّمه للأب الأقدس برازيليّ تقيّ يدعى Damiao Galdino da Silva، سائق في مجلس الشيوخ البرازيليّ عندما قام بزيارته لبلده في ١٩٨٠. حمار بيبليّ صغير هبط أخيراً من طائرة شحن في روما لقاء تضحيات جسيمة وحوادث عرضيّة عديدة. وقد قرّر الأب الأقدس أن يقدّمه للراهبات الفرنسيسكانيّات المقيمات في مزرعة مجاورة لروما. ولقد سيطر الذهول على الفاتيكان، إذ فكرّوا بأنّ البابا قد وضع الحمار داخليّاً في مزرعة Castel Gandolfo. لقد أخبرني كاردينال –تنقصه الرصانة– بأنّ البابا كان قال له: "ماذا تريد، لا داعي للمحافظة عليه، ألا تظنّ أنّ في الفاتيكان ما يكفي من الحمير بين بين؟"

الفصل الثامن

سرّ فاتيما الثالث
كـان هـو

لقد عمّ الدَهَشُ المسيحيّة بأجمعها، عندما كشف الفاتيكان، في ٢٦ حزيران ٢٠٠٠، عن الرسالة الثالثة التي كانت العذراء قد أوحت بها في فاتيما في ١٣ أيّار ١٩١٧ إلى ثلاثة رعاة برتغاليين صغار. لقد كان السرّان الأوّلان يتعلّقان بالحرب العالميّة "وارتداد" روسيّا. في الرسالة الثالثة، التي كتم سرّها ثلاثة بابوات، كانت العذراء تنبّأت "بأنّ أسقفاً يرتدي ثوباً أبيضَ سيصاب بطلقة ناريّة".

كيف لا نقارب ذلك مع محاولة القتل التي كان ضحيّتها يوحنّا بولس الثاني في ١٩٨١ في ساحة مار بطرس، وبالتحديد في ١٣ أيّار؟

لقد قام الأب الأقدس بذلك حالاً. إنّه لمقتنع بأنّ العذراء غيّرت اتجاه الرصاصات التي أطلقها عليه Ali Agsa؛ وهذا ما أعلنه، بضعة أسابيع بعد المحاولة، على المؤمنين الآتين إلى ساحة مار بطرس. هذا ما أسرّ به الإرهابيّ التركيّ نفسه إلى البابا الذي ذهب ليراه في السجن، وهو من يعتبر نفسه من خيرة القنّاصين فلا يخطىء، وقد استولى عليه الذهل لأنّه لم ينجح في إصابة هدفه، بالرّغم من أنّه أطلق رصاصاته الثلاث من مسدّسه ٩ مم عن قرب يقلّ عن ستّة أمتار، بحيث حمل انفجارها كلّ حمامات ساحة مار بطرس على الطيران: لقد كان وراء ذلك أعجوبة. لقد مرّت الرصاصات عند أقلّ من سنتيمتر واحد من الأجهزة الحيويّة للبابا ومن الشريان الأبهر.

بعدالعمليّة الجراحيّة الطويلة في المعدَة، والتي خضع لها الأب الأقدس حالاً بعد المحاولة، لفت المونسينيور Dziwisz انتباه البابا إلى المصادفة الغريبة بين زمني المحاولة ١٣ أيّار ١٩٨١، وظهور العذراء الأوّل للرّعاة الثلاثة الصغار في فاتيما في ١٣ أيّار ١٩١٧.

طلب البابا أن يُحْضِروا له حالاً نصّ الرسالة الثالثة الذي تلقّاه الرعاة في فاتيما، والذي وضع بين المحفوظات السريّة في الفاتيكان في ٤ نيسان ١٩٥٧، ولم يكشف عنه أسلافه. لقد أُعطِيَ الأب الأقدس مغلّفين: مغلّف أصفر يحوي نصّ السرّ الثالث، كتبته بالبرتغاليّة لوسيا الراعية الصغيرة نزولاً عند طلب أسقفها، ومغلّف أبيض يحوي الترجمة بالايطاليّة. فضّه يوحنّا بولس الثاني وقرأ الأسطر الآتية: "أسقف يرتدي ثوباً أبيض، وشعورنا بأنّه الأب الأقدس، وكان هناك أساقفة آخَرون وكهنة ورهبان... يتسلّقون جبلاً شديد الانحدار، على قمّته صليب كبير. على وجه البابا تبدو إمارات الحزن بسبب الألم والتعب... يصلّي عن نيّة نفوس الضحايا التي كان يلتقيها في طريقه. وما إن وصل إلى قمّة الجبل حتّى قتلته جماعة من الجنود بسلاح ناريّ".

عندما قرأ يوحنّا بولس الثاني هذا النصّ النبويّ، لم يخالجْه الشكّ، فالأسقف المرتدي اللباس الأبيض الذي هوى تحت الرصاصات، كان هو بالذات. ولكنّه لم يقتل. لقد خلّصته العذراء. لقد لفت الانتباه بعد ذلك بأنّ هذه المحاولة قد لعبت فيها العناية الالهيّة دوراً في حياته قائلاً: "أثناء أيّام عذابي الطويلة كلّها، فكّرت كثيراً في معنى ذلك وفي العلامة السريّة التي أتتني عطيّة من السماء".

في الذكرى الأولى للمحاولة، قام يوحنّا بولس الثاني بزيارة إلى فاتيما ليشكر العذراء. وفي ٢٥ آذار ١٩٨٣، يوم عيد البشارة، عرض البابا تمثال العذراء التذكاريّ للظهورات، الذي أتى به من فاتيما كي يكرّمه المؤمنون أوّلاً في بازيليك مار بطرس، ثمّ في بازيليك يوحنّا اللاترانيّ، كاتدرائيّة أسقف روما. بعد ذلك بيومين، عاد التمثال إلى فاتيما يرافقه مطران Leiria المونسينيور Alberto Cosme do Amasal. هذا حمل معه في علبة عليها شعار الأب الأقدس، إحدى الرصاصاتين اللتين أطلقهما عليه Ali Agsa، والتي رُكبّت بين الحجارة الكريمة في تاج العذراء الذهبيّ، في تجويفة بقمّته كانت بطريقة عجائبيّة بالقياس نفسه.

في ١٣ أيّار ١٩٩١، بمناسبة الذكرى العاشرة للمحاولة، عاد يوحنّا بولس الثاني ثانية في حجّ إلى فاتيما، ثمّ أعاد الكرّة في أيّار ٢٠٠٠ ليرفع إلى مصافّ الطوباويين راعيين من الثلاثة: Francisco et Jacinta. أمّا الثالثة Maria Lucia، فهي لا تزال حيّة وعمرها ثلاث وتسعون سنة، وفيها ردّد إقراره الايمانيّ فقال: "يد أطلقت النار، ويد أخرى غيّرت مسار القذيفة". وعندها ألمح إلى السرّ الثالث الذي كان سيكشف الفاتيكان عنه، بعد ذلك بستّة أسابيع بالتفصيل. وأردف قائلاً "أمّا السرّان الباقيان من أسرار فاتيما، فكانا يتعلّقان، كما هو معروف، بارتداد روسيّا وبما حدث في الامبراطوريّة السوفياتيّة سابقاً. ويتعلّق الأمر الثالث، بما لا شكّ فيه، بالأعجوبة".

كرّس Karol Wojtyla حياته كلّها لعبادة حارّة للعذراء مريم. ففي الخامسة عشرة من عمره، كان عضواً في الأخويّة المريميّة البولنديّة.

ما كان اهتمامه اهتماماً جماليّاً أو شعاريّاً، على غرار بعض أمراء كنيسة النهضة، عندما كرّس الأب الأقدس شعاره البابويّ لمريم أمّ يسوع، ألا وهو "كلّ شيء لك"، وباللاتينيّة "totus tuus". "ولقد شرحه يوحنّا بولس الثاني بقوله: أنا بكليّتي لك، معناه أنّي بين يدي العذراء بكلّيتي، أي إنّي في كلّ صباح أكرّس لها ذاتي بجملتها، فحفظتني لا في ١٣ أيّار فقط، بل ومرّات كثيرة". يسكن الايمان قلب الأب الأقدس، بمعنى أنّ أطبّاءه، حتّى وإنْ كانوا من المؤمنين الورعين والمسيحيين المتشدّدين، يحاولون أن يقنعوه بأنّ عليه الاهتمام بصحّته وألاّ يتّكل على عجائب جديدة.

عليهم أن يجاهدوا ليحصلوا من يوحنّا بولس الثاني على القبول بتخفيف برنامجه اليوميّ الكثيف جدّاً، وأن يستجمع طاقاته فقط لأحداث مهمّة. نادراً ما يتوصّلون. إنّه واثقٌ بالعذراء التي يكرّمها كثيراً بأنّها تعضده يوماً بعد يوم. لهذا يرفض بعناد – ماعدا عطلته الصيفيّة – أن يحدّ من الجهود التي يكرّسها لخدمته الرعويّة، لأنّ العذراء تحميه منذ وَكَلَ إليها حياته. إنّه لا يتوقّف عن الاقرار بفضلها، كما تشهد على ذلك الزيارات المئة والخمس، التي قام بها في اثنتين وعشرين سنة إلى المزارات المكرّسة للعذراء، أثناء المئتين والتسع والعشرين سفرة خارج الفاتيكان. من الـGuadalupe إلى المكسيك إلى Czestochowa في بولندا، ومن لورد في فرنسا إلى فاتيما في البرتغال.

إيمان الأب الأقدس بهذه العجيبة لا يشاطره إيّاه جميع من هم في الفاتيكان. إنّ سلفيه يوحنّا الثالث والعشرين وبولس السادس أظهرا تحفّظاً في ما يتعلّق بالظهورات. أمين سرّ يوحنّا الثالث والعشرين الخاصّ، المونسينور Loris Copovilla، أسرّ إلى أحد زملائنا Bruno Bartoloni، وهو مراسل شاب للشؤون الدينيّة لوكالة France Presse، وكان قد التقاه يوماً في ساحة القدّيس بطرس، إنّه لا يعرف تماماً في أيّ جارور من جوارير البابا كانت مرتّبة وثيقة فاتيما هذه. ولكنْ، وعلى كلّ حال، فهذه ليست مهمّة جدّاً. كما في غالب الأحيان، كلّ شيء في الفاتيكان يردّ فيما بعد لاهوتيّاً إلى نصابه. هكذا، إنّ الكردينال Joseph Ratzinger رئيس مجمع عقيدة الايمان، الذي كان يدعى في ما مضى ديوان التفتيش، الاسم الأكثر إيحاء، أوضح في مؤتمر صحافيّ من حزيران الفائت بأنّ "وحي الظهورات كما في فاتيما ولورد إنّما هو عون يعطى، ولكنْ ليس استعماله أمراً إجباريّاً. إنّ الايمان يولد أوّلاً من التقوى. المعيار وحي خاصّ، وقيمته هو توجيهه إلى المسيح بالذات". إنّ هذا الكلام، الذي هو إلى حدّ ما كلام يسوعيّ، يهدف إلى القول، إنّه باستطاعة كلّ واحد أن يفسّر هذه "العجائب" على هواه.

ليس ليوحنّا بولس الثاني مثل هذه التردّدات لقد أعلن قائلاً: إنّي أتوق أن أجيب على رغبة قلبي الذي يدفعني للسجود عند أقدام أمّ الله، كي أشكرها على شفاعتها التي خلّصت حياتي وأعادت إليّ عافيتي: "لقد ذهب حديثاً كحاجّ إلى مزارات مريميّة أخرى: Beauraing في بلجيكا، De Kevalear في ألمانيا، De T'a Pinu في مالطة، de Maastricht في هولندا... وممّا يذكر هو أنّه أرسل إلى مزار العذراء السوداء البولنديّ في Czestochowa زنّاره العريض الأبيض الملطّخ بالدم والذي كان يلبسه أثناء المحاولة. عندما ذهبت في آب ٢٠٠٠ إلى مزار Czestochowa لم أتمكّن من رؤيته، لأنّ الأخوة البولسين، كهنة الرعيّة، قد خبأوه "تلبية لإرادة البابا". هذا ما قاله لي أحدهم. وفي ما يخصّ هذا الزنّار يصدر Karol Wojtyla إراداته الساميّة وتوجيهاته الدقيقة.

إنّ العذراء التي يحمل منذ زمن بعيد في قلبه، إنّما هي عذراء Czestochowa والتي يقع مزارها على بعد مئة كيلومتر من شمال شرق Cracovie. إنّها موضوع إكرام لا يُحَدّ. وتعتبرها السلطة الكاثوليكيّة والمؤمنون شفيعة بولندا، ونوعاً ما ملكتها (في بولندا ٩٤٪ من الناس هم معمّدون وكاثوليك، و ٥٠٪ يمارسون بطريقة عاديّة). إنّ مئات الآلاف

من الحجّاج يأتون للاحتفال بعبادتها مرّات كثيرة في السنة. يخبر راهب من دير Jasna Gora أنّ جموع الحجّاج الذين يتقاطرون، عامّة، عشيّة عيد العذراء مريم، يأتون لا من المناطق البولنديّة فقط، بل من بلدان أخرى أيضاً. عند ولادة Solidarnosc، غدت العذراء علامة تجمّع النقابة، وكان Lech Walesa يعلّق أيقونتها على قفا سترته. تبقى رمز الرجاء لشعب شديد العبادة. وتُرسم صورتها دوماً في المكان الأفضل، وسط صلبان زهريّة ترتّبها أيد مجهولة في أماكن عديدة عند قاعدة أنصاب دينيّة. إنّها رمزٌ للبولنديين أكثر ممّا ترمز لنا عذراء لورد، التي ليست بالنسبة لنا موضوع عبادة وطنيّة. تملّكني الذهول عند زيارة هذا المزار. كلّ شيء يتوهّج في هذه البازيليك ذات الفخامة اللاّمعقولة، بينما يعرف هذا الوطن فقراً مدقعاً. على كلّ حال، هذا هو واقع كلّ الكنائس البولنديّة التي تغصّ دوماً بالمؤمنين، وحيث يحتفل بثلاثة قدّاسات يوميّاً. ما يسترعي الانتباه هو تقوى الحجّاج وفتوّتهم. أظنّني رأيت عشرات Karol Wojtyla من الشباب. أولاد شقر ذوو عيون زرقاء يضيئون الشموع وتبدو النشوة على وجوههم. يقصد الحجّاج المزار أحياناً عن بعد ستمئة كيلومتر مشياً على الأقدام، أو على درّاجة حاملين الأكياس على ظهورهم. إنّهم من كلّ الأعمار. وهناك حجّاج يمتطون جيادهم. رأيت نذوراً من بحّارة ومن رجال مقاومة وعسكريين من Solidarnsc.

إنّ الـBiélorusses والتشيكيّين والأوكرانيين والبلت واللتوانيين والسلوفاكيين الذين تمكّنهم حالهم من الذهاب إلى روما يحجّون إلى Czestochowa. لقد استقبل المزار خمسة ملايين من الحجّاج في سنة ١٩٩٩.

في ١٩٥٧ أراد الكاردينال، Wyszynski القيام بتطواف للعذراء السوداء في كلّ البلادّ. ولكن الشيوعيين حجزوها مدّة ست سنوات. عندها استعيض عن ذلك بأن تَنَقّلَ إطار صورتها من قرية إلى قرية، وفي وسطه شمعة مضاءة. وهكذا طاف الإطار عشرة آلاف رعيّة في تسع سنوات.

تتكوّم هدايا الحجّاج في خزائن متحف الدير. فالأفقر بين الفلاّحين قدّم ساعته الذهبيّة، وقدّمت Marie Curie سبحتها، والأمير Radziwill ورديّته من البلّور الصخريّ والتي تعود إلى القرن السادس عشر. لقد حمل بولنديّون أميركيّون معهم حُقَّ قربانٍ مرصّعاً بالياقوت الأحمر والزمرّد، وقرويّون من سيسيليا قطعة موزاييك مفكّكة (ليمرّوا

بها في الجمرك) ركبّوها في الدير. وقد أرسل يوحنّا الثالث والعشرون إليها شعاع قربان ضخماً مزيّناً بالحجارة الكريمة. وفي زاوية من الدير بالقرب من السكرستيا، يُحفظ عرش من الخشب الأبيض، مذهّب ومخصّص لـKarol Wojtyla. عدا ذلك بُنِيَ في المزار مدخل خاصّ به، وهو كناية عن بوّابة من الرخام الأسود، يعلوها شعاره المذهّب. فالأب Izydor Matuszevski مقتنع بأنّه سيعود مرّة ثامنة.

إنّ هذا الاكرام لهو مُؤسّس على اعتقادٍ بأنّ العذراء مريم في الساعات الأشدّ ظلاماً في التاريخ قد أنعشت الايمان وخلّصت بولندا من البلبلة الأخلاقيّة. إنّ هذه الأيقونة لهي بالنسبة للمؤمن البولنديّ مرادف للرجاء والمثابرة والايمان بخروج شعب بكامله منتصراً في صراعه لأجل الحريّة. ففي سنة ١٦٥٥ حدثت الأعجوبة. كانت الجيوش السويديّة تتدفّق على السهل البولنديّ. كاد الوطن يهلك، وكانت بولندا تسير على غير هدى، وكأنْ ليس بإمكان أيّ شيء أن يخلّصها. عندها ألّب رئيس البولسين العام، الأب Augustin Kordecki، "الجاندراك البولنديّة"، مواطنيه تحت راية العذراء السوداء، فانهزم النازيّ، وبُعِثت البولندا المنتصرة حيّة. ومنذ ذاك الحين، ترمز العذراء السوداء في قلب كلّ بولنديّ إلى المقاومة ضدّ المستعمر. هذه الأيقونة الثمينة، التي تمثّل العذراء مريم مع ابنها يسوع على يدها اليسرى، إنّما هي في حماية الاخوة البولسين. ترمق عيناها اللوزيّتان الحجّاج بنظرة ناعمة وحامية. شجّتان تشطبان خدّها الأيمن، أحدثهما لصوص كانوا ينهبون الدير في القرن الخامس عشر. يروى أنّه أثناء النهب داس أحدهم برجليه الأيقونة وضربها عدّة ضربات بسيفه، فنضح الدم؛ والذي انتهك القدسيّات وقع ميتاً. حاول أمهر الرسّامين أن يخفوا الجراح، ولكن عبثاً؛ كانت دوماً تظهر من جديد من تحت طبقات الرسم.

إنّ أصل هذه الأيقونات يبقى مغلّفاً بالأسرار. بعضهم يثبت أنّها من عمل القدّيس لوقا. والبعض الآخر يقدّرون أنّ مصدرها هو بيزنطيّ، وترجع إلى القرن السادس. هناك شيء أكيد: إنّها اكتُشفت في Ruthénie وسارت في طريقها إلى Czestochowa في القرن الرابع عشر؛ وقد اكتشفها الأمير Ladislas d'Opole. في ١٥ آب ١٩٥٥، عشيّة ثورة تشرين الأوّل الصغرى، تواعد أكثر من مليون مؤمن على اللقاء أمام الدير حيث توجد الأيقونة، ليطلبوا من العذراء تحرير الكاردينال Wyszynski، الأب الروحيّ لـKarol

Wojtyla، المحجوز في السجون الستالينيّة، فتحقّقت أمانيهم. وبعد سنة على ذلك، استرجع رئيس أساقفة بولندا حريّته. هذا، أثار دهشة Wojtyla الشاب الذي كان معجباً شديد الاعجاب برئيسه وأميناً له أمانة تامّة، وإن كان بينهما أوقات من توتّر العلاقات سببُها أخلاقُ Wyszynski التسلّطيّة. إنّ يوحنّا بولس الثاني إنّما هو مدين في القسم الأكبر من انتخابه إلى نفوذ رئيس أساقفة Varsovie وإلى المكانة التي له. لذلك، وإكراماً لرئيس أساقفة بولونيا، في ١٣ أيّار ٢٠٠٠، وضع يوحنّا بولس الثاني أمام تمثال العذراء في فاتيما علبة مغطّاة بالجلد الأحمر تحتوي خاتمه الراعويّ الذي كان قدّمه له الكاردينال Wyszynski في بدء حبريته. إذا كان الخاتم هو علامة الاتّحاد والأمانة للزوجين (اللذين غالباً ما يكلان، يوم زواجهما، مصيرهما إلى العذراء عبر حركات رمزيّة من العروس التي تضع باقة من الزهر عند أقدام تمثال لها)، فهو كذلك بالنسبة للأساقفة. أن يردّ Karol Wojtyla خاتمه للعذراء، إنّما هو حركة لها معناها ورمزها في آنٍ معاً. زِدْ على ذلك أنّه هديّة ثمينة من رئيس أساقفة بولندا. وهذا أيضاً تقليد بولنديّ قديم بأن تشكرَ مزاراً لأمنية قد تحقّقت أو لنعمة قد حصلت. هذا الخاتم الذي كان يلبسه يوحنّا بولس الثاني في يده اليمنى، هو يرتاح إذاً عند أقدام العذراء البورتغاليّة، وقد قبّله مراراً الآلاف من المؤمنين وشخصيّات عديدة منها ملكات البلدان الكاثونيكيّة: بولا ملكة بلجيكا، وصوفيا ملكة إسبانيا، وحديثاً دوقة لوكسمبور العظمى. لقد وجّه الكردينال Wyszynski هذه الجملة النبويّة إلى يوحنّا بولس الثاني يوم انتخابه قائلاً له:"إذاً الربّ دعاك، فعليك أن تقود الكنيسة، فتُدخلها الألف الثالث". وهذا ما حقّقه. إنّ وضع الخاتم لهو حركة مؤثّرة أدهشت مرّة أخرى المقرّبين منه. فلا الكاردينال سودانو أمين سرّ الدولة، ولا أحبار الكنيسة الكاثوليكيّة الآخرون، ما عدا المونسينيور Dziwisz الأمين للسرّ دوماً، علموا بنيّة الأب الأقدس.

في حزيران ١٩٩٩، عند أقدام مزار Czestochowa في حضرة خمسة عشر ألف حاجّ، سجد يوحنّا بولس الثاني على ركبتيه أمام أيقونة العذراء ليكِلَ إليها من جديد حياته وخدمته البابويّة، ويكرّس لها كنيسة بولندا وكنائس العالم أجمع، ويسألها نعمة السلام الثمينة للبشريّة جمعاء والتضامن بين الشعوب. ترددات ملحّة تتوافق والجدليّة البولنديّة التي فهم عملها Valéry Giscard d'Estaing عند سماعه العظة التي ألقاها الحبر

الأعظم في نهاية القدّاس الذي احتفل به في حزيران ١٩٨٠، وشاركه فيه أساقفة Ile-de-France وأربعمئة كاهن على المنصّة الجبّارة التي أُقيمت أمام كاتدرائيّة Notre Dame.

"أصابني الذهول أثناء العظة التي فيها يردّد يوحنّا بولس الثاني السؤال الذي طرحه يسوع على الرسول بطرس "أتحبّني؟"، فيها راح يردّد عدّة مرّات، هذا السؤال الأساسيّ مُرجِعاً خطابه إلى نقطة الانطلاق. في الواقع، إنّه لشكل من التفكير المنطقيّ الدائريّ، أقلّ منه صوريّة وأقلّ استنتاجيّة من تفكيرنا. طريقته تقوم على شرح براهينه بطريقة أكثر كلاسيكيّة وانفعاليّة من طريقتنا التي تنطلق من نقطة لتصل إلى أخرى. هذا البيان وهذا المنطق الدائريّان البابويّان اللذان هما سلافيان أكثر بكثير ممّا هما لاتينيّان، لا يستنجدان البتّة بالمنطق الداكرتيّ. إنّه يسير في طرقات عرضيّة، ويقود شعبه كجماعة تسير، إنّما يردّها من دون انقطاع إلى النقطة عينها".

"يستمرّ الأب الأقدس على قناعته بأنّ العذراء تحميه دوماً"، كما أسرّ إليّ أحد المقرّبين إليه بصدد حادث جلل حدث في الفاتيكان. كان ذلك في ٦ كانون الثاني ١٩٩٨. من جديد، وكان يوحنّا بولس الثاني منحرف المزاج، ترنّح وكاد يهوي في أرض كنيسة Sixtine حيث كان سيمنح سرّ العماد، يوم عيد الملوك شأنه كلّ سنة، لعشرين طفلاً من جنسيّات مختلفة.

فجأة، شعر بدوار وبحركة غير أكيدة، حاول أن يتمسّك بعصاه الراعويّة الفضيّة الثقيلة، لكنّه هوى ووجد نفسه وقد تمسّك به في الوقت المناسب المونسينيور Marini قائد الاحتفالات البابويّة، الظلّ النافع له في كلّ من الاحتفالات الدينيّة. لقد عمل على أن يجنّبه مرّة أخرى السقطة البشعة، وبطريقة لبقة أكثر من العادة، خوفاً من آلات التصوير العديمة الشفقة في مثل هذا اليوم المهمّ من روزنامته. إنّ هذا الرياضيّ والحبر المميّز، ابن الثماني والخمسين سنة، المشهور بهدوئه في الفاتيكان، لهو ماهر بما فيه الكفاية، يراقب بمهارة (هو نفسه الذي نراه دوماً في التلفزيون على يمين البابا أثناء القدّاسات) حسن سير الاحتفالات الدينيّة، مشاركاً فيها وعيناه تنظران دوماً إلى الأب الأقدس. تلك المرّة، بينما كان يرافقه إلى إيقاع مشيته، وكان أسقف روما قد توقّف على مدخل الكنيسة Sixtine الفخم، منتظراً حسب البروتوكول نهاية ترتيلة الاستقبال، وقبل أن يتقدّ، شعر المونسنيور Marini أنّ الأمور ليست على ما يرام كالعادة، فأمسك

عفويّاً بالبابا قبل أن يهوي. إنّي أقرّ بدون مواربة بأنّ البابا هوالرجل الأكثر شهرة في العالم والذي ترافقه تلفزيونات العالم أجمع: "بأنّه، ولماذا أخبّئ ذلك، علاوةً على أنه يرتجف فهو يتمايل أحياناً، ويحرّك رأسه وبطريقة غير عاديّة أحياناً أخرى. وقد يضيّع الاتّزان عندما يهمّ بالركوع. عندئذ، وبفطنة، أمدّ له ذراعي ليستند إليها. هذه الحركة البسيطة تجعله يطمئنّ عندما تكون خطواته غير ثابتة ويرتجف".

انّ قائد الاحتفالات يتكلّم على هذه اللحظات بطبعيّة مذهلة، من دون أن يلفت الانتباه إلى المهارة التي بها يحمي الطيفُ الشيخَ والعظامَ السريعةَ الانكسار للانسان ذي اللباس الأبيض، الذي لا يقوى فعليّاً على التملّص من عصاه التي يعلوها صليب. المشكلة الحقّة هو أنّه لم يُرِدْ أن يسمع تحذير طبيبه القاسي بعد هذا الانزعاج الصغير، الذي اعتبره كجرس انذار جديد. كان هذا بضعةَ أيّامٍ قبل أن يطير في سفر راعويّ طموح إلى كوبا. لقد سألاه أن يلغي هذا السفر لخمسة أيّام مع ستّ سفرات ذهاباً وإياباً بالطائرة داخل الجزيرة، علاوةً على مرحلة القيظ الشديد من Santiago إلى أقدام Sierra Maestra. سفرٌ يُعتبرُ بجملته مجازفةً. والانتقال المفاجئ من مناخ شتويّ إلى مناخ حارّ هو الآخرُ خطرٌ إضافيٌّ. لقد تمنّع. والأدهى هو أنّه، بعد بضعة أيّام من هذا الانزعاج، غيرُ راضٍ عن المهمّات العديدة التي فُرضت عليه في بدء هذه السنة؛ فقد فكر في آخر دقيقة أن يرتجل انتقالاً إلى أسّيز على إثر هزّة ليشجّع الناس... وهذه المرّة أيضاً لم يؤثّر عليه أطبّاؤه البتّة، ولا "عائلته" البولنديّة أيضاً. ما من سبب طبيّ يروق له، لا هزّاته ولا انزعاجاته، لا الله ولا الشيطان، لأنّه يعتبر قبل كلّ شيء أنّه إذا لم يقع أرضاً في ٦ كانون الثاني، فالفضل في هذا، لا يعود إلى يد المونسينيور Martini التي أنجدته، بل إلى يد العذراء مريم.

الفصل التاسع

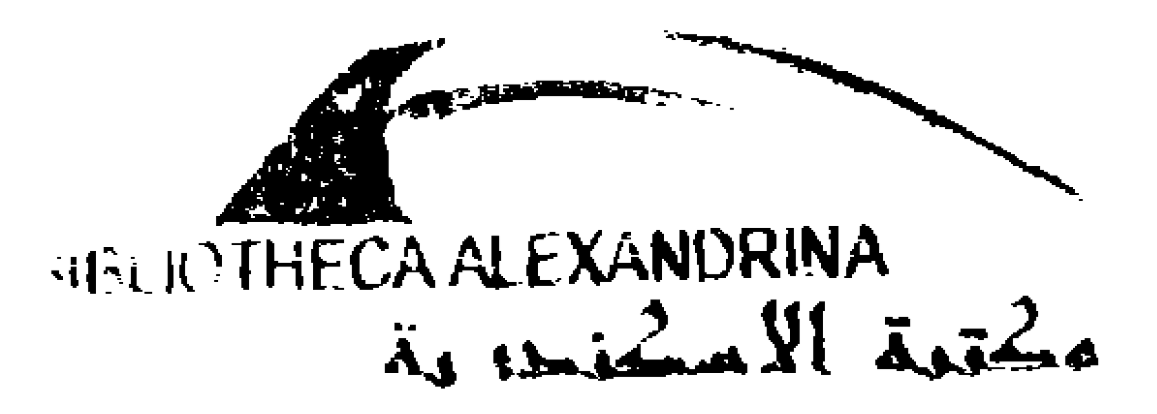
رسالة سرّية يجب فتحها
فيما لو؟

إنّ السابع عشر من حزيران ١٩٩٩ لهو يوم غنيّ بالعواطف، بالنسبة إلى يوحنّا بولس الثاني. فبعد أن احتفل بقدّاسه في كاتدرائيّة القصر الملكيّ الفخمة في Wawel، قام بزيارة لمقبرة Cracovie كي يخشع للمرّة الثالثة لحبريّته أمام قبر أهله.

عَبَر Karol Wojtyla بخطى وئيدة المقبرة القديمة، حيث عدد من أصدقائه هم مدفونون، ليصلّي أمام المدفن العائليّ، والتأثّر بادٍ على محيّاه. إنّها بلاطة ضريح من الصوّان الرماديّ محاطة بخمس مزهريّات من الصوّان أيضاً، حيث لوحة من الرخام الأبيض محفور فيها بأحرف من ذهب اسم KAROL. كما في غالب الأحيان عند السلاف، فإنّ يوحنّا بولس الثاني يحمل اسم أبيه: ضابط قديم في الجيش الأوسترو- مجريّ وفي الجيش البولنديّ. وعلى لوحتين أخريين، حفر اسم أمّه إميليا واسم أخيه إدمون الذي يشبهه تماماً. بعد أن قبّل الضريح الحجريّ، وضع البابا يده النحيفة والمرتجفة على حجارة الضريح المغطّى بالزهور الصفراء والبيضاء: ألوان الفاتيكان، والزهور البيضاء والحمراء: ألوان بولندا...

أثناء زيارة من زياراته، شاهده فتى ساجداً، فأخذ يداعب أوتار كمنجته على مقربة منه، وكان قد أتى برفقة أهله ليخشع أمام أجداده وليلعب على كمنجته إكراماً لهم.

في هذا الاحتفال الخاصّ جدّاً، خشع يوحنّا بولس الثاني لدقائق طويلة صامتاً. زرت المقبرة وأُخذت بجمالها الهندسيّ. المدافن كلّها معتنى بها ومزيّنة بالزهور. وقد



أخذ الروس على عاتقهم أن يبنوا هنا نصباً تذكارياً لجنودهم الذين حرّروا Cracovie، وهو نصب الذي لا يحظى بتقدير البولنديين.

بخلاف Francois Mitterrand الذي كان يتمتّع بذوق واضح حيال المدافن، يمكن لأنّها تحدّثه عن التاريخ، فإنّ البابا لا يبدو له مثل هذا الايثار. إنّ هذا يعود، ولا شكّ، إلى أنّ البابا ينظر إلى الموت مباشرة بالعينين وبكلّ هدوء. هذا الموت الذي رآه يطوف غالباً جدّاً حواليه، في بلد قدّم ستّة ملايين ضحيّة أثناء الحرب العالميّة الثانية، وكان محلاً مأساوياً لمعسكرات الإبادة في Treblinka وSobibor وAuschwitz. لقد أِلفَ يوحنّا بولس الموت. لقد خسر أيضاً، وهو لا يزال في مقتبل العمر، عائلته كلّها ما عدا ابنة عمّ له. وهو ذاته كان على قاب قوسين من الموت عدّة مرّات؛ من دون أن نحصي محاولات اغتياله الخمس عشرة المثبتة (المحاولات الأخرى كانت خاطئة)، والتي أحبطت أحياناً في اللحظة الأخيرة.

في ١٦ شباط ١٩٨١ كاد البابا يقع ضحيّة محاولة قتل في الباكستان. لقد حدث انفجار قبل وصوله بعشرين دقيقة إلى منصّة كاراتشي، وعلى أربعين متراً من المذبح حيث كان سيحتفل بالقداس. لقد قتل مرتكب الجريمة بانفجار القنبلة التي كان يحملها في جيبه.

في ١٣ أيّار ١٩٨٢ في فاتيما، الحبر الأعظم هو موضوع محاولة اغتيال بالسلاح الأبيض اقترفها كاهن اسبانيّ أصوليّ.

بعد ذلك بسنة في روما، انتهر البوليس أحد مواطنيه المزوّد بسكّين، وكان يكمن للبابا عند ممرّ عليه أن يسلكه.

بعد أربعة عشر شهراً من ذلك، حاول شاب كوريّ تهديد البابا في سيول بمسدّس (تبيّن فيما بعد أنّه لعبة).

في ١٧ أيلول ١٩٨٤، أثناء استقبال على شرف الحبر الأعظم في Toronto، انتهر البوليس رجلاً مزوّداً ببطاقة دعوة مسروقة ومسلّحاً بسكّين كان ينتظر البابا.

هذا من دون أن نحصي مؤامرات عديدة في فنزويلا والنمسا أعدّها الأتراك. وفي ساحل العاج حتّى، هذا ما يقال، في بولندا حيث أخبر الجنرال Zenon Platek المكلّف

بالأديان في وزارة الداخليّة، بأنّ محاولة قتل قد أُحبطت. نبأٌ كُذِّب فيما بعد... ولقد حاول مختلّون أن يقتربوا من البابا، سواء أكان في الفاتيكان أو في أثناء تنقّلاته. خلال أسفاره الراعويّة خارج ايطاليا، وُجّهت إلى رأس الكنيسة الكاثوليكيّة قبل وصوله تهديدات بالموت لا تحصى. وهذا ما أراد يوحنّا بولس الثاني أن يتجاهله. "لقد قال: إنّي أشعر بسلام كبير عندما أفكّر في الوقت الذي سيدعوني فيه الربّ. في ساعة موتي ادعني ومرني أن آتي إليك".

الموت، هذه اللقيا السامية مع الله، لا تخيفه. "قال ذات مرّة: إنّ كلّ الاحتياطات غير مجدية، ما إن أخرج وأنا مرتدٍ الأبيض حتّى أغدو هدفاً لا يُخطأ. والشيخوخة لا تخيفه أبداً. ألم يقل في فاتيما، بضعة أيّام بعد بلوغه الثمانين: ليست الشيخوخة الكلمة الأخيرة ولا الفصل الأخير. يجب ألاّ يتوقّف الانسان عن أن يكون في الخطّ الأوّل عندما يشعر بأنّه أخذ يشيخ في جسده وفي روحه، ممتحَناً بالمرض أو بالألم. إذا كنت تعرف الحبّ الأبديّ الذي خلقك، فأنت أيضاً على يقين بأنّ لك نفساً هي أيضاً خالدة. الحياة تشتمل على عدّة فصول ليس الشتاء آخرها، لأنّ الآخر إنّما سيكون الربيع، ربيع القيامة. حياتك في مجملها لا تحدّها حدود الأرض. المتوقّع إنّما هو السماء..." بهذا التفاؤل، وبهذا الإيمان اللاّمتزعزع، يريد راعي الكنيسة الجامعة، عبر هذه الرسالة للأشخاص الشيوخ، أن يُشركَ كلَّ خرافه. وكما يشرح ذلك أمين سرّ المجمع الحبريّ للعلمانيّين المونسينيور Slanislaw Rylko: "يحيا البابا سنة العشرين أربع مرّات بطبعيّة كبيرة. إنّه لا يخاف أن يدلّ الجميع على الحدود والوهن اللذين يحدثهما العمر، ولا يفعل شيئاً ليخفيهما. إنّه يتطلّع بعيداً في المستقبل، وبحماس الشباب الدائم، شباب الروح؛ إنّه يحافظ عليه ولا عيب فيه".

في رسالته "إلى الأشخاص المسنّين" التي نشرت في تشرين الأوّل ١٩٩٩، يطلق الحبر الأعظم صرخة لصالح "شيخوخة مقبولة ومقيّمة حقّ قيمتها، لا شيخوخة مطروحة على هامش المجتمع". وهكذا هو ينوّه بأنّ الشيوخ في بعض المناطق، ولاسيّما في أفريقيا "هم محترمون بمعرفةٍ تامّة كمكتبات حيّة". إنّه يشجب بقوّة الموت الرحيم الذي يعتبر "موتاً ناعماً، والذي خسر شيئاً فشيئاً عند عدد كبير من الناس من معناه المرعب الذي يجب أن يستثيره طبعاً عند الذين لديهم شعور باحترام الحياة".

ويذكر، علاوةً على ذلك، بأنّ علم الأخلاق يسمح بالتخلّي عمّا يسمّى العناد العلاجيّ، وأنّه يستدعي بذل الاهتمامات التي تدخل في قواعد المساعدة الطبّية. وهو يتحدّث دوماً بصفاء وصراحة، وهو واعٍ بأنّه يتوجّه بنوع خاصّ إلى أُناسٍ يعاصرونه، مقدّماً لهم أيضاً إيمانه الفعّال مثالاً. "إنّي أحافظ على تذّوقي للحياة، بالرغم من الحدود التي تتأتّى مع العمر".

ما المتوقّع في حال أنّ البابا توفّي فجأة؟

حوار يشكّل، عبر السنين، مادّة دسمة للأحاديث الرومانيّة. لا وجود لطقس يتمّ بموجبه نقل سلطات الأب الأقدس. كلّ البنيان إنّما هو يبنى حول شخص الأب الأقدس وحده. على كلّ حال هذا ما يقدّر كلّ يوم في حياة الفاتيكان الحاليّ. لا شيء يتحرّك، ما من قرار مهمّ يؤخذ من دون موافقة يوحنّا بولس الثاني. كلّ ما في المستطاع أن يعمل، هو تصريف الأعمال العاديّة.

في حال الموت المفاجئ، فذلك في حسبان قانون انتخاب الحبر الأعظم. فالكرادلة الذين هم دون الثمانين يجتمعون في مهلة أسبوعين. لا يمكن أن يكونوا أكثر من مئة وعشرين كاردينالاً. إنّ هذه الجمعيّة، التي يطلق عليها اسم "مجمع الكرادلة"، يجب أن تلتئم بين جدران الفاتيكان، حيث سمّيت بناية باسم Domus Santae Marthae، وبنيت خصّيصاً لهذه الغاية. على الكرادلة في المجمع ألاّ يكون لهم أيّ اتصال مع العالم الخارجيّ. ويجري الانتخاب بأوراق اقتراع سريّة في كنيسة الـSixtine. إنّ الأكثريّة الضروريّة لانتخاب البابا هي ثلثا عدد المنتخبين زائد صوت واحد. فيما مضى كانت الأوراق تحرق. منذ يوحنّا الثالث والعشرين تحفظ بطريقة سريّة في المحفوظات الفاتيكانيّة. يعلم الجمهور المجتمع في ساحة القدّيس بطرس بانتخاب البابا بدخان أبيض يصدر عن حرق نار في الهشيم. عندما لا يحصل الانتخاب يرطّب القشّ، والدخان هو أسود. تستخدم الكنيسة المعاصرة لهذا الغرض بودرة ناريّة. فالكاردينال Sodano، أمين سر الدولة، أي وزير البابا الأوّل، يمسك سريعاً بالمجمع. إنّه يعهد إلى المونسنيور Leonardo Sandri أي أمين سرّ الفاتيكان العامّ، وإلى المونسنيور Tauran وزير خارجيّة الفاتيكان، أن يتتبّعا الملفّات حتّى الاعلان عن بابا جديد. طبعاً لا يتمكّن

هذان الحبران الأعليان من أحبار الكوريا، من ممارسة سلطات عقائديّة ولا سيامة أساقفة.

وإذا قرّر البابا أن يستقيل؟ هذا حساب نظريّ تطلقه وسائل الاعلام باستمرار. في بادئ الأمر، لا يستعمل الكرسيّ الرسوليّ الكلمة العنيفة "استقالة" بل "التخلّي الاراديّ"، وفق المفردات الكنسية. فالاستقالة يجب فعلاً أن تُقَدّم إلى رئيس، وليس للبابا من رئيس في هذا العالم. لا يوجد في هذا المجال قاعدة مكتوبة أخرى سوى المادّة ٣٣٢ من الحقّ القانونيّ، التي تنصّ بأن فعل تخلّي البابا كي يكون صحيحاً، يجب أن يكون فعلاً حرّاً ومعلناً كما يجب. إنّ نصّ الاستقالة هذا هو أحياناً حديث الحلقات الفاتيكانيّة، وأتى على ذكره أيضاً، في مجلّة الـStampa الرصينة في ١٠ كانون الثاني ٢٠٠٠، الكاتب الكاثوليكيّ Vittorio Messori مؤلّف كتاب أحاديث مع البابا. يفهم منه أنّ البابا هو "ممزَّق" داخليّاً، وتستهويه العزلة في دير بولنديّ. لكنْ، لا شيء أتى يؤيّد افتراضاته. ولقد أعلن المطران Karl Lehmann من جهّته، وهو رئيس مجمع الأساقفة الألمان في كانون الثاني الماضي قائلاً: "إنّي أثق شخصيّاً بأنّ البابا له من القوّة والشجاعة، أن يقول في حال أنّه شعر بعجزه في قيادة الكنيسة: "لقد انتهى الأمر بالنسبة إليّ". فقدّمت وسائل الاعلام الايطاليّة هذه الكلمات وكأنّها دعوة كي يستقيل البابا، الشيء الذي كذّبه المونسينور Lehmann. هذه الاشاعة هي قريبة الاحتمال نوعاً. لقد تجاوز يوحنّا بولس الثاني الثمانين من عمره، كما سبق وقلنا، وعدّة مشاريع هي موضوع اهتماماته جدّاً. مع الايمان الذي لا يتزعزع والذي يعمر به صدره، من الصعب جدّاً أن ينسحب قبل تحقيقها أو التقدّم بها. تجدر الاشارة إلى أنّه، إذا كان على الأساقفة الأبرشيين أن يقدّموا في الخامسة والسبعين من عمرهم استقالتهم إلى البابا، وفق قاعدة أدخلها بولس السادس (باستطاعة البابا رفضها)، فالقاعدة لا تنسحب على أسقف روما؛ فيوحنا الثالث والعشرون انتخب بابا في السابعة والسبعين من عمره.

على مئتين وثلاثة وستين من أسلاف يوحنّا بولس الثاني، خمسة فقط استقالوا من مهمّتهم، وكان آخرهم غريغوريوس الثاني عشر سنة ١٤١٥. لقد أتى بولس السادس على ذكر استقالته لأسباب صحيّة من دون أن يقرّ رأيه في ذلك.

وتسير وشوشات أيضاً في روما بأنّ البابا أودع منذ بعض الوقت الكاردينال Sodano رسالة تخلٍّ، يفتحها في حال عجز البابا. كما لو أنّ البابا كان يخاف أنّه في حال ضعفت قواه العقليّة وأصبح عاجزاً دون إدراك منه، يكون قد فوّض أمره إلى رأي الكنيسة. مهما كان من أمر، فالحقّ القانونيّ الكنسيّ لم يحتَطْ بأن تبدي هيئة الكنيسة رأيها في هذه المسألة الدقيقة جدّاً، وتقيّم درجة عجز البابا. نحن هنا في حقل النظريّات الأشدّ خلوصاً، والتي يشجّع عليها انحطاط صحّة يوحنّا بولس الثاني البطيء، وغياب أيّة إجراءات قانونيّة حول هذا الأمر. إنّ أيّ إجراء مانع حسب الطريقة الأميركيّة لم يحتسب له. إنّ معظم البابوات قد ملكوا حتّى عمر متقدّم، والاحترام الذي كان يقدّم لهم حال بنوع عامّ دون أن يضطرب الكرادلة من شيخوختهم. يوضح الحقّ القانونيّ بأنّ البابا ينقطع عن القيام بالنشاط فقط في حال الموت. غير أنّ الحقّ القانونيّ يبيّن على "أنّ الجنون الأكبر والدائم يمكن اعتباره موتاً"، بعد التأكّد منه بواسطة لجنة من الأطبّاء. إنّنا نتخيّل كم هو صعب، في بلد يعبد البابا، أن تلتئم جمعيّة من الأطبّاء يجسرون على وضع تشخيصٍ دقيقٍ حول الجنون. ومهما يكن من أمر، ففي حال الموت أو الاستقالة أو التأكّد من الجنون، ينطلق حالاً جهاز "الكرسيّ الشاغر" ومجمع الكرادلة لانتخاب البابا؛ فيؤمّن مجمع الكرادلة المقدّس وعميده الكاردينال Le Beninois Bernardin Gantin الأعمال الاداريّة المرعيّة الاجراء.

هل في إمكان البابا أن يحضّر وصيّة؟ إنّه يسجّل بيده إراداته ويختمها بخاتمه بالشمع الأحمر والشعار البابويّ.

إنّ البابا بولس السادس الذي توفّي في ٦ آب ١٩٧٨، بعد أن ولّي البابويّة خمس عشرة سنة وستة وأربعين يوماً، ترك وصيّتين على التوالي: الأولى في ١٦ كانون الأوّل ١٩٧٢، أردفها في ١٤ تمّوز ١٩٧٣ بملاحظة إضافيّة. إليك ترجمة هاتين الوصيّتين:

"باسم الآب والابن والروح القدس. آمين. أشخص بنظري إلى سرّ الموت وإلى نور المسيح الذي ذاق الموت بدوره، وهكذا بكلّ تواضع وصفاء... إنّي أحمد المنتصر على الموت، لأنّه هرب من الظلمات وكشف لي عن النور الأبديّ. وهكذا، ما وراء الموت ومنقطعاً عن الحياة نهائيّاً وتماماً، إنّه لمن واجبي أن أهتمّ بعطايا الثروة والجمال والخيرات التي تأتّت إليّ من حياة زائلة. إنّي أشكر كلّ الذين أحسنوا إليّ. إنّي أستغفر

من كلّ مَنْ أسأت إليهم أو أغظتهم، وأسلّم ذاتي إلى سلام الربّ... سلامي إلى أخويّ العزيزين Ludovico et Francesco وإلى كلّ فرد من أفراد عائلتي القريبة والبعيدة، وأشكر أصدقائي لأنّهم قبلوا خدمتي. أشكر جميع معاونيّ، وبنوع خاص أمانة سرّ دولة الفاتيكان. إنّي أبارك بحرارة وبنوع خاص Brescia, Milan, Rome وكلّ ما يتعلّق بالكرسيّ الرسوليّ. أعهد إلى أمين سرّي الخاصّ العزيز الأب Pasquale Macchi التصرّف بممتلكاتي الشخصيّة لصالح الأعمال الخيريّة (ربطاً لائحة وضعت بأسمائها). وأن يسلّم تذكاراتي الشخصيّة من كتب وأشياء ترجع لي إلى أشخاص أعزّاء على قلبي. لا أرغب في قبر خاصّ ولا في نصب تذكاريّ. أريد دفنة بسيطة جدّاً، وصلوات فقط ليعطيني الربّ رحمته. إليكم جميعاً بركتي باسم الآب. Castel Gandolfo، في ١٦ كانون الأوّل ١٩٧٢، الساعة السابعة والنصف، وفي ١٤ تمّوز ١٩٧٣".

هذه الوصيّة المقتضبة جدّاً، الأخلاقيّة أكثر منها ماديّة، وهذه الوصيّة الزهديّة، اطّلعت عليها عائلته وجمعيّة الكرادلة العموميّة. إنّ إرادته الأخيرة بقيت إلى النفس الأخير أمانة بين يدي أمين سرّه الخاصّ، والذي جعل منه أيضاً منفّذاً لوصيّته. سلّم المونسينيور Macchi هذه الوصيّة ووثائق بولس السادس الشخصيّة إلى مؤسّسة بولس السادس في Brescia، والتي لا يزال يهتمّ بها دوماً بكلّ اندفاع.

لم يترك يوحنّا بولس الأوّل وصيّة. إنّ خدمته التي امتدّت إلى ثلاثة وثلاثين يوماً، لم تعطه الوقت ليكتب وصيّة.

إنّ أحباراً عظاماً آخرين لم يتركوا ممتلكاتهم لا للكنيسة ولا للأعمال الخيريّة، بل لعائلاتهم. هذه كانت حال البابوات الأمراء في عصر النهضة، الذين كان لهم بلاط وعائلة كبيرة، إذاً وارثون عديدون. وكان لهم قصور فخمة، هي شهادات رائعة على السلالات الشريفة التي تمتلكها، وهي سليمة حتّى يومنا هذا. إنّها تشتمل غالباً على كبالات جميلة، حيث يحتفل بالقدّاس بطريقة منتظمة، ويمنح سرّ العماد لأولاد الأمراء المالكين، وتبارك زيجاتهم ويصلّى على موتاهم. يمكن للداخل إليها أن يرى عامّة في مداخلها الفخمة قبّة عالية أرجوانيّة للشعار البابويّ. فالأمير Alessandreo Farnèse الذي أصبح فيما بعد بولس الثالث، ترك وراءه قصر Farnèse (الذي يستظلّ اليوم سفارة فرنسا). وUgo Boncompagni، الذي أصبح غريغوريوس الثالث عشر، ترك لوارثيه فيلّا

Aurora الملك الكبير الخاصّ في قلب روما، على خطوتين من Via Veneto، ويملكها اليوم وريثه المباشر (كان للبابا ولد قبل انتخابه) الأمير Nicolo Boncompagni Ludovisi؛ وIppolito Aldobrandini الذي أصبح Clement VIII، ترك فيلّا Frascati وكرم العنب الشهير الذي يحمل الاسم نفسه؛ وCamillo Borghèse الذي أصبح بولس الخامس، ترك قصرين واسعين جدّاً في قلب المدينة، وMaffeo Barberini، الذي أصبح Urbain VIII، هو أيضاً بنى قصراً في قلب روما؛ وGiambattista Pamphili، الذي غدا Innocent X، أورث قصراً يشتمل على رواق مرايا يضاهي بروعته رواق المرايا في Versailles، وعلى مجموعة من الرسوم من ضمنها الرسم الأشهر للبابا Innocent X لـVélasquez، ومجموعة بيوت (أكثر من مئة وخمسين)؛ وFabio Chigi، الذي صار Alexandre VII، أورث قصراً يستظلّ اليوم المجلس النيابيّ وBenedetto Odescalchi، الذي غدا البابا Innocent XI، بنى قصراً في قلب المدينة الخالدة خمس مرّات أكبر من قصر الأليزيه؛ وLorinzo Corsini، الذي غدا البابا Clement XII، بنى قصر Corsini في فلورنسا الذي يخصّ دوماً العائلة الأصل، والذي هو مسرح لأجمل عروض الأزياء الايطاليّة.

وهكذا فإنّ ٥٠ قصراً لا تزال بين أيدي سلالة أمراء الرسل. إنّ همّ طبقة النبلاء البابويّة الشهيرة والرائعة التي تدعى "طبقة النبلاء السوداء"، إنّما هي الرصانة؛ وتنظر أحياناً إلى البقيّة الباقية من الأرستقراطيّة باستعلاء، حتّى ولو كانت العائلة الملكيّة الانكليزيّة. وتظنّ نفسها أيضاً بأنّها ترمز إلى الاستمراريّة بين روما قيصر العظمى، وروما البابا الجامعة. هؤلاء البابوات النهضويّون شيّدوا أملاكهم الهائلة على أطلال روما القديمة، مسندين قصورهم إلى جدران قديمة جدّاً أو إلى عواميد مفكّكة. فقصر Massimo alle Colonne الذي هو دوماً قصر عائلة أمراء Massimo، العائلة الرومانيّة الأعرق، قد بني على أنقاض Odéon الأمبراطور Domitien. إنّ هذه القصور الرائعة التي أغناها Vélasquez - Carrache - Poussin - Caravage... لهي شاهدة لعصر، حيث لم يكن هناك سوى فاصل رمزيّ دقيق جدّاً كقربانة، بين طبقتي النبلاء ورجال الإكليروس الأعلى. إنّها أيضاً نتيجة ما يسمّى "محسوبيّة الأقارب" كلمة منحوتة من "Nipote" الايطاليّة ومعناها ابن الأخ أو الأخت. كما يشير إلى ذلك الأمير Pamphili Jonathan Doria، وريث Innocent X "فالأحبار الأعظمون إنّما كانوا يعيّنون أولاد إخوتهم كرادلة، ويأذنون لهم بشراء الأراضي وبناء الكنائس والقصور الشاهقة، حيث أنّ رجال الدين

يتبارون بالفخامة والأناقة". إنّ أمير Boncompagni Ludovisi، وريث Grégoire XIII وقصره، ينوّه قائلاً: "لقد أعطينا كثيراً عند ولادتنا، فأصبح من واجبنا أن نحافظ على هذا التراث عبر الأجيال، وأن نؤكّد استمراريّته. هذا من حقّ تاريخ البابويّة كما من حقّ تاريخ عائلتنا علينا."

من المؤكّد أنْ لا شيء من هذا بالنسبة إلى ممتلكات يوحنّا بولس الثاني، الشخصيّة الوضيعة. إنّه يملك ساعات عديدة من بينها Rolex مزيّفة، أعطاه إيّاها حجّاج، وأخرى سويسريّة غريبة الأطوار من ذهب، قدّمها له أميركيّون من أصل بولنديّ صنعت خصّيصاً له، أرقامها هي الإثنا عشر حرفاً التي تؤلّف اسمه واسم عائلته؛ وأزرار أكمام ثمينة، وبعض صلبان صدر من ذهب، ومثلها خواتم راعويّة (بدون حجارة كريمة طبعاً) وكتب. لا يملك ثروة خاصّة. على كلّ حال، يقول أحد أصدقائه البولنديين أنّه لمّا كان أسقفاً، ما كان يحمل معه قرشاً، لأنّه ما كان له حاجات. ويخبر الكاردينال Deskur بأنّ يوحنّا بولس الثاني لا يعلّق أهميّة على الأشياء الماديّة، ولا على ما في صحنه. وهكذا، ولأنّه يؤمن بالرموز، ولأنّه قدّم أشياء شخصيّة لمزارين مريميين، فسيترك، ولا شكّ، ممتلكاته المتواضعة وذكرياته إلى "عائلة قلبه"، إلى أحبّائه البولنديين...

بناءً على قولِ عضوٍ نافذٍ من الكوريّا الرومانيّة، كلّ مرّة يسافر فيها يوحنّا بولس الثاني أو يدخل إلى مستشفى Gemelli de Rome (لقد أمضى فيها حتى الآن ١٣٦ يوماً) يودِع قبل سفره الكاردينال Gantin، عميد الكرادلة، مغلّفاً أبيض مغلقاً وممهوراً على ظهره بختمه حيث الحرف M واضحٌ تماماً، وفي داخله رسالة، ولا شيء يفاجئ فيها، بروتوكوليّة ورسميّة يطلب منه فيها أن يؤمّن بصفة موقّتة إدارة الكنيسة بطريقة عاديّة، متّخذاً المبادرات المعجّلة والضروريّة. أمّا الرسالة الأخرى والأهمّ، أعني وصيّته الشخصيّة ويوميّاته الحميمة والوثيقة الثمينة جدّاً، والتي تحوي إراداته الأخيرة والسرّية، فإنّما هي في أيدي المونسنيور Dziwisz، الذي له يردّد بانتظام قناعته الإيمانيّة، وهي "أنّ الحياة لا تفنى بعد الموت إنّما تتغيّر". لقد تمنّى له آلاف الحجّاج البولنديّين حياة طويلة، وقد أتوا لحضور القدّاس الذي احتفل به في بازيليك القدّيس بطرس، بمناسبة عامه الثمانين نهار الخميس ١٨ أيّار ٢٠٠٠، يحيط به كهنة من العالم أجمع، غنّوا له الأغنية التقليديّة Stolat متمنّين له بلغته الأمّ أن يعيش "مئة سنة".

الفصل العاشر

بكّين وموسكو تحدّيان أخيران

لقد كانت أمنية يوحنّا بولس الثاني الكبيرة بلوغ السنة الألفين، والاحتفال بيوبيل السنة المقدّسة في روما.

لقد تحقّقت هذه الأمنية.

إنّه يشعر بأنّ العناية الالهيّة هي معه. لهذا، فالأب الأقدس يفكّر بمشاريع عظيمة: مصالحة الكنيسة الكاثوليكيّة مع الكنائس الأرثوذكسيّة، وتوحيد كنيستي الصين الكاثوليكيّتين: الرسميّة والسريّة.

هذان الطموحان كان يحملهما في قلبه أثناء سفره إلى إسرائيل. وإنّهما اليوم، وقد تقدّم في العمر، يشكّلان تحدّيين، وتحدّيين لا يبدوان غير معقولين، إذا صدّقنا حاشيته الطبّية. ما من سبب حتّى لا يتمكّن البابا من العيش بعد طويلاً، حسب اختصاصيي مستشفى Gemelli. إنّ قلبه وشرايينه لهي في حالة جيّدة، بالنسبة إلى رجل في الثمانين من عمره. أخيراً إنّ وجهه نضر، وليس في حاجة إلى نظّارات ولا إلى سمّاعات. إنّه يسمع جيّداً (إلاّ اذا كان لا يريد أن يسمع).

يجب أن يمنحه الله أيضاً بضع سنين، كي يتمكّن من تحقيق مشاريعه المسكونيّة المهمّة اليوم بالنسبة إليه. ولو كان منهكاً من التعب، فهو يجد دوماً الوقت ليستقبل كاهناً قادماً من روسيّا.

ولأنّ المصالحة مع الكنائس الأرثوذكسيّة لا تبدو أنّها ستحدث غداً، لهذا يجدّد الرئيس الروسيّ Vladimir Poutine أثناء زيارته للفاتيكان في ٦ حزيران ٢٠٠٠، دعوة

البابا لزيارة موسكو، دعوة كان سبق ووجّهها إلى البابا سلفه Boris Eltsine؛ مع العلم أنّ هذه السفرة كانت حلماً من أكبر أحلام يوحنّا بولس الثاني.

إنّ السبب الحقيقيّ لتردّد Vladimir Poutine بالنسبة إلى سفر هذا البابا، هي معارضة بطريرك موسكو ألكسي الثاني. كلّ مرّة، كان البطريرك يصرّح أمام الصحافة الروسيّة، بأنّ الأمر ينظر فيه مستقبلاً، كان يتعرّض حالاً لاحتجاجات المجمع المقدّس (مجمع الأساقفة الأورثوذكس الروس). والبابا، وقد تلقّى دعوة من الرئيس الروسيّ، فهو لن يذهب بدون شكّ إلى موسكو من دون موافقة صريحة من المجمع المقدّس. لقد أوضح Vladimir Poutine في حديث صحافيّ قائلاً: "إذا أتى البابا إلى موسكو من دون أن يلتقي البطريرك، فإنّ الأمر يحدث شكّاً عظيماً، وهذا لا يساهم في تقريب وجهات نظرنا. البابا هو إنسان ذكيّ. إنّه يفهم كلّ شيء بطريقة جيّدة جدّاً". إنّ محاولتين للقاء يوحنّا بولس الثاني وألكسي الثاني باءتا بالفشل أثناء سفر الأب الأقدس إلى المجر في أيلول ١٩٩٦، وأثناء سفر آخر إلى النمسا كان ألغي في حزيران ١٩٩٧.

ما يروَّج في الكرسيّ الرسوليّ هو أنّه بينما يذهب البابا إلى كوبا واسرائيل، يبدو الأمر غريباً بأن يُمنع من الاقامة في بلد مسيحيّ كبير. هل يجب أن نتصوّر بأنّ النزاعات بين الأخوة هي الأصعب حلاًّ؟ إنّ الأسباب هي سياسيّة وثقافيّة وعقائديّة معاً.

ما يفصل الكنيستين يرقى تقريباً إلى ألف سنة، ويصعب على المؤمنين فهمه في أيّامنا. لقد اختلفوا حول انبثاق الروح القدس. بالنسبة إلى روما، انبثق الروح القدس من الآب والابن، وبالنسبة إلى القسطنطينيّة من الآب فقط. إنّه صراع الـ"Filioque" و"الابن" الشهير.

من هنا الحرم المتبادل بين روما والقسطنطينيّة في سنة ١٠٥٤. زد عليه أنّ بطاركة القسطنطينيّة كانوا يرفضون، ويرفضون اليوم، الاقرار برئاسة أسقف روما. إلى هذه الانقسامات أُضيفَت مشاحنات حول وجود المطهر. وما زاد الطين بلّة وزاد من غضب الأرثوذكس، نهبُ الصليبيين للقسطنطينيّة في سنة ١٢٠٤. فلقد صرخ البيزنطيّون آنذاك: "العمامة أفضل من التاج".

منذ تصدّع الاتحاد السوفياتيّ والعودة إلى حريّة العبادة، تجد الكنيسة الأرثوذكسيّة الروسيّة نفسها ضحيّة هجوم شرس من قبل المرسلين الكاثوليك، هي التي كانت دوماً الديانة الوطنيّة، تحت حكم ستالين (حيث كان رجال الدين خدّام الحزب الحقيقيين) كما تحت حكم القياصرة. هناك موضوع آخر للخلاف. ما لا يقبل الجدل هو أنّ البابويّة، منذ بيّوس الحادي عشر، تحاول بحنكة أن تنتشر في روسيّا، وذلك بتمتين بنية كاثوليكيّة تسلسليّة. لقد رسم بيّوس الحادي عشر أساقفة بطريقة سرّية، في أيّام ستالين، تقوم مهمّتهم بأن يرسموا بدورهم وبطريقة خفيّة كهنة كاثوليك. ما يقلق ألكسي الثاني هو الكنيسة الكاثوليكيّة الروسيّة، التي تحصي بين أبنائها مئة كاهن، عشرةٌ منهم من أصل روسيّ، ومليون مؤمن هم في أغلبيّتهم من أصل بولنديّ، أو أرمنيّ من الذين نفاهم ستالين. لقد قدّم ألكسي الثاني دعمه الفعّال لـBoris Eltsine عندما أعيد انتخابه في ربيع ١٩٩٦.

عندما كان جاك شيراك يتنقّل في روسيّا في أيّار ١٩٨٧ كرئيس للوزراء، تحقّق بذاته من أهميّة الكنيسة الأورثوذكسيّة، فحرص، نزولاً عند إلحاح مترجم الجنرال ديغول إلى الروسيّة والانكليزيّة، الأمير Costantin Andromikof، وشمّاس الكنيسة الروسيّة في باريس ولاهوتيّها، أن يحضر، مع بعض الأشخاص ومن بينهم الصحافيّ Paul Gilbert وأنا، قدّاساً مرتّلاً لمدّة ثلاث ساعات في كنيسة التجلّي في Peredelkino على مقربة من موسكو، وليس بعيداً عن قبر Boris Pasternak.

هناك موضوع خلاف آخر، وهو أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة التي أُبيدت في عهد ستالين، صودر عهدئذ عددٌ من كنائسها، استولى عليها الأكليروس الأورثوذكسيّ. إنّها تعمل اليوم جاهدة لتسترجعها.

أخيراً، هناك الخلاف مع الروم الكاثوليك المتّحدين مع كنيسة روما. إنّه خلاف قديم يرجع إلى ثلاثة قرون، الأمر الذي يصعب فهمه في الغرب. ففي زمن معارضة الإصلاح، أرغَم القادة الكاثوليك، في كلّ من النمسا والمجر وبولندا، بعض رعاياهم من الكنائس الأورثوذكسيّة أن يقرّوا بأولويّة أسقف روما. إلى هذا، يرجع أصل الكنائس المتّحدة التي تضمّ إليها مسيحيين شرقيين ذوي طقس بيزنطيّ، ولكنّها تخضع لسلطة

البابا. إنّ كنيسة أوقرانيا المتّحدة التي اضطهدت في عهد ستالين، ترفع الرأس اليوم، وتعتبرها موسكو العمود الخامس للفاتيكان.

لقد حاول يوحنّا بولس الأوّل أن يلتفّ على ألكسي الثاني بدعوته ميتروبوليت لينينغراد، المونسينيور Nicodem، الحبر الملتزم بما فيه الكفاية بالحوار مع روما. ففي الزمن الذي كانت فيه روسيّا لا تزال شيوعيّة، كان يرى أن لا غنى للأورثوذكس عن دعم الكاثوليك. لقد أسرّ إلى الكاردينال Köning، رئيس المجمع الجديد للحوار مع غير المؤمنين: "بدونكم نحن هالكون". مع الأسف، إنّها لذكرى مرعبة ومروِّعة، إذ أثناء المقابلة التي منحه إياها البابا يوحنّا بولس الأوّل، في ٥ أيلول ١٩٧٨، وقع أرضاً وقد صعقته أزمة قلبيّة. فيما بعد، علّق البابا يوحنّا بولس الثاني قائلا: "إمّا أنّ الموت عاجله، وإمّا أنّ البابويّة آجلتني". كان القدر يجدّ في أثره.

إنّ ألكسي الثاني، ابن الاحدى والسبعين سنة وبطريرك موسكو منذ عشر سنوات بعد أن كان ميتروبوليتاً على لينينغراد، هو الذي يقف في وجه يوحنّا بولس الثاني، تَسنُده اليوم الحكومة الروسيّة. فالكنيسة الأورثوذكسيّة هي بالفعل عنصر ثمين للاستقرار، في بلد الدولةُ فيه مهتزّة والادارةُ مشلّعة. إنّ Vladimir Poutine، المؤمن والممارس، جزم منذ ارتقائه سدّة الرئاسة، بأن تستعيد الكنيسة الأورثوذكسيّة رسالتها التقليديّة في توحيد الروس واستقرارهم حول أولويّات أخلاقيّة مشتركة. إنّه يحضر، بطيبة خاطر، الاحتفالات الدينيّة. إنّ Eltsine كان قد ارتدّ نوعاً، وأعطى سرّ العماد لخمسة من أحفاده. وكما كان يقول سفير روسيّا السابق لدى الكرسيّ الرسوليّ Viacheslav Kostilov "إنّ الشعور الدينيّ عند Boris راح يتنامى، وقد يمكن أنّ الله سكن فيه". هناك حركة أخرى ذات مغزى بالنسبة إلى الحظوة الرسميّة التي تنعم بها الكنيسة الأورثوذكسيّة، وهي أنّ عمدة موسكو، بعد أن قبل هو أيضاً سرّ العماد، أصدر أوامره من منتصف سنة التسعين لإعادة بناء كاتدرائيّة المخلّص، الكاتدرائيّة الروسيّة الأكبر، والتي فُجِّرت بالديناميت نزولاً عند أوامر ستالين في سنة ١٩٣١. إنّ طلاء قبّة العاصمة الرهيبة بالذهب اقتضى لا أقلّ من خمسين كيلو من أوراق الذهب الناعم.

إنّ ألكسي الثاني، هذا البطريرك الوقور، المُعْتمِر تاجاً غنيّاً والمستند على عصاه الرمّانيّة على شاكلة أفعى، هو محاط دوماً بسيل من الأساقفة والرهبان المتقدّمين في

العمر والملتحين، الذين يهاجمون المسكونيّة، هذه الفكرة الفاسدة الوافدة من الغرب. إنّهم يعتمدون على قوّة كنيستهم بأبرشيّاتها المئة والثماني والعشرين، وكهنتها السبعة عشر ألفاً والخمسمائة، وشمامستها الألفين والثلاثمئة، وأديرتها الأربعمئة والثمانين. إنّهم كانوا يريدون أن يُحيوا المسيحيّة الروسيّة القديمة، وأن يجعلوا من موسكو روما الثالثة (الثانية كانت القسطنطينيّة). إنّهم لا يفعلون شيئاً لتسهيل الاتصالات مع الفاتيكان. لقد تشكّى حبر مهمّ من أحبار الكرسيّ الرسوليّ أمامي، بأنّه عندما كان يُسْتَقْبَلُ في موسكو، وقليلاً ما كان يحدث ذلك، كان هذا يحصل دوماً في قلب الشتاء، حيث الحرارة هي أدنى من ٢٥، الأمر الذي يبلبل شخصاً معتاداً على جوّ روما المعتدل. على كلّ حال، كان يقول: "تجلّدت من البرد حتى كنت بالكاد أقوى على الكلام".

في شهر آب الفائت، أكّد بطريرك موسكو في ندوة صحفيّة، على أنّ لقاء مع البابا غير ممكن إلاّ إذا حُلّت مشكلتان كبيرتان: مشكلة الاقتناص الكاثوليكيّ في روسيا، ومشكلة اضطهاد الأرثوذكس من الروم الكاثوليك في أوقرانيا الغربيّة.

من جهته، ارتكب يوحنّا بولس الثاني على الأرجح أخطاءً تكتيكيّة؛ على سبيل المثال، اعترافه قبل سائر الدول بسلوفانيا وكرواتيا الدولتين الكاثوليكيّتين. وهذا ما عابه عليه ليس فقط "الصرب"، بل وأيضاً سائر البلدان الأورثوذكسيّة كاليونان ورومانيا، وطبعاً روسيا. في الحقيقة، إنّه لم يستردّ الحظوة التي كانت له عندهم، إذ طوّب في زغرب سنة ١٩٩٨ الكاردينال Stepinac الذي اتّهمه الشيوعيّون بأنّه كان متواطئاً مع Oustachi المؤيّد للنازيّة أثناء الحرب. وهذا غير صحيح، كما تشهد العشرون ألف صفحة للتطويب.

أخيراً، زدْ على ذلك أنّ الكنائس الأورثوذكسيّة التي تعيش في فقر مدقع، هي تحسد كنيسة روما التي تبدو زاهية.

على أنّ يوحنّا بولس الثاني إنّما هو يعتمد على ورقة الكردينال Christoph Schönborn، رئيس أساقفة النمسا الخبير الكبير في الكنائس الأرثوذكسيّة، لأنّه يمارس خدمته على أبواب الشرق، وحافظ على اتصالات عديدة معها. إنّه يلتقي بتحفّظ وبتواتر البطاركة الأرثوذكس. ويأمل البابا في أن تنطلق المحادثات بفضله من جديد مع

"الأخوة الضالّين". تمكّنت من أن أرى البابا ورئيس أساقفة النمسا معاً في ١٩٩٨، ولفت انتباهي اتفاقهما، إذ كان البابا ينظر إلى الكاردينال الفتى بمحبّة وثقة مرئيّتين وملموستين. إنّه قريب من كونت باريس، ويُحصِي بين أجداده كاردينالين. وعائلته هي إحدى العائلات التي صنعت La Mitteleuropa. لقد دخل Schönborn باكراً جدّاً عند الدومينيكان (عندما يذهب إلى روما ينزل دوماً في مدرسة الدومينيكان في شارع Cassia)، قبل أن يكتشفه يوحنّا بولس الثاني، ولا سيّما معرفته للكنائس الشرقيّة. لقد قدّر البابا لديه صفاته الثقافيّة، وطلب إليه أن يعظه في صومه الخاصّ في ١٩٩٦ (إنعام يرغب في الحصول عليه العديد من مجمع الكرادلة). ومع هذا، إنّه بطرقه الذكيّة وفكره الجامعيّ، يتميّز بإنشائه عن إنشاء يوحنّا بولس الثاني. إنّه سلافيّ أشدّ قساوة، ولكن البابا يرى فيه سفيراً نبويّاً للّه، باستطاعته–هذا ممكن فقط بعد موته– أن يعيد العلاقات إلى ما كانت عليه بين الكنائس المنقسمة.

على أمل أن يحدث لقاء بين الأب الأقدس وألكسي الثاني ذهب رئيس أساقفة Turin المونسينيور Severino Poletto في شهر آذار الفائت إلى موسكو، برفقة بعثة من كرسيه. قابل البطريرك ودعاه إلى Turin ليشاهد الكفن المقدّس.

من جهته حاول الأب الأقدس كلّ ما في استطاعته حيال بقيّة البطاركة الأرثوذكس. لقد ناشد، في بادئ الأمر، بطريرك القسطنطينيّة برتلماوس الأوّل، الذي تقرّ له روما بالأولويّة التاريخيّة للأرثوذكسيّة. هذا ما تعترض عليه الكنيسة الأرثوذكسيّة الروسيّة. "ليس لبطريرك القسطنطينيّة سوى مئتي ألف مؤمن، يقول ألكسي الثاني معترضاً، بينما عندي سبعون مليون مؤمن". ويأخذ البطريرك الروسيّ أيضاً على برتلماوس الأوّل، بأن أغنياء عندهم الأساطيل قدّموا له الأموال الطائلة من بينهم أرسطو Onassis. فمن بين الهدايا الكثيرة التي كان يقدّمها له أرسطو، هو أنّه كان يضع بطريقة منتظمة تحت تصرّفه طيّارة مألوفة L'Olympic Airways.

فالفاتيكان الذي قدّم له بدل دروسه في الاكليريكيّة الفرنسيّة في روما، هو يستقبله باكرام ويغدق عليه الهدايا. ويعامله يوحنّا بولس الثاني بحبّ رفيع مبالغ فيه. ولكنّ هذه التصرّفات الجيّدة ما كانت لتطلّ على شيء واضح، وما صلحت إلاّ لحمل ألكسي الثاني على اليأس. علاوة على ذلك، أخذ برتلماوس الأوّل حذره حديثاً، وذهب بعيداً

بأن طرح السؤال حول "مفهوم البابويّة الموجز" وحول المركزيّة الفاتيكانيّة "الثقيلة" التي تقابلها الأرثوذكسيّة المرنة.

إنّ برتلماوس الأوّل هو شخص غير مرغوب فيه خارج روما، لأنّه غالباً ما يترك ديوناً باهظة. بيد أنّ الرئيس شيراك الذي يحترم جدّاً السلطات الدينيّة، قدّم له احتراماً شديداً عندما استقبله في الاليزه في تشرين الثاني ١٩٩٥. ولقد استقبل الكاردينال Lustiger البطريرك في باريس، واحتَفَلَ للمرّة الأولى بصلاة المساء حسب الطقس الأرثوذكسيّ في كاتدرائيّة Notre Dame. قبل ذلك، دلّل برتلماوس الأوّل على أهميّة مئويّة كاتدرائيّة القدّيس اسطفانوس الأرثوذكسيّة في باريس، بصلاة احتفاليّة دامت خمس ساعات. وقد استقبله الثلاثة آلاف مؤمن يونانيّ الذين أُحصوا في مرسيليا بكلّ ترحيب. هذه الاحتفالات لم ترق في عيني موسكو. لقد كان لي في آذار ١٩٩٣، أثناء عشاء خاصّ في Salzbourg، حديث طويل مع بطريرك القسطنطينيّة. كان هناك بطريقة متخفّية، ولم أعرفه إلاّ عندما خلع معطفه. بدت لي على صدره أيقونته العظيمة المتوهّجة، تغطّيها الحجارة الكريمة. لقد بدت عليّ الدهشة إلى أن قدّم ذاته. سألته ماذا جاء يفعل في النمسا فشرح لي بأنّ غاية سفره، ليس فقط الاتصال بالجماعات الأرثوذكسيّة النمساويّة والمجريّة، بل أيضاً وضع معالم في هذا البلد، حيث غدا بإمكان كلّ واحد ومنذ قليل (سقوط حائط برلين) ممارسة الدين على هواه، وقد توقّف هنا ليذهب ويصلّي على قبر Herbert Von Karajan. ومن ثمّ سلّمني الرجل ذو اللباس الأسود بطاقة الزيارة المكتوب عليها: "S. H. Patriarch Bartholmeos Rum Patrikhanesi - 34220 H. Fener, Istanboul, Turkei". قد ذهلت بأن تصدر حركة من هذا النوع من شخصيّة مثله. تصوّروا البابا يناولني بطاقة زيارته. كان ذاهباً في الغداة إلى بودابست، على متن طائرة خاصّة أعاره إيّاها الصناعيّ اليونانيّ الغنيّ Dimitri Pappas. كان يرافقه ميتروبوليت فيينا الأرثوذكسيّ. عندما قلت له بأنّي كاثوليكيّة، أغدق كلمات الثناء على البابا(بلغة فرنسيّة لا عيب فيها، لأنّه يتكلّم سبع لغات مثل البابا) وعلى المسكونيّة، وأسمعني بأنّ الأرثوذكسيّة التي يمثّل، إنّما هي في المجر في منافسة مع الكاثوليكيّة جهاراً، وأنّ عليه أن يسرع في الذهاب.

لقد لفت المونسينيور Jean - François Arrighi الفيلسوف انتباهي إلى شيء قبل موته بقليل، هو الذي كان لمدّة طويلة أمين سرّ المجمع البابويّ لوحدة المسيحيين، إذ قال لي: "لا ترمَمُ حبريّةٌ واحدةٌ ما أفسدته عصور، حتّى مع سفراء رسميين أو غير رسميين لهم الحول والطول". إنّه ولا شكّ يريد أن يعني، ليس فقط عن الكاردينال Schönborn، بل أيضاً الكاردينال الفرنسيّ Roger Echegaray، الذي لعب عدّة مرّات بالنسبة إلى الأرثوذكسيّة دور السفير البابويّ الجوّال (كما فعل أخيراً في اسرائيل وحالفه النجاح).

لم يأتِ سفر الأب الأقدس إلى رومانيا في أيّار ١٩٩٩ بنتائج البتّة. لقد دعاه بطريرك الكنيسة الأرثوذكسيّة الرومانيّة إلى زيارة Bucarest. فغبطة البطريرك Teoctist هو إنسان مُنْتَقَدٌ، لأنّه تورّط مع حكم Ceausescu الشيوعيّ. ومع ذلك فإنّ الزيارة قد لاقت نجاحاً شعبيّاً كبيراً. لقد حضر مئتا ألف شخص القدّاس الذي احتفل به يوحنّا بولس الثاني في الهواء الطلق، أمام قصر الديكتاتور المتوفّى، الجميل جدّاً. لقد كان الجمهور يلوّحون بصور للبابا ولغبطته، ويحركّون أعلاماً صفراء وبيضاء. وكان الشباب يتزاحمون ليشاهدوا "ذاك الذي أسقط الحائط". ولكنّ كثيرين منهم أثاروا الانتباه بصلواتهم لكي "يعود البابا إلى الدين الصحيح..."

كان على يوحنّا بولس الثاني أن يتقبّل إهانة، عندما منعته حكومة Bucarest من الذهاب إلى Transylvanie، حيث المتّحِدون بكرسيّ روما كثيرون. هنا أيضاً، لم يتمكّن الكاثوليك الشرقيّون الذين يخضعون له من استعادة كنائسهم التي صادرها Ceausescu. علاوة على ذلك، إنّهم من أصل مجريّ.

بعد عشرة أشهر ذهب يوحنّا بولس الثاني إلى جيورجيا، وذلك في تشرين الثاني ١٩٩٩، إنّما النتيجة كانت هزيلة. لقد احتفل البابا بالقدّاس في Tbilissi في بناء مغلق، لا في ساحة من ساحات المدينة، نزولاً عند رغبة البطريركيّة. فالبطريرك إيليّا الثاني الذي حضر احتفالين، تحفّظ بألّا يلفظ كلمة "مسكونيّة" أبداً، بينما راح البابا يطلق النداء لوحدة كلّ المسيحيين. وما كان في الامكان القيام بصلاة مشتركة بين وريث القدّيس بطرس، وبين وريث الرسول أندراوس أخي بطرس، والذي، حسب التقليد المحليّ، هو الذي بشّر جيورجيا.

هو رئيس جورجيا Edouard Chevarnadze، المعجب الكبير بيوحنّا بولس الثاني، من أجبر إيليّا الثاني على استقباله. من هنا، ومن بين أسبابٍ أخرى، هذه البرودة في الاستقبال. وإلى هذا أشار البابا على أحد المقرّبين منه، والذي بدوره قاله لي: "إنّ الحكومات تنظر إليّ بعذوبة أشدّ من الكهنة الأرثوذكس. ولقد ردّ أيضاً على وزير روسيّ كان يقول كعلامة حسن استقبال: "المسيح قد قام".

– "الأفضليّة بالنسبة لي هي استقبالي في الكنائس أكثر ممّا في القصور".

أمّا الاهانة الأخيرة التي تعرّض لها يوحنّا بولس الثاني من قبل الأرثوذكس فهي إنّما كانت إبّان سفره إلى القاهرة في آذار ٢٠٠٠. فالبابا شنودا الثالث، بطريرك ستّة ملايين قبطيّ أرثوذكسيّ، تبادل مع الأب الأقدس بتكلّف ظاهر صلباناً قبطيّة مع صلبان لاتينيّة، من دون أن يعرضوا أيّاً من الموضوعات التي هي سبب خلاف بينهم، من وجود المطهر إلى انبثاق الروح القدس. والهوّة الأعمق هي دوماً مسألة أولويّة أسقف روما المهمّة. فالأقباط الذين بشّرهم الرسول مرقس، لا يرون لماذا عليهم أن يخضعوا لخليفة رسول آخر هو بطرس. بالاضافة إلى ذلك، فإنّ لجنة الفاتيكان والكنيسة القبطيّة، التي شكّلت لتزيل الاختلافات العقائديّة، لم تنعقد منذ عشر سنوات. إنّ شيخ الجامعة الاسلاميّة: الأزهر، كان أشدّ تحبّباً للبابا، فاستقبله وسط جماعة الأساتذة المهيبة.

إنّ لفي ذلك إغاظة كبيرة، إذ استقبل رهبان دير القدّيسة كاترين الأورثوذكس الحبر الأعظم على جبل سيناء ببرودة. ليس هذا سهلاً. فعشرات الرهبان بثيابهم السوداء ولحاهم الطويلة وسحنهم الحذرة، كانوا يتجمّعون بقيادة رئيسهم في زاوية، وعلى بضعة أمتار من الاحتفال الحبريّ، يتحادثون فيما بينهم وكأنْ لا شيء يحدث حولهم، بينما كان يوحنّا بولس الثاني يرأس حفلة دينيّة بحضور بضعة آلاف من المؤمنين. ولقد حثّ المونسينيور Damianos البابا في خطابه "أن يعود بكلّ تواضع إلى الايمان الصحيح". لقد بقي الرهبان على حدَة في كلّ الوقت الذي كان فيه البابا وصحبه يصلّون على صوت عالٍ. وما تجب الاشارة إليه، هو أنّ العادة هي هي منذ انفصال الكنيستين. على أنّ يوحنّا بولس الثاني، كدبلوماسيّ محنّك، هو يتصرّف بفطنة مع الانقسامات الداخليّة التي تتواصل بين كلّ هذه الكنائس الأرثوذكسيّة. إنّ هذا الصراع الراعويّ الصعب الذي يتطلّب أسفاراً مضنيَة يستحثّه جسديّاً وعقليّاً على السواء.

هل يشعر البابا بسعادة أكبر مع الصين؟ فمنذ أن طرد Mao Tsé-Toung الرهبان الكاثوليك في ١٩٤٩ وسجن بعضهم، تمزّقت الكنيسة الكاثوليكيّة الصينيّة. ولكي تؤطِّرَ السلطات الشيوعيّة المؤمنين، أنشأت لهم في الواقع كنيسة كاثوليكيّة رسميّة تسمّي هي أساقفتها من دون أن تمرّ بالبابا. تختارهم الرابطة الكاثوليكيّة الوطنيّة التي أُنشئت في ١٩٥٧، والتي وضعت تحت مراقبة الحزب مراقبة دقيقة.

على هامش هذه الكنيسة الخاضعة، ما زالت قائمةً كنيسةٌ خفيّة خاضعة دوماً للبابا (ومن هذا المنطلق هي عرضة لاضطهادات الحكم الشيوعيّ). وهي تحصي، حسب الكرسيّ الرسوليّ، ثمانية ملايين عضو. وحسب جمعيّات الدفاع عن حقوق الانسان، فإنّ ستّين من هؤلاء الكاثوليك "الخفيّين" هم مسجونون، ومن بينهم أسقف بعمر الستة والسبعين عاماً (في آب ٢٠٠٠، أثناء الأيام العالميّة للشبيبة، بينما كانت الصين القاريّة غائبة رسميّاً، ذهب بطريقة خفيّة إلى روما ١٠٠ طالب من الذين يتلقّون علومهم في أوروبا ليشاركوا في هذا التجمّع). ومع هذا، ينوجد الكاثوليك الرسميّون والكاثوليك الخفيّون معاً في أيّام الحجّ إلى معبد عذراء She Shan الكبير، الذي نصب تذكاراً لظهور عجائبيّ في ١٩١٠. ويكرِّم الكاثوليك الصينيّون أيضاً القدّيسة تريزا الطفل يسوع، شفيعة الإرساليّات (في يوم عيد الجمهوريّة الشعبيّة، في الأوّل من تشرين الأوّل).

يعمل يوحنّا بولس الثاني جاهداً لتطبيع العلاقات بين البابويّة والصين الشيوعيّة. ولكن من الصعب التوفيق بين طموحات الفريقين. فالبابا، طبعاً هو يطالب بأن تخضعَ له تسميةُ المطارنة. وبالعكس تطالب بكّين أن يقرّ الكرسيّ الرسوليّ بشرعيّة المطارنة الذين تسمّيهم الجمعيّة الكاثوليكيّة الوطنيّة. في بادئ الأمر، أُنْذِرَ الفاتيكان بأن يقطع علاقاته مع Taïwan، التي كان هو أوّل من اعترف بها.

إنّ المفاوض في هذا القسم الصينيّ الصعب إنّما كان الكاردينال Angelo Sodano الذي كان يبدو متفائلاً حتّى الأيّام الأخيرة، وبالضبط حتّى السادس من كانون الثاني الأخير، اليوم الذي تمّت فيه تسمية خمسة أساقفة من قبل بكّين من دون أدنى تشاور مع البابا، وفي الوقت الذي كان يسمّي فيه البابا في روما اثني عشر أسقفاً غربيّاً في حفلة هي من أهمّ الحفلات الفاتيكانيّة وأبهاها تلك السنة، وكان يحضرها كلّ الدبلوماسيين

وكلّ مجلس الكرادلة والسلطات الايطاليّة الشرعيّة. تأتي المصادفة، وكأنّ بكّين تتعمّدُها، والغاية منها محدّدة، ألا وهي النكاية.

لا يفتأ الكاردينال Angelo Sodano يردّد في بكّين بأنّ الفاتيكان يرتضي بمعاهدة كالتي أبرمها مع فيتنام، وتقوم بأنّ البابا هو الذي يسمّي الأساقفة، إنّما هي تسمية يبقى أن توافق عليها حكومة Hanoï. إنّ معاهدة من هذا النوع مع البلد الآهل الأكبر بالسكّان في الكون، تسمح بتوحيد كنيسته الكاثوليكيّة الرسميّة وكنيسته الخفيّة. وفي الفاتيكان تسري وشوشات بأنّ يوحنّا بولس الثاني قد يكون سمّى كاردينالاً صينيّاً جديداً في السرّ. ثمّة تقليد قديم، يمكّن البابوات من تسمية كرادلة تبقى أسماؤهم سرّيّة، في العموم لأسباب سياسيّة، مجنّبينهم هكذا أعمالاً انتقاميّة في وطنهم. وإذا ما تغيّر الوضع، يكشف الأب الأقدس عنهم، وقِدَمُهُمْ يرجع إلى يوم تسميتهم السرّية. في الحقيقة، إذا مات البابا قبل أن يعلن عن المعيّن فلا أحد أبداً يمكنه معرفة اسمه. في ٣٠ حزيران ١٩٧٩ كان يوحنّا بولس الثاني قد سمّى كاردينالاً صينيّاً في السرّ. بعد اثنتي عشرة سنة، إبّان مجمع الكرادلة في ٢٨ حزيران ١٩٩١، أعلن البابا أنّ الأمر كان يتعلّق بالمونسينيور Kung Pin-Mei Ignatius المائت حديثاً عن عمر ٩٩ سنة. طبعاً نحن لا نعلم اسم الكاردينال الصينيّ الجديد السرّيّ. إنّ اسقف Shangaï الحاليّ "الرسميّ" المونسينورJim Luxian، تعتبره الكنيسة الخفيّة كمعاون لها. وعلى ما يُظنُّ، يسمع البابا له، ويلعب بطيبة خاطر دور السفير بين بكّين والفاتيكان.

مع الأسف، إنّ التسمية المفاجئة لخمسة أساقفة من قبل بكّين، جمّدت المحادثات من جديد، وجمّدت سفر البابا المبدئيّ إلى الصين، الذي اعتُبر بأنّه سيحصل في ١٩٩٩ على أثر مفاوضات سريّة، ويبدو أنّه أُرجئَ إلى أجل غير مسمّى. يُستدلُّ من تبدُّل الصينيين أن خطّ الحزب الصلب الذي يعتبر الكنيسة الكاثوليكيّة كغوّاصة للرأسماليّة هو المنتصر. من ناحية أخرى، إنّ الاعتراضات الصينيّة الحديثة والعنيفة ضدّ تطويب يوحنّا بولس الثاني في الأوّل من تشرين الأوّل الأخير، لمئة وعشرين شهيداً كاثوليكيّاً عاشوا ما بين القرن السابع عشر والقرن العشرين، تضاف إليها ذكرى الجمهوريّة الشعبيّة –مع أنّ الفاتيكان كان أسِفَ للمصادفة– لا تبشّر بالخير.

عندما نأتي على ذكر هذه التحدّيات الكبرى أمام يوحنّا بولس الثاني، يجيب كما لو أنّه يعزّم على القدر : "سنرى في السنة القادمة إذا كنت بعد حيّاً".

فالذين يراقبونه مثلي منذ سنوات، يسترعي انتباههم عند هذا الرجل غير العاديّ قدرته في أن يبرز من جديد حماسه المعدي. نظنّ أنّه تعبٌ وحتّى منهك، ومن ثمّ يرشقُك بجملة مثيرة ومفاجئة. إنّ شيئاً غريباً لا يوصف ينبعث من حضوره. أنا من رأيته عن قرب أو عن بعد، على انفراد أو بين جماعة صغيرة أو وسط جماهير محتشدة، كنت كلّ مرّة ودوماً عرضةً بأن يستولي عليّ انفعال خفيّ. في أوقات القنوط أو الشكّ، أوقات الفخر والفرح، وعندما تسنح لي الفرصة بأن أقترب منه، كنت أعود وقد تجدّدت فيّ قوّة داخليّة. إنّي لمقتنعة بأنّ هذه التحدّيات الأخيرة، سينتصر عليها كما انتصر على غيرها. ما من شيء يُعجز الانسانَ الذي هدم الحائط. إنّ البرهان الأقوى هو ما أعلنه الناطق باسمه في ١٨ تمّوز الأخير في Cambes، القرية الصغيرة من Val d'Aoste حيث كان يمضي قسماً من عطلته الصيفيّة؛ لقد أعلن Joaquim Mavarro-Valls قائلاً: "يفكّر البابا في الذهاب إلى سوريا واليونان وإلى أثينا بالتحديد على خطى القدّيس بولس. ولكن، حتّى الآن لا شيء تقرّر". ولقد حدّد أيضاً قائلاً: إنّ يوحنّا بولس الثاني يرغب دوماً في الذهاب إلى موسكو. أمّا سفيره الجوّال، الكاردينال Roger Etchegaray، فأعلن حديثاً، مذكّراً بالعلاقات المتوتّرة بين روما وبكين: "يدلّ التاريخ بأنّه من الممكن إيجاد حلول في ظلّ كلّ المناخات السياسيّة..."

الفصل الحادي عشر

شكراً أيّها الأب الأقدس

لا اللاهوت، ولا الفاتيكان الذي يستمدّ حكمه من الحقّ الالهيّ هما اللذان أغوياني، حتّى ولو كان أمير الكنيسة يسك فيه العملة، ويصدر الطوابع البريديّة، ويطبع صورته على الميداليّات. فلا سلطان المؤسّسة الواسع استولى عليّ، ولا المؤامرات، ولا الوشوشات المشكّكة. غيري كثيرون تناولوا هذا، وكتبوا حوله قصصاً ببراعة لا تبارى. ليس هذا ما جذبني، ولا هذا ما كنت أحاول أن أكشف الستارة عنه، أو أحاول أن أفهمه. فأنا التي، منذ زمن طويل، قد امتهنتُ الصحافة السياسيّة، وتآلفت ومراكز السلطة وغرف الانتظار فيها، ما من طرفة من هذه الطرائف بهرتني. ماحاولت أن أصفه إنّما هو تاريخ إنسان ارتقى أسمى درجات الكنيسة في مدّة اثنتين وثلاثين سنة؛ هي حركات إنسان غير عاديّ، الكبيرة منها والصغيرة؛ وهو مزاجه وردود فعله. في بادئ الأمر، لم أكن أفهم لماذا يتلقّى يوحنّا بولس الثاني، أينما كان، التصفيق والهتاف الشديدين. فبقدر ما كانت تزداد معرفتي له شيئاً فشيئاً، كنت أكتشف كم كان هذا البابا، المُعدي بهدوئه، شخصاً مواهبيّاً. أظنّ أنّي كنت قد رأيته طويلاً أكثر من مئة مرّة قبل أن آخذ القلم: لقد رأيته في كبالّته الخاصّة، وفي طائرته، في الكنائس الصغيرة، وفي قدّاساته الجماهيريّة. رأيته وهو يمنح سرّ العماد لأطفال في الكنيسة الـSixtine، وهو يحتفل في مار بطرس في روما بيوبيله الكهنوتيّ يحيط به مئات من الكهنة مجايلون له، رأيته أمام الآلاف من الحجّاج في هافانا وبرلين وفيينّا أو في أورشليم وفي Sainte Anne d'Auray كما في باريس. في حضرته، لم أوفّق أبداً أن أتماسك عن التأثّر الذي كان يصل بي أحياناً حتّى ذرف الدموع. لقد استولى عليّ دوماً حيث كنت، أوَحيدةً على مقربة

منه أو غارقة بين جماهير على مدّ النظر. ولقد كان يستولي عليّ بكلماته، وبنظراته، وبقوّته الجسديّة وبكيمياء غريبة. انطلقتُ في كتابة هذا المؤلَّف بعد خمس سنوات من تسجيل كلّ شيء على دفاتر للتلاميذ سميكة، وكنت آنذاك قبالة مزار La Garoupe أستمع إلى تراتيل تصعدُ نحو السماء. على مرّ الأيّام، عبر أنواع عديدة من الأحداث، الرسميّة منها أو الخاصّة، حاولت أن أكشف سرّ Karol Wojtyla. مع الشكوك التي كانت تخامرني والحماس الذي كان يحفّزني، مع اقترابي الأنثويّ وذاتيّتي التي جعلتني أكون مشبوبة العاطفة، جرّبت أن أشارك الآخرين بالاعجاب الذي يوحي لي به إشعاعه. إنّ له حقّاً هالة البابا الطبيعيّة. إنّه خليفة بطرس ونائب المسيح. ولكنّ فيه أيضاً وهج صوفيّة رجل عظيم يعضده الإيمان. إنّ لحضوره معنىً يعطيك صدىً عميقاً من الشعور بأنّك وحدك معه. أخاف ألاّ أكون قد نجحت تماماً في وصف المغنطيس الذي ينبعث منه. هذا يَحسنُ أن يعيشه الانسان مباشرة. لقد توافق الأب الأقدس مع حضوري بسخاء وصبر كبيرين. غالباً ما كان يتصرّف وكأنّ البروتوكول لا وجود له. لم أشعر أبداً بتبرّم من ناحيته ولا بانفعال عندما كنت أُخرِجُ أقلامي الضخمة لأنوّه بأهمّية كلمات أو لأدوّن ملاحظات. لقد استجاب، مرّات عديدة، بلطف لا متناهٍ، لعدسة المصوّر الذي كان يرافقني وبأكثر سهولة من أيّة من نجمة من النجوم السينمائيّة. لقد منحني بركته أكثر من مرّة، ممّا أعطاني إنّي أتصوّر ذلك الدفعَ الضروريّ كي أؤمن بهذا المشروع. بفضل المقرّبين منه ومشاركة المونسينيور Dziwisz التي لا لُبس فيها، تمكّنت دوماً من أن أراقب من الداخل طريقة حياته اللازمانيّة. وهكذا بنزولي إلى الأرض، أردت أن أروي سيرة عاديّة لبطل غير عاديّ.

إنّ ذكريات عديدة تسكن فيّ. ولكنْ الأكثر تأثيراً عليّ، تبقى دوماً ذكرى لقائي الأوّل معه. لقد حدّق ببصره القويّ في عينيّ، بصرِه الذي تشع منه طيبةٌ لا متناهية، وحبس يديّ بين يديه.

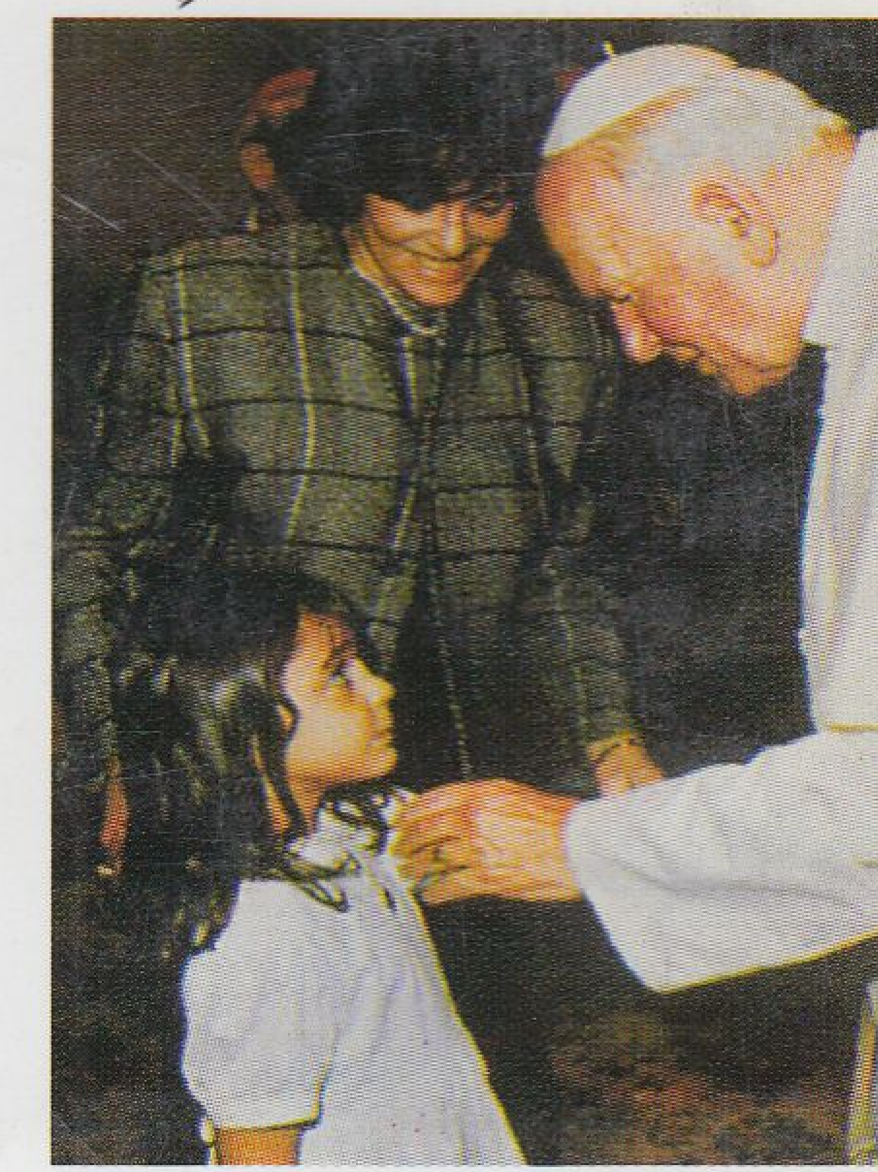
انتهى نقل هذا الكتاب في ٨ أيلول ٢٠٠١،
عيد مولد العذراء، في الديمان

المحتوى

للمرّة الأولى، تتوغّلُ صحافيّةٌ في الڤاتيكان..

إلى البابا يوحنّا بولس الثّاني.

منذ بضع سنوات، أخذت مؤلّفةُ هذا الكتاب على عاتقها هذا التّحدّي: الدّخولُ مع مصوّرٍ إلى جناح البابا الخاصّ، ومقابلته، واستجوابه.



فبكلّ صبر وعزم، اقتحمت كارولين بيكوزي Caroline Pigozzi البابَ البرونزيّ لأصغر دولة في العالم، ونسجت أواصرَ ثقة واحترام وفرح مع الرّجل الأكثر تناولاً في وسائل الاعلام، والأكثر توارياً وحماية على وجه الأرض.

كيف يعيش يوحنّا بولس الثّاني؟ كيف تتوالى وتبدو أيّامه؟ من هم زوّاره، ومن هم أصدقاؤه؟ لقد بدّل الحياة المعتادة في الڤاتيكان وقلب، رأساً على عقب، العلاقاتِ التّقليديّةَ التي أرساها أسلافُه، سواءٌ بينه وبين الكاثوليك، أم بينه وبين رؤساء الدّول، وبينه وبين التّلفزيون.

فما أن اجتازت كارولين بيكوزي الحاجزَ الذي تشكّله حَلْقةُ البولونيّين: الحرّاسِ المقرّبين من الحبر الأعظم، حتّى أخذت تحادثُ مستشاريه، وتعتلي الطّائراتِ التي يستقلّها لافتتانِ الشّعوب. فقد التقت من يَسهرون على صحّتِه. وبلغتْ بولونيا حيثُ أصدقاؤه أيّامَ الاكليركيّة، ومنتجعاتُ الجبال التي يَطيبُ له قضاءُ عطلة الصّيف فيها. ما من شيء غفَلت عنه عينُ كارولين بيكوزي الثّاقبة. لهذا، فإنّ القارئَ راسخُ القدمين حيثُ لم يَبلغْ من ذي قَبل: خصوصيّة يوحنّا بولس الثّاني.

كارولين بيكوزي كاتبةُ تحقيقاتٍ شهيرةٌ في مجلّة باري ماتش. وقد حازت جائزة مَامّ Mumm عن تحقيقاتها حول كارول ڤوتيلا Karol Wojtyla.



ISBN 9953-418-38-1